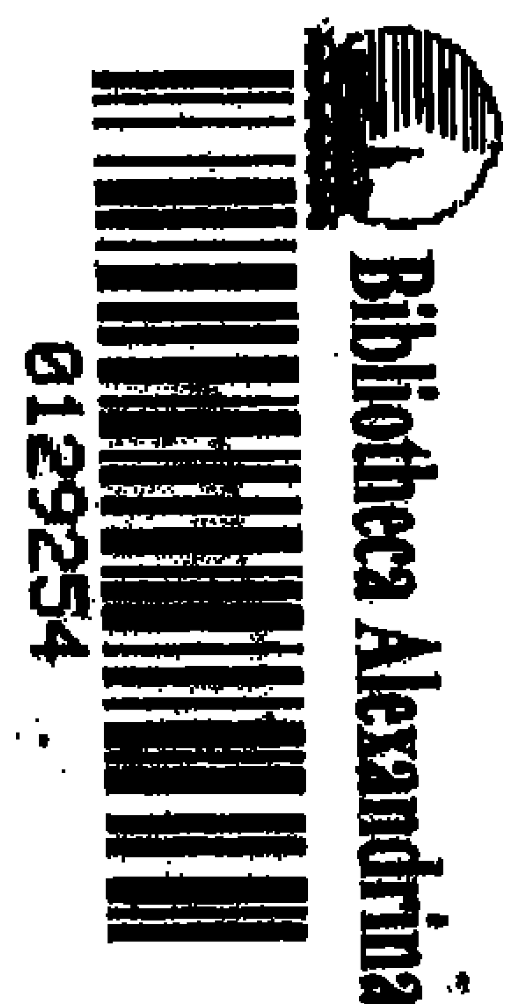
الانتصارات الإسلامية

فى علم مقارنة الأديان

تأليف الشيخ الإمام
نجم الدين البغدادى الطوفى
الحنبلى السلفى المتوفى سنة ٧١٦ هجرية



دراسة وتحقيق
الدكتور أحمد حجازى السقا

الانتصارات الإسلامية

في علم مقارنة الأديان

تأليف الشيخ الإمام

نجم الدين البغدادي الطوفي

الحنبلي السلفي المتوفى سنة ٧١٦ هجرية

دراسة وتحقيق

الدكتور أحمد حجازي السقا

نجم الدين البغدادي الطوفي

٦٥٧ - ٧١٦ هـ = ١٢٥٩ - ١٣١٦ م

سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الطوفي الصرصري ، أبو الربيع ، نجم الدين : فقيه حنبلي ، من العلماء . ولد بقرية طوف - أو طوفا - (من أعمال صرصر ، في العراق) ودخل بغداد سنة ٦٩١ هـ . ورحل إلى دمشق سنة ٧٠٤ هـ وزار مصر ، وجاور بالحرمين ، وتوفي في بلد الخليل (بفلسطين) له : « بغية السائل في أمهات المسائل » في أصول الدين و « الإكسير في قواعد التفسير » و « الرياض النواضر في الأشباه والنظائر » و « معراج الوصول » في أصول الفقه و « الذريعة إلى معرفة أسرار الشريعة » و « تحفة أهل الأدب في معرفة لسان العرب » و « الإشارات الإلهيـــة والمباحث الأصولية » و « العذاب الواصب على أرواح النواصب » حُبس من أجله ، وطيف به في القاهرة ، و « تعاليق على الإنجيل » و « شرح المقامات الحريرية » و « مختصر الجامع الصحيح للترمذي — خ » في مجلدين [١] .

* * *

وجاء في فهرس معهد المخطوطات العربية عن الكتاب ما نصه :

(الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية) تأليف نجم الدين البغدادي الطوفي .

نسخة كتبت سنة ٧١١ هـ نقلا عن نسخة المؤلف (أحمد الثالث ١٨١٢ / ١٢٢ / ٢٦×١٧ سم) .

---

(١) الكتبخانة ١ : ٤١١ وجلاء العينين ٢٣ والمنهج الأحمد - خ وشذرات الذهب ٦ : ٣٩ والدرر الكامنة ٢ : ١٥٤ والأنس الجليل ٥٩٣٤٢ وهو فيه « سليمان بن عبد الله الطوفي » .

تقـديم

هـذا كتاب جيد فى علم مقارنة الأديان ، ألفه عالم من علماء السلف لنقد كتاب ألفه نصرانى للطعن فى دين الإسلام . ومجمل ما فى الكتاب ما يلى :

بين فى المقدمة الأولى : أن كتب التوراة والإنجيل ، وكذا الأحاديث النبوية الضعيفة ، لا يستدل بشىء منها على نقص فى دين الإسلام .

وبين فى المقدمة الثانية : أن العقل أحياناً لا يستطيع معرفة الحكمة من بعض النصوص الشرعية . وفى هذه الحالة يجب التسليم بالنصوص وإن كانت الحكمة فيها خافية . وغرضه من هذه المقـدمة : أنه لا يجب الطعن فى دين الإسلام بنصوص شرعية من السنة ، عقولنا قاصرة عن فهم المراد منها .

وبين فى المقدمة الثالثة : أن الشريعة الإسلامية تستند على القرآن الكريم والسنة الصحيحة . والشريعة لها أصول ولها فروع . ولا تثبت أصول الشريعة إلا بالمتواتر . أما خبر الواحد والقياس الظنى والاستحسان والاستصحاب وقول الصحابى ونحوه ، فلا تثبت به الأصول « لأن تلك أخبار توجب العمل دون العلم لكونها مظنونة الثبوت ، وإن كانت فى البخارى ومسلم ، لاحتمال وقوع علة قادحة فى طريقها » .

ولم يلتزم المؤلف بهذه المقدمة حيث نقل عن النصرانى أحاديث ضعيفة يطعن بها فى نبوة محمد ﷺ وأجهد نفسه فى توجيهاتها ، وكان يلزمه بحق المقدمة الثالثة أن يعترف بضعفها ويسكت .

وبعدما فرغ المؤلف من ذكر المقدمات الثلاث شرع يذكر عبارات

للنصرانى ويعلق عليها، وعبارات النصرانى أكثرها الطعن فى الاسلام، وعبارات المؤلف هى للدفاع عن الإسلام .

ولما فرغ من نقد كتاب النصرانى ، كتب خاتمة للكتاب تتضمن عشر حجج واضحات على صحة دين الإسلام ، وصدق محمد — عليه السلام —

الحجة الأولى : أن المعجزة تدل على صدق النبى ، ومحمد ﷺ أتى بالقرآن الكريم معجزة .

الحجة الثانية : أن محمداً ﷺ لو لم يكن نبياً صادقاً لما بقيت دعوته إلى هذا اليوم .

الحجة الثالثة : اقتضت إرادة الله إرسال أنبياء إلى العالم للإصلاح . واقتضت أن يكون محمداً ﷺ من الأنبياء . وقد أيده الله كما أيد الأنبياء بالمعجزات .

الحجة الرابعة : لو كان محمد ﷺ ملكا لأهلك اليهود والنصارى لمخالفتهم لدينه ، لكنه لم يأمر بهلاكهم إذا بقوا على دينهم مع دفع الجزية للمسلمين . فدل ذلك على أنه ينفذ فيهم أحكام الله .

الحجة الخامسة : لو لم يكن محمد ﷺ نبياً ، لأغرى الناس بتكذيب كل ما فى كتب اليهود والنصارى ، لكنه أنصفهم باعترافه بأن فى كتبهم حق وباطل . وهذا يدل على أنه ما ينطق عن الهوى ، لأنا علمنا بالاستقراء من ملوك الدنيا أجمعين : أن أحداً منهم لم يترك من آثار من قبله من الملوك والأنبياء ما يعذر منه على ملكه إلا عجزاً .

الحجة السادسة : يدعى النصارى : أن المسيح هو الله ، أو ابن الله ، وقد ظهر فى العالم ليفدى الناس من الإثم، ثم صعد وجلس عن يمين الله . فإن كان هذا حقاً — وما هو بحق — فقد كان يجب على الله — وما يجب عليه شىء — أن يقول لابنه حين ظهر محمد بدعوته : أهلك هذا ولا تدعه يفتن الناس ويضلهم .

الحجة السابعة : جرت عادة الله بأن يرسل الرسل للناس إذا احتاج الناس إليهم ، والعرب اشتدت حاجتهم لرسول ، فبعث الله إليهم محمداً عليه السلام . ليقمع الشرك ويمحو الضلال ، ولما قمع الشرك ومحا الضلال ثبت أنه رسول صادق . ومن صدقه أنه أخبر عن أمر الله أنه رسول إلى الناس أجمعين ، فيجب تصديقه .

الحجة الثامنة : إن محمداً عليه السلام كان عالى الهمة ، ومن كان عالى الهمة لا يكذب لئلا تسقط مروءته .

الحجة التاسعة : لو أن محمداً — عليه السلام — كاذب في دعوى النبوة — وما هو بكاذب — لترك الناس دينه بعد موته ، ولفطن العرب إلى كذبه . وانفضوا من حوله .

الحجة العاشرة : من محاسن محمد ﷺ أنه لم يغض من قيمة الأنبياء الذين كانوا من قبله ، ومحاربة أتباع موسى وعيسى له لم تحمله على الانتقاص من قدر موسى وعيسى . وهذا يأتاً كيد يدل على نبوته .

* * *

وطعن اليهود والنصارى في دين الإسلام على أنواع . منها الذم الصريح . وهذا النوع لا يلتفت إليه المسلمون ، لأنهم ذموا أنبياءهم من قبل وقتلوا كثيرين منهم . ومن أنواع الطعن نوع ملتوى ، خلطوا فيه الحق بالباطل ، وذلك بأن يتظاهر واحد منهم بالإسلام ، ثم يؤلف كتاباً يتحدث فيه عن محاسن الإسلام ، وفي ثنايا الكلام يضع الشبهات والغمزات . وهذا النوع هو الذى أضر بالمسلمين إلى اليوم ، لأنه إذا قام مسلم مخلص للإسلام انتقد الكتاب وبيان زيفه عارضاً الشبهات وموضحاً مرمى الغمزات ، يتصدى له عالم من المسلمين قائلا: بأن الكتاب مفيد وصالح للتعليم . ومستنده هو الكلام الحسن.

لا الشبهات ولا الغمزات ، والأمثلة على ذلك كتب التصوف [1] ، وبعض الأحاديث النبوية التى وردت عن طريق الآحاد ، والمتواتر أيضاً .

وبعدما يتلقى المسلمون كتبهم بالقبول ، يقوم يهودى أو نصرانى للطعن فى الدين بتلك الشبهات والغمزات . ويكون رد الفعل من المسلمين أن يقوم بعض العلماء فيسلم بأن الشبهات حق والغمزات صدق ، ثم يجهد نفسه فى التأويل والدفاع . ومع اجتهاده تظل الشبهة قائمة لم ترتفع .

والأمثلة على ذلك : هذا النصرانى الذى طعن فى القرآن الكريم بتفسيرات لبعض آياته فسرها أصحاب الأهواء من اليهود والنصارى الذين تظاهروا بالإسلام ، مثل تفسيرهم قول الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ، ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم) إن معناها : كل رسول وكل نبى يتمنى هداية قومه ، لكن الشيطان يوسوس للرسول أو للنبى بترك الدعوة خوفاً من أذى قومه ، فالله تعالى يمنع وسوسة الشيطان من القلب . ويقوى قلب الرسول أو النبى فيبلغ الرسالة ، وإذا بلغها فإن آيات الله تكون أحكمت ، لأن إرادته قد نفذت . هذا هو معنى الآية « والله عليم حكيم » .

وأصحاب الأهواء يفسرونها بأن الشيطان نفسه نطق على لسان محمد ﷺ بمدح الأصنام والثناء عليها . ثم يأتى مثل هذا النصرانى بعد زمان وقد رسخت هذه المعانى السقيمة فى أذهان الناس وتلقوها بالقبول . فيطعن فى الدين بها .

ماذا على المسلمين من التصريح بتكذيب تفسير أصحاب الأهواء ؟ حتى لا يتخذ الأعداء من كلامهم ، وتصديق المسلمين له ، سلاحاً للقضاء على الدين .

وأيضاً يجب على علماء المسلمين أن يصرحوا بقيمة الأحاديث النبوية ومنزلتها فى العقائد والتشريع ، ولا يخشوا مواجهة العامة . فذلك أحسن من

---

(١) مما يؤسف له أن عبد الحليم محمود ، أحيا الميت من هذه الكتب المزورة .

التسليم بضعفها ، والتحدث كذبا بصدقها . إننا إن لم نصرح نعطى الأعداء سلاحاً للقضاء على الدين .

يا علماء المسلمين أنتم تعرفون أن الأحاديث النبوية فرقت المسلمين إلى سنيين وشيعة،وما بعضهم يؤمن بأحاديث بعض . فصحيح البخارى عند أهل السنة كتاب كاذب فى نظر الشيعة ، والكافى عند الشيعة كتاب كاذب فى نظر أهل السنة . فهلا اديتم بالقرآن الكريم ، والأحاديث النبوية المفسرة والموضحة لمعانى القرآن الكريم . منعاً للخلاف وحسما للنزاع ، وتوحيداً لكلمة المسلمين فى مواجهة الإلحاد وكفر أهل الكتاب ؟

* * *

ولكى يعلم من لا يعلم فى هذا الشأن . أنقل نص ما كتبه الامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر - رحمه الله تعالى - فى كتابه «الاسلام عقيدة وشريعة » عن قيمة السنة فى نظر العلماء : يقول - رحمه الله - ما نصه :

القرآن ... وثبوت العقيدة

وتطبيقاً للمبادىء التى ذكرناها ، يتبين لنا : أن الطريق الوحيد لثبوت العقائد هو القرآن الكريم ، وذلك فيما كان من آياته قطعى الدلالة (لا يتحمل معنيين فأكثر) كالآيات التى ذكرناها من قبل فى إثبات الوحدانية والرسالة واليوم الآخر .

وأما ما كان غير قطعى من دلالته ، محتملا لمعنيين فأكثر ، فهذا لا يصلح أن يتخذ دليلا على عقيدة يحكم على منكرها بأنه كافر ، وذلك كالآيات التى استدل بها بعض العلماء على رؤية الله بالأبصار فى الدار الآخرة : «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » . « إن الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون » . « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » . ولم يسلم لهم آخرون من العلماء فهمهم فيها ، بل

نفوا الرؤية المذكورة بآية أخرى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

وإذن فثبوت العقيدة بالقرآن أو عدمه مبنى على قطعية الدلالة أو ظنيتها . أما قطعية الورود فهذا لا شك فيه ، إذ القرآن كله قد وصل إلينا ، كما أنزله الله متواتراً جيلا عن جيل .

السنة .. وثبوت العقيدة

منشأ ظنية السنة :

وإذا كانت العقيدة لا تثبت إلا بنص قطعى فى وروده ودلالته ، كان لا بد من تبيين المبادىء التى تقوم عليها قطعية السنة أو ظنيتها .

وأول ما يجب التنبه له فى هذا المقام أن (الظنية) تلحق السنة من جهتى الورود والدلالة . فقد يكون فى اتصال الحديث برسول الله ﷺ شبهة فيكون ظنى الورود ، وقد يلابس دلالته احتمال فيكون ظنى الدلالة ، وقد يجتمع فيه الأمران : الشبهة فى اتصاله ، والاحتمال فى دلالته ، فيكون ظنياً فى وروده ودلالته . ومتى لحقت (الظنية) الحديث على أى نحو من هذه الثلاثة فلا يمكن أن تثبت به عقيدة يكفر منكرها ، وإنما يثبت الحديث والعقيدة وينهض حجة عليها إذا كان قطعياً فى وروده وفى دلالته .

التواتر والآحاد :

ولكى يتضح مناط (القطعية والظنية) فى ورود الحديث ينبغى أن نبين ما قرره العلماء فى (التواتر والآحاد) ليكون مناراً يهتدى به من يريد الوصول إلى الحق .

قسم العلماء (السنة) إلى قسمين : ما ورد بطريق التواتر ، وما ورد بطريق الآحاد . وضابط التواتر أن يبلغ الرواة حداً من الكثرة تحيل العادة معه تواطؤهم على الكذب . فلا بد أن يكون ذلك متحققاً فى جميع طبقاته : أوله ومنتهاه ووسطه ، بأن يروى جمع عن النبى ﷺ ثم يروى عنهم جمع مثلهم ، وهكذا حتى يصل إلينا ، وهو عند التحقيق رواية الكافة عن الكافة .

ويقول بعض علماء الأصول : (الخبر المتواتر هو الذى اتصل بك من رسول الله ﷺ اتصالا بلا شبهة حتى صار كالمعاين المسموع منه ، وذلك أن يرويه قوم لا يحصى عددهم ، ولا يتوهم تواطؤهم على الكذب لكثرتهم وعدالتهم ومتابعة أماكنهم ، ويدوم هذا فى وسطه وآخره كأوله ، وذلك مثل : القرآن والصلوات الخمس ، وأعداد الركعات ، ومقادير الزكوات .

الآحاد لا تفيد اليقين :

هذا هو التواتر الذى يوجب اليقين بثبوت الخبر عن رسول الله ﷺ أما إذا روى الخبر واحد ، أو عدد يسير ولو فى بعض طبقاته ، فإنه لا يكون متواتراً مقطوعاً بنسبته إلى رسول الله ﷺ ، وإنما يكون (آحادياً) فى اتصاله بالرسول شبهة ، فلا يفيد اليقين :

إلى هذا ذهب أهل العلم ومنهم الأئمة الأربعة : مالك وأبو حنيفة والشافعى وأحمد فى إحدى الروايتين عنه ، وقد جاء فى الرواية الأخرى خلاف ذلك ، وفيها يقول شارح مسلم الثبوت (وهذا بعيد عن مثله فإنه مكابرة ظاهرة) .

وقال البزدوى : (وأما دعوى علم اليقين - يريد فى أحاديث الآحاد - فباطلة بلا شبهة لأن العيان يرده وهذا لأن خبر الواحد محتمل لا محالة »

ولا يقين مع الاحتمال ، ومن أنكر هذا فقد سفه نفسه وأضل عقله) ،

وقال الغزالى : (خبر الواحد لا يفيد العلم وهو ـ أى عدم إفادته العلم ـ معلوم بالضرورة . وما نقل عن المحدثين من أنه يوجب العلم فلعلهم أرادوا أنه يفيد العلم بوجوب العمل إذ يسمى الظن علماً ، ولذا قال بعضهم : خبر الآحاد يورث العلم الظاهر ، والعلم ليس له ظاهر وباطن وإنما هو الظن) .

وقال الأسنوى : (وأما السنة فالآحاد منها لا يفيد إلا الظن) .

وقال البزدوى تفريعاً على أن خبر الواحد لا يفيد العلم : (خبر الواحد لما لم يفد اليقين لا يكون حجة فيما يرجع إلى الاعتقاد لأنه مبنى على اليقين ، وإنما كان حجة فيما قصد فيه العمل) .

وقال الأسنوى : (إن رواية الآحاد إن أفادت فإنما تفيد الظن ، والشارع إنما أجاز الظن فى المسائل العملية وهى الفروع دون العلمية كقواعد أصول الدين) .

وهكذا نجد نصوص العلماء من متكلمين وأصوليين مجتمعة على أن خبر الآحاد لايفيد اليقين ، ولا تثبت به العقيدة ، ونجد المحققين من العلماء يصفون ذلك بأنه ضرورى لا يصح أن ينازع أحد فى شىء منه ، ويحملون قول من قال : (إن خبر الواحد يفيد العلم) على أن مراده العلم بمعنى الظن كما ورد ، أو العلم بوجوب العمل على أن الكلام إنما هو فى إفادته العلم على وجه تثبت به العقيدة ، وليس معنى هذا أنه لا يحدث علما لإنسان ما ، فإن من الناس من يحدث العلم . فى نفسه بما هو أقل من خبر الواحد الذى نتحدث عنـــه ، ولكن لا يكون ذلك حجة على أحد ولا تثبت به عقيدة يكفر جاحدها ، فإن الله تعالى لم يكلف عباده عقيدة من العقائد عن طريق من شأنه ألا يفيد إلا الظن.

ومن هنا يتأكد أن ما قررناه من أحاديث الآحاد لا يعتبر عقيدة ولا يصح الاعتماد عليها فى شأن المغيبات قول مجمع عليه ، وثابت بحكم الضرورة العقلية التى لا مجال للخلاف فيها عند العقلاء .

ندرة المتواتر :

وإذ قد عرفنا الفرق بين مناط القطعية فى الورود وهو التواتر ، ومناط الظن وهو الآحادية ، فهناك بحث آخر يتصل بالتواتر ولا بد من النظر فيه ، هذا البحث هو : هل يوجد المتواتر فى الأحاديث المروية فى الكتب المدونة ؟ وقد اختلف العلماء فى الجواب عن ذلك : فذهب قوم إلى أنه لا يوجد حديث متواتر فيما روى لنا من الأحاديث ودون فى الكتب ، ولعل هؤلاء بنوا رأيهم هذا على اشتراط عدم الإحصاء فى رواة المتواتر ، وهو مذهب لطائفة من العلماء كما تبين مما نقلناه فى تعريف المتواتر .

قال ابن الصلاح : (لا يكاد يوجد المتواتر فى رواياتهم ، ومن وسئل عن إبراز مثال له فيما يروى عن أهل الحديث أعياه تطلبه ، وحديث (إنما الأعمال بالنيات) ليس من ذلك السبيل وإن نقله عدد التواتر وزيادة ، لأن ذلك طرأ فى وسط إسناده . ولم يوجد فى أوله . نعم حديث (من كذب علىّ) نراه مثالا لذلك ، فإن رواته أزيد من مائة صحابى وفيهم العشرة المبشرون بالجنة ، ولا يعرف حديث يروى عن أكثر من ستين صحابياً إلا هذا الحديث الواحد)

وذهب آخرون : إلى أن المتواتر كثير فى هذه الكتب . قالوا : (إن هذه الكتب المشهورة المتداولة بأيدى أهل العلم شرقاً وغرباً مقطوع بصحة نسبتها إلى واضعيها ، فإذا اجتمعت على إخراج حديث ، وتعددت طرقه تعدداً تحيل العادة معه تواطؤهم على الكذب إلى آخر الشروط . أفاد ذلك العلم اليقينى بصحة نسبته إلى قائله ، ومثل ذلك فى الكتب كثير) .

وليس بنا حاجة إلى أن نعرف مدى هذه الكثرة التي يراها هؤلاء، ويذكرونها في مقابلة القول بالعدم، أو في مقابلة القول بالندرة وإعياء تطلب المثال ، وإنما يهمنا أن نلفت النظر إلى أنه لا يحكم لحديث بالتواتر - حتى على أكثر هذه المذاهب توسعاً - إلا إذا اجتمعت فيه الشروط الآتية :

١ - أن تخرجه جميع كتب الحديث المشهورة المتداولة .

٢ - أن تتعدد طرق إخراجه تعدداً تحيل العادة معه التواطؤ على الكذب .

٣ - أن يثبت هذا التعدد في جميع طبقاته : أوله وآخره ووسطه .

وإذن : فالحديث الذي لم تخرجه جميع الكتب المتداولة المشهورة ، أو أخرجته جميعها ولكن لا بطرق متعددة أو أخرجته بطرق متعددة ولكن لا في جميع الطبقات ، بل في بعضها دون البعض لا يكون متواتراً باتفاق العلماء أجمعين .

الإسراف في وصف الأحاديث بالتواتر وأسبابه :

ويجدر بنا بعد هذا أن نعرض لظاهرة غريبة شاعت في الناس ، وإن الحق ليتقاضى فيها واجبه من العلماء المسئولين أمام الله وأمام الرسول : تلك الظاهرة هي على الرغم مما قرره العلماء في شأن التواتر تحديداً ووجوداً ، وعلى الرغم من هذا التحفظ الشديد في الحكم لحديث مما دون في الكتب بالتواتر نرى بعض المؤلفين قديماً وحديثاً يسرفون في وصف الأحاديث بالتواتر ، وقد يقتصدون فيخلعون عليها أوصافاً أخرى كالشهرة والاستفاضة والذيوع على ألسنة العلماء ، وتلقي الأمة إياها بالقبول والثبوت في كتب التفسير وشرح الحديث ، أو في كتب التاريخ والمناقب ... إلخ . وقد ينشط أناس في سلوك هذه السبيل ، فنراهم يتتبعون مع هذا أسماء الصحابة والتابعين والأئمة والمؤلفين الذين جرى ذكرهم على ألسنة النقلة في رواية الحديث، وهم يعلمون أنها روايات

ضعيفة لا تصبر على النقد ، وأن هذه الأسماء التي يحرصون على جمعها توجد في كل حديث حتى في الأحاديث الموضوعة، ولكنهم مع ذلك يجمعونها ، ويجتهدون في عدها وإحصائها وذكر الكتب التي اشتملت عليها. لأنهم يريدون أن يخطفوا أبصار العامة ، ويستغلوا عاطفتهم الدينية ، ويزعموا أن هذا الحديث أو تلك الأحاديث قد وردت عن نبيكم في هذه الكتب الكثيرة. وعلى لسان هذا الجم الغفير من الرواة بين صحابة وتابعين فهي متواترة لا شك في تواترها ، وهي متصلة بالرسول لا شك في اتصالها . ومن حاول الطعن فيها ، أو الحط من درجتها ، فقد ضل ضلالا بعيداً ، وحاد عن سبيل المؤمنين .

ولهذه الظاهرة أسباب :

منها : وقد يكون أقلها خطراً ، اشتهار الحديث في طبقة أو طبقتين فتنسحب الشهرة على جميع طبقاته ، ويحكم عليه حكماً عاماً بالتواتر أو الشهرة من غير تحقيق ولا تمحيص ، وقد لا يصل الحديث إلى حد الشهرة في طبقة ما ، ولكن جاء في (الخلافيات) فقهية أو كلامية فتعصب له أتباع المذاهب وخلعوا عليه وصف الشهرة أو التواتر تأييداً لمذاهبهم ، وتناقلته الكتب ، موصوفاً بذلك منسوباً إلى جميع من رجال الرأي والمذاهب فيخاله الناس مشهوراً أو متواتراً وهو ليس بمتواتر ولا مشهور .

ولقد كان للقائمين (بالترغيب والترهيب) ونقل الملاحم والفتن وغرائب الأخبار التي تميل النفوس إلى التحدث بها والاستماع إليها ، أثر عظيم في شياع أوصاف الشهرة والتواتر على أنواع خاصة من الأحاديث التي ليست بمشهورة ولا متواترة بل ربما كانت غير صحيحة. وقد تأثرت بذلك طبقة من الخاصة لم تعن بتحقيق الرواية ، لا بمعرفة درجة الحديث واكتفت بنقل ما يقوله هؤلاء وإجرائه على ألسنتهم وفي كتبهم حتى شاع واشتهر .

وإنما استباحوا ذلك معتمدين على ماقرره بعض علماء المصطلح من (جواز التساهل فى الأسانيد ورواية ماسوى الموضوع من أنواع الأحاديث الضعيفة من غير اهتمام ببيان ضعفها فيما سوى صفات الله تعالى وأحكام الشريعة من الحلال والحرام وغيرهما، وذلك كالمواعظ والقصص وفضائل الأعمال ومسائل فنون الترغيب والترهيب مما لا تعلق له بالأحكام والعقائد)

وبذلك ردوا الأحاديث الضعيفة بل الموضوعة، ثم توسعوا فوصفوا الآحاد بالتواتر، والضعيف بالصحيح، وتناسوا مقاييس التواتر والآحادية، ومقاييس الصحة والضعف. ومن هنا رأينا من يصف (المعجزات الحسية) كانشقاق القمر وتسبيح الحصى وكلام الغزالة وحنين الجذع بالتواتر. مع أنها غير متواترة، وإنما هى آحادية كما قرره علماء الأصول. وكذلك رأينا من يصف أخبار المهدى والدجال ويأجوج ومأجوج وما إلى ذلك مما يذكر باسم (أشراط الساعة) بالشهرة أو التواتر.

بقى بعد هذا أمر لا بد من تقريره: هو أن تلك الأحاديث كيفما كانت ليست من قبيل المحكم الذى لا يحتمل التأويل حتى تكون قطعية الدلالة، فقد تناولتها أفهام العلماء قديماً وحديثاً ولم يجدوا مانعاً من تأويلها. وقد جاء فى شرح المقاصد - بعد أن قرر مؤلفها أن جميع أحاديث أشراط الساعة آحادية - مانصه:

(ولا تمتنع على ظواهرها عند أهل الشريعة .. وأول بعض العلماء النار الخارجة من الحجاز بالعلم والهداية سيما الفقه الحجازى. والنار الحاشرة للناس بفتنة الأتراك. وفتنة الدجال بظهور الشر والفساد، ونزول عيسى ﷺ باندفاع ذلك وبدء الخير والصلاح ... إلخ).

ومن ذلك نرى أن السعد لايقرر وجوب حملها على ظواهرها حتى تكون من قطعى الدلالة الذى يمتنع تأويله ، وإنما يقرر بصريح العبارة (أنه لامانع من حملها على ظواهرها) فيعطى بذلك حق التأويل عن القدح فى قلبه لسبب التأويل . ثم يحدث عن بعض العلماء أنهم سلكوا سبيل التأويل فى هذه الأحاديث فعلا ، ويبين المعنى الذى حملوها عليه . ولا شك أن هذا لم يكن منه إلا لأنه يعتقد - كما يعتقد سائر العلماء الذين يعرفون الفرق بين مايقبل التأويل ومالا يقبله - أن ماتدل عليه ألفاظ تلك الأحاديث ليس عقيدة يجب الإيمان بها، فمن أداه نظره إلى أن يؤمن بظاهرها فله ذلك ، ومن أداه نظره إلى تأويلها فله ذلك . شأن كل ظنى فى دلالته .

[انتهى كلام الإمام الأكبر — رحمه الله — :]

* * *

وقول الإمام الأكبر رحمه الله : « إن ماقررناه من أن أحاديث الآحاد لاتفيد عقيدة ، ولايصح الاعتماد عليها فى شأن المغيبات ، قول مجمع عليه ، وثابت بحكم الضرورة العقلية التى لا مجال للخلاف فيها عند العقلاء » .

هذا القول سديد ، ويترتب عليه فى نظر العقلاء أن لاتكون أحاديث الآحاد حجة فى التشريع ، ولا فى الترغيب فى الأعمال الصالحة . لأنه إذاكانت العقائد - والإنسان مكلف بها كما هو مكلف بفرائض الشرائع - لا تثبت بغير القرآن ، فالتشريع يثبت بالقرآن لأنه المرحلة الثانية فى حياة المسلم بعد المرحلة الأولى وهى إيمانه بالله عز وجل . ولأنه سيحاسب على عمله حساباً دقيقاً ، وسيجادل عن نفسه وقت الحساب . ومن كان هذا شأنه بين الرغبة فى الجنة والرهبة من النار ، يجب عليه أن يعمل بالشريعة على نفس ميزان الأدلة التى اقتنع بها فى أمور العقائد .

أما بالنسبة للمتواتر من الأحاديث . فقول الإمام الأكبر رحمه الله : « هل يوجد المتواتر فى الأحاديث المروية فى الكتب المدونة ؟ وقد اختلف العلماء فى الجواب عن ذلك ، فذهب قوم إلى أنه لا يوجد حديث متواتر ، فيما روى لنا من الأحاديث ودون فى الكتب ... إلخ » قول الإمام الأكبر هذا ، يترتب عليه فى نظر العقلاء أن لا تكون أحاديث المتواتر حجة فى التشريع إلا إذا كانت مفسرة للقرآن كأحاديث الصلوات مثلا . لأن الدليل إذا صار محل نزاع فى أيدى المتخصصين من حملة الشريعة ، لا يكون دليلا قاطعاً موجباً للعمل على المتخصص وعلى غير المتخصص . فلماذا يجتهد فقهاؤنا اليوم على جعل الحديث المتواتر غير المفسر من مصادر التشريع الإسلامى ؟

ولم يحدث هذا من قدامى الفقهاء . فإن قدامى الفقهاء اعتمدوا القرآن الكريم ومايفسره من أقوال الرسول ﷺ ومن أقوال العرب . وكفروا من خالف القرآن وفسقوا من تهاون فيه ، وأهانوا من تكاسل عنه . لكنهم لم يكفروا ولم يفسقوا ولم يهينوا من عمل بالقرآن الكريم ، وترك العمل بحديث متواتر لم يعمل به لأنه ينكر تواتره . والأمثلة على ذلك كثيرة . فإن كل حكم تشريعى ليس له ذكر فى القرآن ، ولم يثبت بالسنة ، قد اختلفوا فيه .

وعلى سبيل المثال للبيان : قال الله تعالى فى القرآن الكريم : « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحاً ، أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد ، فإن ربك غفور رحيم » (الأنعام ١٤٥)

قال العلماء : إن التحريم للذى يؤكل - لا للذى يشرب - منحصر فى :

١ - الميتة ٢ - والدم السائل ٣ - ولحم الخنزير ٤ - والمذبوح للأوثان ، وحرموا المذبوح للأوثان من التعليل وهو : « فإنه رجس أو فسقاً أهل

لغير الله به ، ثم ظهر لهم من غير هذا القول ١ ـ زيادة فى المحرمات التى لا تؤكل كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ٢ ـ تحريم الخمر ٣ ـ تحريم الرسول ﷺ أكل كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير .

ولما ظهر ذلك . قال بعضهم : إن المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة . هم يدخلون تحت كلمة « الميتة » بدليل قوله تعالى فى سورة المائدة : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم » (المائدة ٣) إن قوله : « وما أكل السبع إلا ما ذكيتم » أى إلا ما لحقتموه حيا فذبحتموه ، يدل على أن المنخنقة هى التى ماتت بالخنق من قبل أن تدرك حية فتذبح ، وإذا ماتت بالخنق دخلت تحت حكم الميتة وعلى أن الموقوذة هى البهيمة التى تضرب حتى تموت ولم تذك ، فتصير بالموت من الضرب : ميتة . والمتردية هى التى تقع من جبل أو تطيح فى بئر أو تسقط من موضع مشرف فتموت ، فتصير بالموت : ميتة .

وأما تحريم الخمر . فإنه ثابت من آيات غير الآية هذه . لأن الآية هذه تتحدث عن المطعومات ، لا المشروبات .

وأما تحريم الرسول ﷺ أكل كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير . فبعض العلماء أباح الزيادة على الآية فى المحرمات التى لا تؤكل . وبعض العلماء لم يبح ، اقتصاراً على المذكور فى الآية فقد روى عن مالك : « لا حرام بين إلا ما ذكر فى هذه الآية » وقال ابن خويز منداد : « تضمنت هذه الآية تحليل كل شىء من الحيوان وغيره إلا ما استثنى فى الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير ولهذا قلنا : إن لحوم السباع وسائر الحيوان ما سوى الإنسان والخنزير مباح » وقال الكيا الطبرى : « وعليها بنى الشافعى تحليل كل مسكوت عنه ، أخذا من هذه الآية ، إلا ما دل عليه الدليل » وقال ابن العربى : « هى

محكمة ، فلا محرم إلا ما فيها » وروى البخارى من رواية عمرو بن دينار قال : « قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو الغفارى عندنا بالبصرة . ولكن أبي ذلك البحر بن عباس ، وقرأ « قل : لا أجد فيما أوحى إلىّ محرماً »

وروى عن ابن عمر أنه سئل عن لحوم السباع فقال : لا بأس بها . فقيل له: حديث أبي ثعلبة الخشنى - أنه روى أن رسول الله ﷺ قال: « أكل كل ذى ناب من السباع حرام » ـ فقال : « ندع كتاب الله ربنا ، لحديث أعرابي يبول على ساقيه » ؟

وسئل الشعبى عن لحم الفيل والأسد ، فتلا هذه الآية . وقال القاسم : كانت عائشة تقول لما سمعت الناس يقولون : حُرِّم كل ذى ناب من السباع : ذلك حلال ، وتتلو هذه الآية : « قل : لا أجد فيما أوحى إلىّ محرّماً »

هذا كلام ذكره القرطبى رحمه الله فى تفسيره المسمى الجامع لأحكام القرآن . فهل الذين أنكروا ما ثبت فى حديث أبى ثعلبة الخشنى ، كفرهم الذين أثبتوا صحة حديث أبى ثعلبة الخشنى أو فسقوهم أو أهانوهم ؟ إنهم لم يكفروهم ولم يفسقوهم ولم يهينوهم .

وعلى هذا النحو لو تتبع إنسان أحكام الشريعة الإسلامية ، ونظر أقوال العلماء فى كل حكم منها . سيعلم علم اليقين : أن الحكم الثابت بالقرآن عليه إجماع ، والحكم الثابت بالسنة وحدها ما عليه من إجماع البتة .

• • •

والعلماء تجاه السنة النبوية فريقان . فريق يعدها مصدراً للتشريع بعد القرآن ومن علماء هذا الفريق من يغلو فيقول : إن فى القرآن آيات فى أحكام التشريع يجب أن يقرأها الناس ولا يعملون بها. لأن النبى ﷺ نطق بكلام ناسخ للعمل بها ، ومن ذلك آية « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً .. إلخ »

فقد روى القرطبى فى تفسيرها ما نصه : « وقد قيل : إنها منسوخة بقوله عليه السلام : « أكل كل ذى ناب من السباع حرام » أخرجه مالك .

ومن حججهم قول الله تعالى «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول» (المائدة ٩٢).

• • •

وفريق لا يعد السنة مصدراً للتشريع بعد القرآن .

ومن حججهم في الرد على الفريق الأول ما يلي : —

الحجة الأولى : إن القرآن قطعي الثبوت ، ولا يجوز لأحد أن ينكر حرفاً منه ، وفيه تبيان كل شيء ، فكيف جاز لكم أن تخصصوا عامه وتقيدوا مطلقه وتفصلوا مجمله بحديث يرويه رجل عن آخر ، أو حديثين أو ثلاثة ؛ مع أنكم لا تبرئون أحداً لقيتموه وقدمتموه في الصدق والحفظ من أن يغلط وينسى ويخطيء في حديثه ؟ فهل يستساغ بعد ذلك أن يقوم خبرهم مقام كتاب الله ؟

الحجة الثانية : إنكم لا تستطيعون أن تلزموا شخصاً بقبول مثل هذه الأخبار لأن الوهم محتمل فيها، ولا حجة لكم عليه، فمن حق المرء ألا يقبل إلا ما استيقن منه ، واعتقد أنه يقين لا ظن فيه ، كالقرآن .

الحجة الثالثة : قول الله تعالى: «ما فرطنا في الكتاب من شيء» (الأنعام ٣٨) وقوله : «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء» (النحل ٨٩)

فهذا يدل على أن الكتاب حوى كل شيء من أمور الدين وبينه وفصله ، بحيث لا يحتاج إلى شيء آخر كالسنة ، إلا إذا كان مفرطاً فيه ولم يكن تبياناً ، ويلزم على ذلك: الخلف في وعد الله تعالى وخبره ، وهذا محال .

الحجة الرابعة : قول الله تعالى : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (الحجر ٩) فهذا يدل على أن الله تكفل بحفظ القرآن دون السنة ، ولو كانت حجة وأصلا للتشريع لتكفل بحفظها كالقرآن .

الحجة الخامسة . لو كانت السنة حجة لأمر النبي ﷺ بتدوينها ولعمل الصحابة على جمعها حرصاً على صيانتها ، حتى تصل إلى المسلمين مقطوعاً بصحتها

لأن ظنى الثبوت لا يصح الاحتجاج به ، فقد ذم الله المشركين لاتباعهم الظن ، كما جاء فى سورة الأنعام : « إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون » وفى سورة النجم : « وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » .

ولكنه نهى عن كتابتها ، وأمر بمحو ما كتب منها ، وكذلك فعل الصحابة والتابعون . فقد روى مسلم فى صحيحه من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى ولا حرج . ومن كذب علىّ — قال همام : أحسبه قال : متعمداً — فليتبوأ مقعده من النار)

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كنا قعوداً نكتب ما نسمع من النبى ﷺ فخرج علينا ، فقال : « ماذا تكتبون ؟ » فقلنا : ما نسمع منك . فقال : « أكتاب مع كتاب الله ؟ امحضوا كتاب الله وخلصوه » قال : فجمعنا ما كتبناه فى صعيد واحد ، ثم أحرقناه بالنار ، قلنا : أى رسول الله ، أنتحدث عنك ؟ قال : نعم ، حدثوا عنى ولا حرج . ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »

فهـذا نهى صريح من الرسول ﷺ عن كتابة السنة ، ولو كانت حجة لأمر بكتابتها .

الحجة السادسة : لقد ورد عن النبى ﷺ ما يدل على عدم حجية السنة ، ومن ذلك قوله : « إن الحديث سيفشو عنى ، فما آتاكم يوافق القرآن فهو عنى وما آتاكم عنى يخالف القرآن فليس منى » .

فإذا كان المروى من السنة يثبت حكما شرعياً جديداً فليس عن الرسول ، لأنه مخالف للقرآن ، وإذا كان المروى يثبت حكما موجوداً فى القرآن كانت

السنة مؤكدة ، والحجة هو القرآن فقط . وقوله ﷺ : « إنى لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه ، ولا أحرم إلا ما حرم الله فى كتابه » فهو عليه السلام لا يأتى بجديد ، بل يؤكد ما فى القرآن ، والحجة هو القرآن .

الحجة السابعة : إن الرسول ﷺ أمر بكتابة القرآن الكريم ، ولم يأمر بكتابة السنة، ليس لأنها قد تختلط بالقرآن بل لأن القرآن وحده هو كتاب العقائد والتشريعات ، وأبو بكر رضى الله عنه لما انتهى من جمع القرآن لم يأمر بجمع السنة ، والخوف من الاختلاط قد زال فى عهده ، بكثرة القراء من جهة وبجمعه من جهة أخرى ، ولم يكتبها عمر رضى الله عنه ، ولم يكتبها عثمان رضى الله عنه الذى كتب القرآن بلهجة قريش، وأرسل إلى كل مصر من الأمصار نسخة من المصحف ، ولم يرسل مع كل نسخة من المصحف أحاديث نبوية ، ولم يفعل ذلك على رضى الله عنه . وأما معاوية فإنه اتهم بعض رواة الأحاديث بالكذب ، كما حكى عنه البخارى فى شأن كعب الأحبار ، فلو كانت الأحاديث حجة فى التشريع لاهتم بها الرسول والصحابة من بعده . وهل كان المسلمون من أيام الرسول ﷺ إلى عهد عمر بن عبد العزيز الذى اهتم فيه بعض العلماء بالبحث عن السنة ، كانوا ناقصى الإيمان لعدم علمهم بالسنة ولعدم عملهم بها ؟

• • •

أما أنا فأقف موضحاً موقفاً وسطاً بين الفريقين . لا أقول بإثبات حجية السنة على الإطلاق ، ولا أقول بنفى حجية السنة على الإطلاق . بل أقول: بقبول السنة الشريفة المفسرة والموضحة والمبينة للقرآن الكريم ، بشرط أن تكون ثابتة بالتواتر العملى من أيام الرسول ﷺ إلى أن دونت فى الكتب كأحاديث الصلوات ، ولا يختلف فى العمل بها إثنان من خيار المسلمين .

ومثال ذلك قول الله تعالى : « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل » (هود ١١٤)

فهذا القول يحتاج إلى تفسير وإيضاح ، لأن مسلما لو أراد أن يقيم الصلاة ، ومسلما آخر أراد ان يقيمها لا تفقا معاً على الإقامة ، واختلفا على كيفية الأداء وربما ينتقص واحد طريقة أداء الآخر ، فيغمزه فى دينه . فمنعاً للاختلاف ، ومنعاً للظن ، قام رسول الله ﷺ بتفسير الآية وتوضيحها ، فبين عدد الصلوات وبين الأوقات التى تؤدى فيها ، وصلى هو بالمسلمين ، ولما انطلق المسلمون إلى فتح البلاد لنشر الدين ، صلوا أمام أهل البلاد ، وأهل البلاد الذين أسلموا صلوا مثل مايصلى الفاتحون . ثم بنوا المساجد ، وعرت بالمصلين جيلا إثر جيل إلى يومنا هذا . فمثل هذا النوع من الأحاديث المفسرة المنقولة بالتواتر العملى ، يصير من التشريع ولا يجرؤ أحد على التشكيك فيه . وهذا هو النوع الذى يجب أن يلتزم به القضاة فى المحاكم لثواب المحسن وعقوبة العاصى ، ويهملوا ماعداه من الأحاديث ، خاصة التى تضيف أحكاماً على أحكام القرآن الكريم .

. . .

والمسلمون اليوم طائفتان كبيرتان : الشيعة وأهل السنة وهما متفقان على القرآن الكريم ، بلا زيادة ولا نقصان . ويختلفان بسبب الأحاديث النبوية . وقد ذكرت من قبل أحاديث من كتب أهل السنة فيها خلاف . وأذكر هنا مثلا من كتاب « الأصول من الكافى » لثقة الإسلام — عندهم — أبى جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكلينى الرازى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ . جاء فى باب « الإشارة والنص على أمير المؤمنين عليه السلام » مانصه :

« محمد بن يحيى ، عن محمد بن الحسين ، عن محمد بن إسماعيل ، عن منصور بن يونس ، عن زيد بن الجهم الهلالى ، عن أبى عبد الله — عليه السلام — قال : سمعته يقول : لما نزلت ولاية على بن أبى طالب — عليه السلام — وكان من قول رسول الله ﷺ وآله : « سلموا على على بإمرة المؤمنين » فكان مما أكد الله عليهما فى ذلك اليوم يازيد قول رسول الله ﷺ وآله لهما : قوماً فسلما عليه بإمرة المؤمنين . فقالا : أمن الله أو من رسوله يا رسول الله ؟ فقال لهما

رسول الله ﷺ وآله: «من الله ومن رسوله» فأنزل الله عز وجل: «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا. إن الله يعلم ما تفعلون» (يعنى به قول رسول الله ﷺ وآله لهما، وقولهما: أمن الله، أومن رسوله؟) «ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها، من بعد قوة أنكاثاً. تتخذون أيمانكم دخلا بينكم. أن تكون» أئمة هى أزكى من أئمتكم. قال قد جعلت فداك: أئمة؟ قال: أى ـ والله ـ أئمة. قلت: فإنا نقرأ: «أربى» فقال: ما أربى؟ ـ وأومأ بيده فطرحها ـ «إنما يبلوكم الله به» (يعنى بعلى عليه السلام) «وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون. ولوشاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون. ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم، فتزل قدم بعد ثبوتها» (يعنى بعد مقالة رسول الله ﷺ وآله فى علىّ عليه السلام) «وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله» (يعنى به عليا عليه السلام) «ولكم عذاب عظيم[1]».

إن المعلق على هذا الحديث سيحكم على الشيعة بالخروج على الدين لتحريف مقصود مؤكد بالقسم فى آية من آيات القرآن وهو وضع «أئمة هى أزكى من أئمتكم» مكان: «أمة، هى أربى من أمة»، وسيحكم عليهم بالتفسير وفسق معتقداتهم. لكن بالرجوع إلى علماء الشيعة للاستفسار عن مثل هذه التحريفات

---

(١) نص الآيات: «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا. إن الله يعلم ما تفعلون. ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً. تتخذون أيمانكم دخلا بينكم، أن تكون أمة هى أربى من أمة. إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة. ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون. ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله، ولكم عذاب عظيم» (النحل ٩١ — ٩٤).

وجدناهم قد قالوا : إننا لا ننادى بما نادى به الأوائل فى عصور الظلمات من تقديس النصوص المسلمة بلا مناقشة فى الكتب القديمة بل ننادى بالقرآن وحده المماثل للقرآن الذى فى يد السنيين ، ونرفض المدسوسات فى الكتب القديمة غيره[1] . ولذلك نجدهم الآن علنا يقيمون صلاة الجماعة ، وصلاة الجمعة ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات .

ولذلك لا ينبغى لسنى أن يكفر شيعياً المدسوسات التى عنده ولا ينبغى لشيعى أن يكفر سنياً للمدسوسات التى عنده بل ينبغى أن ينظر السنى للشيعى نظرة الأخ المؤمن الجيد الإيمان لأخيه المؤمن ، وأن ينظر الشيعى للسنى نظرة الأخ المؤمن الجيد الإيمان لأخيه المؤمن ، وأن يعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه من الفهم .

لأن الجميع يعبدون الإله الواحد ، ولأن الجميع يعترفون بمحمد رسول الله خاتم النبيين . ولأن الجميع يعترفون بيوم القيامة . ولم لا يعذر بعضهم بعضاً وقد قال تعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة » (الأنبياء ٩٢) ؟ فقد صرح بأن بلاد المسلمين فى حكم « البلد الواحد » وأن المسلمين الملتزمين بالقرآن « أمة واحدة » لا أمم . والخلاف بين الناس مع الأمة الواحدة لابد منه ، لأنه فى القرآن الكريم يقول تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » (هود ١١٨ — ١١٩) أنظر كيف أن الاختلاف باق إلى الأبد . وكيف من يرحمهم الله لا يختلفون .

ولو جاز تكفير الشيعى أو تكفير السنى للمخالفة فى الرأى . لجاز تكفير السنى السلفى للسنى من أهل الخلف أو بالعكس . ولجاز تكفير السلفى أو

---

(١) أنظر كتاب الرد على الدكتور السالوس — يوزع مجانا فى مدينة الكويت .

الخلق للصوفى أو بالعكس ، وهذا لا يقول به عاقل . وإن جاز تكفير السلفى للصوفى لتوسله بالأنبياء وبالأولياء ، فإن توسل الصوفى والتوسل لا يجوز عندنا - أقل خطراً فى العقيدة من خطر السلفى الذى يجسم الله تجسيما ، ثم يقول بلا تمثيل ولا تشبيه .

إن عندنا نحن السنيين أخطاء . يعرفها الراسخون فى العلم منا ويعرفها الشيعة . وعند الشيعة أخطاء . يعرفونها ونحن نعرفها . ويجب على الجميع فى هذا العصر المضاء بمصابيح الحرية ، أن يصححوا أخطاءهم ، وأن يواجهوا العامة بشجاعة وأن يبذلوا أقصى الجهد فى الوحدة والتعاون والتآلف والتوادد والتراحم « وليعفوا وليصفحوا » كما جاء فى القرآن الكريم .

* * *

لننتقل بعد ذلك إلى نبذة عن نشأة الدين ، وموقفنا من أهل الكتاب . فنقول : -

معنى الدين : خضوع الإنسان لقوة عليا ، يخشاها ويرهبها ، ويعمل بإرادتها .

أما نشأة الأديان : فإن « آدم » أبا البشر ، لما نزل إلى الأرض ، وعده الله بتكثير نسله ، ووعده بإرسال أنبياء ورسل إليهم ، فمن يطع يدخل الجنة ، ومن يعص يدخل النار . قال تعالى : « قلنا : اهبطوا منها جميعاً . فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (البقرة ٣٨ - ٣٩) .

ووفى الله بوعده ، فتكاثر نسل آدم ، ولما زاغوا وفسدوا أرسل إليهم نوحاً - عليه السلام - ومن آمن به نجا ، ومن كفر به هلك . ثم بعد مدة من الزمان أرسل هوداً إلى قوم عاد ، ثم صالحاً إلى قوم ثمود ، ثم إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وموسى وهرون وعيسى بن مريم . ثم آخر الأنبياء محمد صلى الله عليهم أجمعين وأنبياء غير هؤلاء ورسل .

هذا أصل الدين وتطوره

وقد أفسد الشيطان على الناس حياتهم ، فجعلهم يختلفون فى تفسير نصوص الدين ، ، وفى الدين نفسه بالشك فيه ، إذ يلقى فى نفوس ضعفاء الإيمان : أن الدين ليس من الله ، بل الأنبياء يريدون الملك والرياسة على الناس . ومن هنا اختلف أصحاب الدين . وأنكر بعض الناس الأديان ، بسبب وسوسة الشياطين .

اختلاف الأديان فى الشرائع ، لا فى العقائد

وتختلف الأديان بسبب تعدد الشرائع من قبل الله تعالى . فإن الشريعة التى تناسب زمن آدم وبنيه الأوائل ، لا تناسب زمن موسى وبنى إسرائيل . وشريعة موسى لا تناسب زمن محمد خاتم النبيين وفى ذلك يقول تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » (المائدة ٤٨) .

والأنبياء جميعاً يتفقون على أن الله واحد ، وليس كمثله شىء . وعلى أن يوم القيامة حق لا ريب فيه . وعلى أن العمل الصالح ضرورى جداً فى الحياة الدنيا ، من أجل الثواب والعقاب . قال تعالى : « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » (فصلت ٤٣) .

ومن الأنبياء والرسل من كان يرسله الله لقوم مخصوصين مثل يونس، ومنهم من كانت رسالته عامة مثل إبراهيم ومحمد عليهما السلام .

اليهود والنصارى :

لكننا اليوم نرى اليهود والنصارى لا يعترفون بالإسلام . فهل هم متفقون مع المسلمين فى دعوة التوحيد ، وفى الاعتراف بيوم القيامة ، وفى أن العمل الصالح لا بد منه ؟ نعم كتبهم المقدسة تعترف بذلك لكن الكتب شىء ، وفهمهم للكتب شىء آخر .

فى التوراة : « إسمع يا إسرائيل . الرب إلهنا رب واحد » (تثنية ٦ : ٤)

وفيها يقول الله تعالى – كما كتبوا – : « أليس ذلك مكنوزاً عندى ، مختوماً عليه فى خزائنى ؟ لى النقمة والجزاء فى وقت تزل أقدامهم » (تثنية ٣٢: ٣٤-٣٥) أى وقت قيام القيامة .

وفيها عن مسئولية كل إنسان عن عمله : « لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل » (تثنية ٢٤ : ١٦) .

وفى الإنجيل عن الوحدانية : « فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسنا ، سأله : أية وصية هى أول الكل ؟ فأجابه يسوع : إن أول كل الوصايا، هى: إسمع يا إسرائيل . الرب إلهنا رب واحد ، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك . هذه هى الوصية الأولى . وثانية مثلها هى: تحب قريبك كنفسك ليس وصية أخرى أعظم من هاتين . فقال له الكاتب : جيداً يا معلم . بالحق قلت . لأنه الله واحد وليس آخر سواه » (مرقس ١٢ : ٢٨ - ٣٢) .

وفى الإنجيل عن يوم القيامة، ومسئولية كل إنسان عن عمله. يقول عيسى عليه السلام : « فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم. وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك. لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم » (متى ٥ : ٢٩ - ٣٠).

واليهود جميعاً إلى اليوم يعتقدون بوحدانية الله. واليهود السامريون يعترفون صراحة بيوم القيامة. أما اليهود العبرانيون فإنهم يقولون بجزاء على الأعمال إما فى الدنيا وإما فى الآخرة، رغم وضوح آيات التوراة السامرية فى جزاء الآخرة.

واليهود فى نظر المسلمين : كفار. لأنهم لا يؤمنون بمحمد ﷺ، ويجب على المسلمين أن يحاربوهم، حتى يدخلوا فى الإسلام، أو يخضعوا المسلمين بدفع الجزية عن يد وهم صاغرون.

• • •

والنصارى فريقان كبيران. هما الأرثوذكس والكاثوليك. والأرثوذكس يعتقدون بأن الله هو المسيح بن مريم، أى أن الله - تعالى - نزل من السماء، ودخل بطن مريم، وخرج طفلا هو المسيح، ثم كبر. ولما وصل إلى سن الثلاثين بلغ الرسالة إلى بنى إسرائيل. وفى سن الثالثة والثلاثين قتله اليهود وصلبوه ودفنوه فى القبر ودخل الجحيم وهو فى القبر، وتعذب فى النار ثلاثة أيام، ثم خرج من الجحيم إلى القبر، ومن القبر إلى السموات، وجلس كما كان أولا.

تلك هى عقيدة الأرثوذكس الآن وقد حكم الله عليهم بالكفر فى قوله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم » (المائدة ٧٢).

أما الكاثوليك ـ والبروتستانت منهم فى العقيدة ـ فيعتقدون بأن الآلهة ثلاثة هم : الآب ـ الإبن ـ الروح القدس . فالآب يخلق ، والإبن يرزق ، والروح القدس يحى ويميت، وكل إله مستقل بذاته ، ومنفصل عن غيره . وقد حكم الله عليهم بالكفر فى قوله تعالى: « لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة » (المائدة ٧٣) .

ويؤمن النصارى جميعاً بيوم القيامة . لكن يقولون : إن النعيم للروح لا للجسد ، والعذاب للروح لا للجسد . أما عن الأعمال . فعندهم أن من آمن بالمسيح رباً مصلوباً من أجل خطايا البشر ، فهو سيكون فى الجنة مع المسيح ، ولو لم يعمل عملا صالحاً .

ومعنى خطايا البشر : أنهم يزعمون أن آدم وهو فى الجنة أخطأ لما أكل من الشجرة التى نهاه الله عن الأكل منها ، وخطؤه ينتقل بالتوارث فى نسله ، وكل من مات من بنى آدم سواء كان صالحاً أو فاسداً يدخل جهنم لأن الخطيئة فى جسده . ثم أراد الله رحمة الناس ، وذلك بقتل المسيح ككبش فداء عن الخطايا ، وبقتله رضى الله عن بنى آدم جميعاً ، الذين كانوا قبل المسيح . ويرضى أيضاً عن كل من يؤمن بالمسيح « ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » (ص ٢٧)

والنصارى فى نظر المسلمين : كفار . لأنهم لا يؤمنون بمحمد ﷺ ويجب على المسلمين أن يحاربوهم حتى يدخلوا فى الإسلام ، أو يخضعوا للمسلمين بدفع الجزية عن يد وهم صاغرون . ودفع اليهود والنصارى للجزية ، معناه : أن لا يكون يهودى أو نصرانى رئيسا على مسلم . كل يهودى أو نصرانى يخضع للمسلم ولا يرفع رأسه عليه . ويجب أن يكون جيش كل بلد إسلامى من المسلمين المخلصين لدينهم ، ولا يشترك مع الجيش يهود أو نصارى . قال تعالى : « قاتلوا

الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (التوبة ٢٩) .

ولا يصح المناداة بالوحدة الوطنية مع اختلاف الدين . لأن عدو الإنسان عدو دينه . وإنما تصح المناداة بالوحدة الوطنية إذا اتفق الدين ونشأت الفرق والجماعات للاختلاف فى فهم الدين . أى إن الوحدة تصح مع السنى والشيعى ولا تصلح مع المسلم واليهودى أو المسلم والنصرانى .

ولأن الطوفى الحنبلى - يرحمه الله - من علماء السلف الأجلاء أورد نبذة مختصرة عن الله وصفاته فى نظر الفرق الإسلامية . ومنها نفهم أهم نقطة تميز السلف عن غيرهم .

المسلمون يؤمنون بإله واحد ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

والفرق الإسلامية المشهورة هى :

الخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة وأهل السنة . وأهل السنة ينقسمون إلى قسمين هما : السلف والخلف .

والخوارج : هم الذين خرجوا على الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - واعتبروه كافراً، لأنه رضى بالتحكيم فى الخلاف الذى كان بينه وبين معاوية ابن أبى سفيان - رضى الله عنه - ومبدؤهم المشهورون به: هو تكفير المسلم الذى يرتكب كبيرة من الكبائر ويصر عليها . والشيعة هم الذين يحبون علياً وينصرونه ويدافعون عنه فى مواجهة الخوارج الذين كفروه وفى مواجهة بنى أمية الذين لم يعترفوا بإخلاصه للدين واتهموه بمحاباة قتلة عثمان . وأهم مبدأ لهم : موالاة

أهل البيت والتقرب إلى الله بحبهم. والمرجئة لايحكمون على المسلم العاصي بأى حكم فى الدنيا بل يرجئون الحكم إلى الآخرة ويفوضونه إلى الله تعالى. والمعتزلة سموا معتزلة لسبب من سببين: إما لأنهم اعتزلوا الحرب الدائرة بين على ومعاوية وعكفوا على تعلم الدين، والتأليف فيه ودفع شبه أعداء الإسلام عنه وهذا هو الصحيح، وإما لأن واصل بن عطاء سأل الحسن البصرى، فقال له: ياإمام الدين ظهر فى زماننا هذا جماعة يكفرون المسلم بالمعصية -يعنى الخوارج- وجماعة يقولون: إن المعصية لاتضر مع الإيمان -يعنى المرجئة- فما تقول أنت؟

وقبل أن يجيب الحسن قال واصل: أنا لا أقول بأن المسلم العاصى كافر لأنه ينطق بالشهادتين، ولا أقول إنه مؤمن لأنه لايعمل بالدين كله. بل أقول إنه فى منزلة بين الإيمان والكفر. أى فاسق. ثم قام وجلس بجوار عمود من أعمدة المسجد، والتف حوله بعض طلاب العلم فقرر لهم مذهبه. فلما رأى ذلك الحسن، قال: اعتزلنا واصل، فسمى هو وأصحابه بالمعتزلة. وأهم مبدأ مشهور لهم: هو أن الإنسان حر فى اختيار أفعاله. والله لم يكتب على الإنسان شيئاً فى الأزل.

وأهل السنة: هم جماعة من العلماء عنوا بالحديث النبوى فى عهد عمر بن عبدالعزيز وتتبعوه، واهتموا به، فسموا أهل السنة، أى أهل الحديث النبوى. ومن كان منهم قبل القرن الخامس الهجرى يسمى بالسلف، ومن كان منهم بعد القرن الخامس يسمى بالخلف.

موقف الفرق الإسلامية من ذات الله تعالى وصفاته:

الخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة، والخلف من أهل السنة، يؤمنون بأن الله تعالى إله واحد، وليس كمثله شيء وأنه يتصف بصفات الكمال والجلال ويقولون: أن صفات الله تنقسم إلى قسمين: صفات أعضاء مثل الرأس والوجه

واليد والرجل ، وهكذا . وصفات أفعال مثل القدرة والإرادة والرحمة والغضب وهكذا . ويقولون : نحن نثبت صفات الأفعال لله تعالى، وننفي صفات الأعضاء لأن الله ليس كمثله شيء فلا نقول : لله رأس، لكن ليست كرءوسنا . بل نقول : ليس كمثله شيء . وهكذا .

أما السلف من أهل السنة فيقولون بصفات الأفعال . ويقولون بصفات الأعضاء ، مع عدم المماثلة أى أنهم يثبتون وينفون معاً . فيقولون : لله رأس ، لكن ليست كرءوسنا . لله يد ، لكن ليست كأيدينا . الله استوى على العرش لكن ليس كاستوائنا على الكراسي ، وهكذا .

تفسير بعض الآيات المتشابهة فى ذات الله وصفاته :

١ ـ قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » يفسره السلفيون بأن الله تعالى له يد ، لكن ليست كأيدى البشر ، ويفسرها غيرهم بأن قدرة الله فوق قدرة الناس أى يفسرون اليد بالقدرة .

٢ ـ قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » يفسره السلفيون : استوى إستواء يليق بجلاله لكن لا نعلم كيفية الإستواء وليس كاستواء البشر . ويفسره غيرهم : بأن الاستواء بمعنى الاستيلاء على العالم أجمع . وهكذا .

* * *

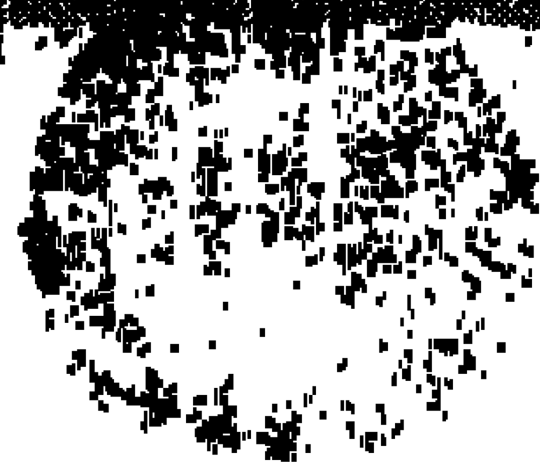
أما عن هذا الكتاب . فقد حصلنا على صورة مخطوطته الوحيدة ـ لأنه لم يطبع قبل اليوم ـ من معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة ، وهو كتاب جيد فى مقارنة الأديان ، شبيه بكتب أخرى فى موضوعه ، وهو يدلنا على نوع من الجدل بين المسلمين وأهل الكتاب . ظهر منذ بدء الإسلام ، وسيظل إلى قيام الساعة .

فابن حزم مثلا ألف فى الرد على يهودى طعن فى الإسلام. وابن قيم الجوزية. والقرطبى ألف فى الرد على نصرانى. والقرافى أيضاً. والأبوصيرى ناظم بردة المديح المباركة عمل منظومة من الشعر الجيد تضمنت كل ردود المسلمين على أهل الكتاب، كما عمل ابن مالك ألفية جمعت كل قواعد علم النحو والصرف.

والله تعالى أسأل أن يوفقنا لخدمة العلم والدين. آمين.

د/ أحمد حجازى أحمد السقا

الحائز على درجة الدكتوراه سنة ١٩٧٧ م
من كلية أصول الدين جامعة الأزهر فى موضوع :
« البشارة بنبي الإسلام فى التوراة والإنجيل »


بسم الله الرحمن الرحيم

الله عونى، وبه توفيق

أحمد الله، الذى أرشدنا إلى الإسلام، وهدانا بفضله سبل السلام، وجنبنا عبادة الأوثان والأصنام، وسائر مذاهب الكفرة اللئام. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، شهادة ترغم أنف الكافر أشد إرغام، وتوجب لقائلها النعيم فى دار المقام. وأصلى على رسوله محمد، الداعى إلى أفضل دين بأشرف كلام، والباقى معجزة على مر السنين، وتعاقب الأيام، وسلم تسليما كثيراً.

و بعد

فإنى رأيت كتاباً صنفه بعض النصارى. يطعن به فى دين الإسلام، ويقدح به فى نبوة محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - فرأيت مناقضته إلى الله ورسوله قربانا، ورجوت بها مغفرة من الله ورضوانا، حذراً من أن يستخف ذلك بعض ضعفاء المسلمين، فيورثه شكا فى الدين. ولقد رأيت بعض ذلك عيانا وأنصب عليه دليلا وبرهاناً.

فأوردت مناقضته، حرفاً من كلامه لحرفاً، وأبنت عن مقاصد السؤال والجواب على وجه لايخفى، مع تلخيص العبارة، خشية الضجر والإملال، وتخليص المعانى ونصوصيتها خيفة الإخلال والاختلال.

وقدمت على ذلك مقدمات كلية، تتضمن مباحث جلية، عليها ينبنى معظم الجواب، وبها يتيسر ظهور الصواب. وعلى الله توكلى، وإليه المآب. وتلك المقدمات ثلاث:

المقدمة الأولى

أن هذا النصرانى رأيته يعتمد فى طعنه على الإسلام، على التوراة والأناجيل التى بيد اليهود والنصارى، وعلى كتب الأنبياء الأوائل كنبوءة إشعياء وإرمياء ودانيال، والأنبياء الإثنى عشر، ومزامير داود، ونحوها.

واعلم أن هذه الكتب مما لا تقوم الحجة علينا بها. لأنها عندنا شرفة مبدلة نعم. التبديل لم يأت على جميعها، بل دخلها فى الجملة. فلهذا قال نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام -: « إذا حدثكم أهل الكتاب، فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد. ونحن له مسلمون » فنع من تصديقهم خشية أن يكون ماحدثونا به مما حرف جزما، ومن تكذيبهم خشية أن يكون مما لم يحرف. عدلا منه - ﷺ - ولو لم يكن للعاقل دليل على صدقه - عليه السلام - إلا هذا لكفاه، كما قررته فى التعليق على بعض كتب الأوائل، وفى آخر هذا التعليق.

ولهذا قال علماء الحديث من المسلمين: إن الراوى إذا عرف منه الكذب يرد حديثه كله، ويصير غير موثوق به. وكذلك من اختلط ولم يتميز مارواه قبل اختلاطه مما رواه بعده، يترك الكل احتياطا، وحزما فى الدين.

وأيضاً: كما أنهم لا يعدون كتابنا حجة عليهم، كذلك نحن لا نعد كتبهم حجة علينا وأولى، لأن كتبهم تقادم عهدها، وتعاورتها اللغات لفظاً وكتابة، بخلاف كتابنا. أما التهمة فهى متجهة إلينا منهم، وإليهم منا.

وأيضاً: فإن النصرانى فى استدلاله بما لا تقوم به الحجة علينا. إما أن يكون مع العلم بذلك فهى مغالطة ومخاتلة وتغابى. وإن قصد إقامة الحجة للنصارى، وهم. إذهم فى ثبوتهم على دينهم غنيون عن ذلك، حتى لو أراد منهم خلافه لما أطاعوه. أو مع عدم العلم فهو جهالة بمذهب الخصم. والعلم بما يلزم الخصم وما لا يلزمه ينبغى أن يكون مقدما على مناظرته. وفائدة هذه المقدمة: سد باب الاستدلال علينا بكتب الأوائل مطلقاً.

المقدمة الثانية

إنه من المعلوم عندنا وعندهم : أن الله ـ سبحانه ـ إنما خلق العباد ليعبدوه كما صرح بذلك فى القرآن الكريم حيث يقول : « وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون[1] » لكن لما كانت عبادة المعبود تستدعى بقدم معرفته ، خلق لهم العقول ليعرفوه بها ، ويوطدوا بها قواعد العبادة ومقدماتها .

فظهر من هذا التقرير ماقاله المحققون من أهل العلم بالأصول ،وهو أن العقل نائب الشرع يقرر له القواعد من إثبات الصانع وتوحيده ، الذى وافقنا عليه النصارى لفظاً لامعنى ، وحدوث العالم وجواز إرسال الرسل والدليل على صدقهم ، وهو المعجز الذى به تثبت النبوة . فإذا ثبتت ثبت الشرع ، ووجب قبول ماجاء به . ثم إن كان مما يدركه العقل فلله الحمد . ولو كان مما لايدركه ـ وهو المسمى فى عرف فقهاء الإسلام : تعبداً ـ وجب تسليمه ، وتقليد الشارع فيه ، وبثبوت الشرع ينعزل العقل كما ينعزل بقدوم السلطان من سفره ، من كان استنابه موضعه فى بلده .

وسرّ هذه المقدمة : ماقررته فى « القواعد الصغرى » وهو : أن العبادات والتكاليف مستلزمة للمشقة على أهل التكاليف . لكن المشقة تارة تكون عملية كما فى الصلاة والصيام والحج والجهاد ، وتارة علمية كما فى الإيمان بالغيب . وهو كلما غاب عن العيان كالله ـ سبحانه ـ وأحكام الآخرة . وهذا أشق التكليفين . ولهذا بدأ الله ـ سبحانه وتعالى ـ به فى وصف المؤمنين حيث قال : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة[2] » فالأول تكليف علمى . والثانى : عملى . وكذلك

---

(١) الذاريات ٥٦
(٢) البقرة ٣

قوله : « فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واستغفر لذنبك[1] » ولذلك المسيح وغيره من الأنبياء إنما بدأوا بدعاء الناس إلى الإيمان بهم ، وأنهم من عند الله .

ووجه المشقة فى الإيمان بالغيب : هو أن النفس الناطقة مطبوعة مفطورة على حب إدراك الأمور بحقائقها ، وإذا رأت ما لا تدرك حقيقته تألمت واضطربت ، كما يشاهد كل عاقل من غيره ، ويجده من نفسه ، حتى فى أيسر الأشياء . ولهذا يحدث للنفس العجب ، وهو عرض يلحقها لخفاء سبب الأمر الحادث ، فإذا ظهر لها سبب الأمر بطل العجب ، واستراحت .

فحاصل الأمر : أن الإنسان مركب من هيكل ونفس ، وأن التكليف واقع على جزئية كليهما ، على هيكله عملا ، وعلى نفسه اعتقاداً وعلما . هذا كله مع العلماء على أن الشرع لم يأت بما ينافى العقل ، ولا يجوز فيه ، بل بما قد لا يدركه العقل مع إمكانه فى نفسه . ولهذا قال « أرسطو » ـ على ما حكى عنه هذا النصرانى فى كتابه هذا الذى نحن بصدد مناقضته فى بيان ضرورة النبوة للخلق ـ قال : « إن الحال فى عقولنا عند النظر إلى المبادئ الأولى ، كحال الخفاش عند النظر إلى الشمس ، أعنى أن الشمس فى غاية الظهور فى نفسها ، وهى خفية عند الخفاش لضعف إبصاره »

وحكى أيضاً هذا النصرانى عن « ابن رشد » المالكى من المسلمين أنه قال : « لم يقل أحد فى العلوم الإلهية قولا يعتد به ، ولم يعصم أحد من الخطأ فيها ، إلا من عصمه الله بأمر إلهى خارج عن طبيعة الإنسان وهم الأنبياء » .

وحكى عن « أرسطو » أيضاً أنه قال فى كتاب « الأسباب » : « العلة الأولى

---

(1) محمد ١٩

أعلى من أن توصف ، ولاتعجز الألسنة عن وصفها ، إلا لأنها فوق كل علة »
وحكى عن « أبي حامد » ـ هو الغزالي ـ شيئاً في معنى ذلك عزاه إلى « كيمياء
السعادة » وإلى « المقصد الأسنى »

قلت : والحاصل من هذا : أن إدراك الشيء قد يمتنع تارة لضعف المدرك
كنظار الخفاش ، وتارة لخفاء المدرك كالسها عند بعض الناس ، كما أن التأثير
قد يمتنع في الأمور الفعلية والانفعالية تارة لضعف الفاعل . كالسيف الكال
وتارة لصعوبة القابل أو ما لابسه مانع له ، كالجسم الصلب إذا ضرب بالسيف
ونحـــوه .

وفائدة هذه المقدمة : أن نحيل عليها بالجواب عن كل حديث أورده هذا
السائل من السنة الإسلامية مما يقصر العقل عن إدراك مضمونه ، أو يدركه على
تعسف ، أو بتأويل بعيد .

وقد ساعدنا هو على ذلك بما ذكره عن الحكيم « أرسطو » فكان هذا
الخصم كالجادع مارن أنفه بكفه ، والباحث عن حتفه بظلفه .

وأيضاً : فإن من الطرق العامة التي لا يستغنى عنها في كل شريعة ، أو في
غالب الشرائع : أن يقال فيما اشتملت عليه من التعبدات العملية أو العلمية : هذا
ممكن أخبر به الصادق ، وكل ممكن أخبر به الصادق فهو حق واقع . فهذا المشار
إليه حق واقع .

والنزاع في هذا الدليل يقع في أمرين .

أحدهما : كون الأمر المشار إليه ممكنا ، وقد بينا : أن الشرع لم يأته بما ليس ممكنا .

والثانى : فى كون المخبر به صادقاً . وعلى أهل كل ملة بيانه بالدليل .

ونحن سنبين صدق محمد — عليه السلام — فى أثناء هذا الكتاب ، حيث يناسب ذكره ، إن شاء الله تعالى على وجه يقبله كل منصف عاقل .

المقدمة الثالثة

إن الأحكام العقلية على وزان الأحكام الحسية . ولهذا إذا أشكل على العقلاء أمر عقلى ، ضربوا له مثالا حسياً ليتصور لهم . وصور ذلك كثيرة جداً فى سائر العلوم ، يعرف ذلك من له أدنى نظر فى العلم .

وإذا عرفت ذلك . فاعلم أن الأدلة الشرعية لها مراتب مختلفة بحسب اختلاف مدلولاتها .

فيثبت ببعضها فروع الشريعة دون أصولها ، كالخبر المستفيض ، وخبر الواحد ، والقياس الظنى ، والاستحسان ، والاستصحاب ، وقول الصحابى ونحوه . ولا تثبت أصول الشريعة إلا بقاطع كالبديهيات والنظريات والمتواترات ونحوها (١) .

ووزانه من المحسوسات البناء . فإنه يحتاط لأسه بتخير الآلة الجيدة القوية الثابتة مالا يحتاط لحشوه وأعلاه ، لأن ثبوت أعلاه بأسه .

وفائدة هذه المقدمة : أن يستند إليها فى أن كل ما أورده علينا من الأخبار التى حقها أن لا تثبت بمثلها الأصول ، لا ترد علينا ، ولا تلزمنا . لأن تلك أخبار توجب العلم دون العمل ، لكونها مظنونة الثبوت . وإن كانت فى البخارى ومسلم ، لاحتمال وقوع علة قادحة فى طريقها ، فلا تقوى على إثبات أصل ، ولا على أن يقدح بها فى أصل ، خصوصاً وقد دخلها تصرف الرواة فى الرواية بالمعنى . وقد أورث ذلك إشكالا عظيما فى أحكام الفروع ، واختلافاً جماً بين أهل العلم .

---

(١) انظر مقدمة الكتاب وكتاب مقدمة ابن الصلاح .

فنقول فى مثل تلك الأحاديث: هذه لا نثبت بها أصلا ، ولا ترد علينا نقصاً .

وإذا فهمت مقاصد هذه المقدمات ، يتيسر عليك الجواب ، فإن ما أورده هذا الخصم ، إن كان من كتبهم كالتوراة والإنجيل ونحوها : منعنا كون ذلك حجة ، بما قررناه فى المقدمة الأولى . ثم قد نسلمه على جهة التنزل ، ونجيب عنه بالتزام أو فساد بوجه ما . وإن كان من كتبنا ، فإن كان مما يقصر العقل عن فهمه أجبنا عنه بما حكى هو عن ، أرسطو ، كما تقرر فى المقدمة الثانية ، وإن كان مما يصل العقل إلى فهمه أجبنا عنه ، إما بأنه مما لا يثبت بمثله أصل . بناء على ما قرر فى المقدمة الثالثة ، أو بتوجيهه — وهو يسير — بطريق من طرق الأجوبة الجدلية .

والذكى الفطن إذا اقتصر فى جواب كتاب هذا النصرانى كله على هذه المقدمات ، كفاه ذلك . مع أنى لا أقتصر عليه ، بل سأجيب عن كل منه بما أمكن مفصلا ، إن شاء الله تعالى . وما كان فى عبارته من تطويل لخصته مع الإتيان بكمال المعنى ، وأعرضت عن مكافأته على سوء أدبه على النبى ﷺ — بمثله ، لا إكراماً له ، بل هواناً بقدره ومحله . فأقول :

شروط النبوة الصادقة

أول ما افتتح به كتابه أن قال : « احذروا من الأنبياء الكذابين ، الذين يأتونكم في لباس الضأن، وهم في الباطن ذئاب مغيرة ، من ثمراتهم تعرفونهم »[1] قال : « وهذه الآية قول الله ـ عز وجل ـ في الإنجيل الطاهر » وذكر عليها كلاماً لا ضرورة لنا إلى ذكره فيما نحن بصدده .

قلت : هذا من كلام المسيح ابن مريم ، ذكر في الفصل الخامس[2] من إنجيل متى . وقول هذا المصنف: « هذه الآية قول الله تعالى في الإنجيل الطاهر » هو بناء على معتقده : أن المسيح هو الله [3] . ويكفيه ذلك من شناعة وبشاعة على ما قررته بحسب الإمكان في التعليق على الأناجيل الأربعة .

قلت : وغرضه بتصدير كتابه بهذه الآية : القدح في محمد ـ عليه السلام ـ ونسبته إلى الكذب . ولا حجة له فيها على ذلك ، فإنها كلام صحيح ، ونحن نقول به ، ومحمد ﷺ قد حذرنا من الأنبياء الكذابين أيضاً ، والمسيح عليه

---

(١) النص في الانجيل ترجمة البروتستانت سنة ١٩٧٠ م بمصر هكذا : « احترزوا من الأنبياء الكذبة ، الذين يأتونكم بثياب الحملان ، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة من ثمارهم تعرفونهم » (متى ٧ : ١٥ - ١٦) .

(٢) في التراجم الحديثة : الأصحاح السابع .

(٣) هذا يدل على أن النصراني مؤلف الكتاب الذي يرد عليه المؤلف من نصارى الأرثوذكس لأنهم يعتقدون أن الله هو المسيح.

السلام لم ينص على أحد بعينه أنه كاذب ، بل حذر من صفته الكذب ، ممن يدعى النبوة .

وقد كان فى بنى إسرائيل متنبئون كذبة كثيرون . كما قد صرح به فى نبوة إرمياء(١) فى الأصحاح الرابع والخامس والسادس منها. وكما ذكر هذا النصرانى بعينه بعد ذكر هذه الآية بأسطر : أن نحو أربعمائة من بنى إسرائيل ادعوا النبوة فى زمن « أخآب » ملك بنى إسرائيل ، وكانوا كذبة وأنهم وعدوه بالنصر على بعض أعدائه فاغتر بهم فخذل وقتل .

فالمسيح إنما حذر من مثل هؤلاء ، لا من مثل محمد ، الذى جاء بأتم أخلاق وآداب ودين لا يتمارى فى صدقه بعده إلا جاهل أو مجنون و بمعجزات جمة ، بأيسرها تثبت النبوة . على ماسيأتى ، بل المسيح بشر بمحمد ـ عليه السلام ـ كما سيأتى فى موضعه من هذا الكتاب ، وكما قررته فى فصل « البارقليط » فى التعليق على بشارة يوحنا بن زبدى . والله أعلم .

ثم قال : « وهذا يعنى تعريف الأنبياء الكذابين ، وتعرفهم ، والتحذير منهم ضرورى ، بين الضرورة ، نافع ، ظاهر المنفعة ، والعمل به واضح النجح ، بين الصلاح . لأنه لا رتبة أعلى ولا خطة أرفع فى بنى آدم من النبوة . فكم ملتمس رامها بالحيل ، فأظهر من دقائق الحيل ، وخفى المكائد ما اغتر به كثير من ضعفاء العقول ، فألقى الشيطان الضلال فى الناس ، وأدخل بينهم الفساد بواسطة هذا الصنف من الأنبياء الكذابين ، كما جاء فى قصة « أخآب » ملك إسرائيل » وذكر قصته مع أربع المائة الذين تنبئوا فى زمانه ، وقد سبق ذكرهم .

قلت : هذا كلام صحيح ، لا غبار عليه . ونحن نقول به ، لكن غرضى

---

(١) « الأنبياء يتنبأون بالكذب » (إرمياء ٥ : ٣١)

هذا الخصم، لا يتم منه بحسب ما هو بصدده إلا ببيان: أن محمداً ـ عليه السلام ـ من هذا الصنف من الأنبياء الكذابين.

وذلك صعب المرام عليه، لوجهين:

أحدهما: أنا ما رأينا ولا منذ أهبط آدم إلى الآن: أن نبياً كذاباً، استوسق له ناموسه، كما استوسق دين الإسلام نحو ألف سنة[1]، وهو كلما جاء في زيادة وتمكن.

بل كان المتنبي، لا يلبث الا يسيراً، حتى يفضحه الله، ويهتك ستره، لأن عادة الله في خلقه: أن يحق الحق، ويبطل الباطل، ويجعل العاقبة للمتقين.

الوجه الثاني: أن تأييد الكذاب بالمعجز، وإظهار أمره، وانقياد الناس له قبيح. لأن فيه التباس النبي بالمتنبيء، والقبيح لا يجوز على الله فعله، خصوصاً على رأى هذا الخصم، في إنكار القدر. فإن هذا من جملة أدلة القدرية على نفيه، وسيأتي ذلك في أثناء هذا الكتاب، إن شاء الله تعالى، وسنذكر من معجزات محمد ـ عليه السلام ـ ما يخزى له كل معاند.

ثم قال: فينبغي للعاقل أن يعرف أولا: ما النبوة؟ وما فائدتها؟ وما النبي؟ وما شروطه؟ وما مراد الله تعالى بإرساله لعبيده؟ لأنه لا بد من تصور النبي، قبل التصديق به، ليكون الإرسال قادراً على التفرقة بين كذب النبوة وصدقها وعلى الفصل بين الصادق والكاذب من الأنبياء».

---

(١) نحن الآن في سنة ألف وأربعمائة واثنان من الهجرة. والمؤلف كان في سنة سبع وسبعمائة من الهجرة.

قلت : هذا كلام صحيح ، لا اعتراض لنا ، ولا لغيرنا عليه .

ثم قال : « ولابد عن الخوض فى هذا من معرفة الكلام فى أربعة أمور : حقيقة النبوة ، ووجودها ، ووقوعها ، وضرورة الخلق إليها ، ومنفعتها » .

قلت : هذا أيضاً كلام صحيح مسلم .

ثم قال : « أما حقيقة النبوة . فإنها وحى صادق نافع للناس ولم لا ؟ وهى تكشف عن الغيب الذى لا يمكن انكشافه بحسب مجرى الطبيعة » وذكر ما فى هذه القيود من الاحترازات ، وهى ظاهرة .

قلت : وهذا تعريف صحيح ، لامطعن عليه .

ثم قال : « وأما وقوع النبوة فغير منازع فيه ، عند أهل الملل الثلاث .

وبيان لمن نازع فيه بحجتين :

أحدهما : أن عناية البارى – سبحانه – بخلقه ، قد ثبت فى الكثير ، من مصالح المعاش ، كوضع الحواس والأعضاء ، لما وضعت له ونحو ذلك من نعم الله التى لا تحصى .

فالعناية بهم فى أمر المعاد بإرسال من يهديهم إلى طريق السعادة الأبدية ، والحياة الدائمة ، ويكف شر بعض العالم عن بعض ، لينتظم أمرهم أولى .

الثانية : مادل عليه التواتر الكامل الشروط من أن جماعة من الرجال ، ادعوا أنهم رسل الله ، وظهرت المعجزات على أيديهم ، كمعجزات موسى وعيسى ، ورد الشمس ليوشع . ثم ذهبوا على أوضح السنن من الطهارة والفضيلة

والزهد فى الدنيا ودعوا الناس إلى مثل ذلك . فإن هذا يدل على صدقهم فى دعواهم ، وذلك يفيد وقوع النبوة قطعاً . هذا حاصل ماذكره من الحجتين ، لخصته أنا ، وهو فى عبارته طويل جداً .

قلت : وهاتان الحجتان مسلمتان . لكن الأولى مبنية على رعاية الأصلح ونحن لا نقول به ، وجوبا على الله ، بل جوازاً على جهة التفضيل ، خلافاً للمعتزلة .

وبها تبين الحجتين بعينهما تثبت نبوة محمد — عليه السلام —

أما الاولى : فلأنه بعث على فترة من الرسل طويلة ، وقد أكل العالم بعضه بعضاً خصوصاً العرب فى جاهليتها وغاراتها . وكانوا يعبدون الاوثان . والنصارى : الصلبان . والفرس : النيران . وغير ذلك من المنكرات . فأزال الله به ذلك . وأبدل الناس به خير ماينبغى :

ولانعلم زمناً قط ، كان أحوج إلى النبوة من زمن محمد — عليه السلام —

وأما الثانية : فلأنه ثبت بالتواتر الكامل الشروط . أنه — عليه السلام — أدعى النبوة وظهرت على يديه معجزات خارقة — سيأتى بيانها واثباتها على من أنكرها فى موضعه إن شاء الله تعالى — ثم توفى ﷺ ، على أوضح سنن ، وأظهر طريقة ، وأزكاها . وأزهدها فى الدنيا ، ودعى الناس إلى ذلك والخصم ينازع من هذه الجملة فى ظهور المعجز على يده ، وفى طهارته . وسيأتى إثباتهما .

ومن معجزاته : انشقاق القمر له ، ورد الشمس لابن عمه على ابن أبى طالب — رضى الله عنه — فكان ردها معجزة للنبى — عليه السلام — وكرامة لعلى

رضى الله عنه ـ وقد صحح الحديث بذلك : « الطحاوى » و « القاضى عياض » وحسبك بهما إمامين فى العلم ولا التفات مع ذلك إلى من جعله موضوعاً . إذ الإثبات مقدم، وردها ليوشع إنما ثبت عندنا بخبر من أخبار الآحاد، إذ لا وثوق لنا بما يخبر به أهل الكتاب .

فحينئذ الذى ثبت ليوشع النبى ، قد ثبت مثله لواحد من أصحاب محمد ـ عليه السلام ـ .

قال : « وأما ضرورة الخلق إليها(١) ، فلأنه لا يمكن التوصل إلى معرفة كثير من الإلهية بمجرد العقل ضرورة ، ولا نظراً ، بدون الإطلاع الإلهى على ذلك ، تكميلا لقصور العقل الإنسانى ـ إذ الموجودات بالنسبة إليه إما معلوم ضرورة ، كالعلم بأن الجزء أصغر من الكل ، أو نظراً كالعلم بوجود الإله ، واستحالة الخلاء ، أو ما يعجز عن إدراكه ، كالعلم بعدد أنواع الحيوانات والنباتات فضلا عن عدد أشخاصها ، وكالعلم بفصول أكثر الأنواع وبكثير من الطبائع والحقائق على الجملة فإنا لا نشك فى أن المجهول عندنا غالب على المعلوم منها . فما ظنك بالأمور الإلهية . .

ثم ذكر كلام « أرسطو » و « ابن رشد » و « أبى حامد » الذى قدمنا ذكره فى المقدمة الثانية .

قلت : هذا كلام صحيح ، لا نزاع فيه . لكن قوله « كالعلم باستحالة الخلاء » رأى فلسفى ، والمتكلمون يخالفونهم فيه ، وشهد على هذا . وإن لم يتعلق بما نحن بصدده .

---

(١) يريد أن يقول : إن معرفة الله تكون بالوحى ، والعقل بعد الوحى يشهد على صدق الوحى .

وقد ذكر المتكلمون فوائد للنبوة :

منها : تعريف أوضاع العبادات ومقاديرها ومواقيتها وكيفياتها ومقوماتها من شرط وركن ونحو ذلك .

ومنها : إقامة الحجة على الخلق . إذ بدونها لا تقوم حجة الله على خلقه ، كما صرح به فى غير موضع من القرآن ، كقوله : « رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »[1] وقوله : « ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله »[2] الآية ، وغيرها .

ومنها : تعريف الأحكام الفلكية كتفاصيل علم الهيئة ، وأدوار الفلك ، وحركات الكواكب . فإن ذلك مما لا تستقل به عقول البشر ، ولا تفى أعمارهم بإدراكه بالتجربة لو اشتغلت به عقولهم .

ومنها : تعريف الأحكام الطبية كقوى الأدوية والأغذية وخواصها ومنافعها ، ومضارها ، إذ الأعمار لا تفى بمعرفة ذلك بالتجربة ، كما قال أبقراط « العمر قصير ، والصناعة طويلة ، والتجربة خطر ، والقضاء عسير » .

قلت : ومنها : ما أجرى الله ـ سبحانه ـ على أيديهم من البركات من جلب المصالح ، ودرء المفاسد ، والدعاء لهم ، كإبراء المرضى ، ودعاء موسى لقومه ، برفع العذاب عنهم مراراً ، ورد النبى ـ عليه السلام ـ عين قتادة ابن النعمان عليه . وأشباه ذلك .

(١) النساء ١٦٥ .

(٢) « ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله ، لقالوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » (طه ١٣٤)

قال : « وأما منفعة النبوة : فكما قال « أبو حامد » فى رسالة التوفيق : فى ثلاثة أشياء .

أحدها : إصلاح الأخلاق النفسية كالعدل والعفة والصدق والنجدة والحلم والصبر والرحمة فى مواضعها ، والتزام حسنها ، واجتناب سيئها كأضداد ذلك فإنه لا غناء للعاقل فى معاشه عن ذلك :

الثانى : حفظ حقوق الناس من دم ومال وعرض ونحوه ، ورفع المظالم من بينهم ، وإلا هلك العالم ، واختل نظامه .

الثالث : نجاة النفس من الهلكة فى الدار الآخرة بمعرفة الخالق سبحانه وطاعته ولا سبيل إلى معرفة ذلك بمجرد الفلاسفة بدون النبوة . ومن ادعى ذلك فدعواه مجردة عن دليل الحق . إذ الفلاسفة مختلفون فى الآراء كغيرهم فمتابعة بعضهم دون بعض ترجيح بلا مرجح » .

قلت : هذا كلام صحيح ، وهو من جملة فوائد النبوة ، وضرورة الناس إليها ، المذكورة فى الفصل قبله . وقد جاء محمد ـ ﷺ ـ من ذلك بأفضل مما جاء به كل من سبقه . يعرف ذلك بالنظر ـ بلا خلاف ـ البصراء فى دين الإسلام ، وقوانينه الأصلية والفرعية .

قال : « وإذ قد فرغنا مما ذكرناه . فنبين : ما النبى ؟ وما شروطه ؟ فنقول النبى : هو الذى يعطى الوحى من عند الله على الصفة المذكورة فى حد النبوة »

قلت : هذا مسلم .

قال : « وأما شروطه فأربعة نسوقها بعد توطئة وتمهيد لذلك » .

وحاصل التمهيد الذى ذكره : « أن من تردد فى شىء فإنه لا يقف على حقيقته إلا بالنظر . فكذلك النبى إنما يعرف صدقه من كذبه بوجود الشروط الأربعة فيه .

أولها : الصدق .

وثانيها : طهارة النفس ونزاهتها عن الفواحش ، لأن النبي من عند الله ، فوجب أن يكون على صفته فى الصدق والطهارة والنزاهة » .

قلت : هذا كلام صحيح . بل طهارة النفس وتزكيتها واجب على كل أحد لكن منهم من يحصل له ذلك ، ومنهم من يحرمه . أما الأنبياء فهو لازم فيهم لأنهم أمناء الله على خلقه ووحيه ، صيانة له .

قال : « وقد تكلم فى هذا الموطن — يعنى موطن الطهارة ، وهى الشرط الثانى — « موسى بن عبيد الله » الفيلسوف . فى فصل « النبوة » فى كتابه المسمى « دلالة الحائرين » فقال : امتحان النبى الصادق ، هو اعتبار كماله ، وتعقب أفعاله ، وتأمل سيرته . وأكبر علاماته : إطراح اللذات البدنية ، والتهاون بها فإن ذلك من شأن أهل العلم ، فضلا عن الأنبياء . وخاصة الحاسة التى هى عار علينا ، كما ذكر « أرسطو » ، ولاسيما قذارة النكاح منها . ولذلك فضح الله بها كل مدع ، ليتبين الحق ، ولا يضلوا ، ولا يغالطوا .

ثم ذكر قصة رجلين ادعيا النبوة ، وانهمكا فى حساسية لذة الجماع ، حتى زنيا ، فافتضحا ، وأحرقهما ملك بابل . كما ذكر إرمياء النبى — فى الباب التاسع

والعشرين[1] .

قلت : شرع العلج يدس الدسائس ، ويقدم المقدمات الردية ؛ ليستنتج منها النتائج الخبيثة ، ومثلى لا يغالط فى الحساب .

فأقول : أما قول الفيلسوف : « امتحان النبى الصادق باعتبار كماله ، وتعقب أفعاله . وتأمل سيرته » فهذا صحيح . ومن تأمل من نبينا محمد - عليه السلام تأمل منصف ، لم يجد مقالا ، فإنه كان على الغاية فى العدل والزهد والورع والتواضع . يعرف ذلك بالنظر فى سيرته المنقولة عنه ، ولسنا بصدد بيان ذلك مفصلا ، إذ فيه كتب مصنفة من جيدها كتاب « رياض الصالحين » للنواوى .

وأما اطراحه اللذات البدنية ، سوى النكاح - فكان فى الغاية منه ، فإنه لم ينقل عنه أنه أكل مرققاً ، ولا على أسكرجة ، ولا نام على فراش وطىء . وكان يقول : « مالى وللدنيا . إنما أنا والدنيا كراكب نام تحت شجرة . ثم قام وتركها » .

وأما قوله : « الحاسة التى هى عار علينا ، كما ذكر « أرسطو » ، ولا سيما قذارة النكاح منها .

فنقول أولا لهذا المصنف النصرانى : أنت قد قدمت فى فوائد النبوة : أن مقاصدها ، لا تحصل بمجرد الفلسفة . فكيف جعلت قول الفلاسفة كومى

(١) قصة الرجلين ليست فى الباب (الأصحاح) التاسع والعشرين من سفر إرمياء ، بل فى سفر من الأسفار المحذوفة من التوراة العبرانية ، وهو تتمة سفر دانيال . وإرمياء هو نفسه يرميا .

ابو عبيد الله وأرسطو حجة فى تقبيح حاسة النكاح ؟ هذا تهافت لا يسمع ،

ثم نقول لهذا الفيلسوف : حاسة النكاح عار ، على من ؟ عليك ؟ أو على الأنبياء ومن تابعهم ؟ إن قلت : عليك قلنا عندك أو عندهم ؟ إن قلت : عندك. فأنت لا عندك: بل أنت من أعداء أهل الشرائع . ومن أول عداواتك لهم , وضغنك عليهم ، تقبيحك عليهم شيئاً ، أجمعوا على جوازه ، منذ أهبط آدم إلى الآن ، وأنت قد اعترفت بصحة نبوتهم وعقولهم . فأحد الأمرين لازم . أما فساد عقلك فى إنكارك عليهم التشاغل بالنكاح ، أو فساد عقلك فى اعترافك بصحة نبوتهم ، وكمال عقولهم .

ويقال كأرسطو : ألست القائل آنفاً : إن حال عقولنا عند النظر إلى المتأذى كحالة الخفاش عند النظر إلى الشمس . فمن أين لك : أن عقلك لم يقصر عن إدراك حكمة البارى ـ سبحانه ـ فى إباحة النكاح للأنبياء ـ عليهم السلام ـ ؟ وهل هذا إلا تهافت ؟ .

وإن قلت : عند الأنبياء . فهذا كذب عليهم . فإن الأنبياء أجمعوا على حسنه وحكمة الله فيه، من تكثير العباد والعبّاد وعمارة الأرض، ودوام العالم، وبقاء النوع الإنسانى، الذى أجمعت الحكماء على أنه خلاصة الوجود وتنوع أنواعه . وإن قلت على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فأنت قد اعترفت بكمالهم ! والاقدام على العار ، ينافى الكمال . فهذا تهافت منك بكل حال .

وأما ماذكر من قذارة النكاح:

لانسلم أن فيه قذارة ، بل فيه مصالح .

منها : سرور النفس به ، وانشراحها للعبادة ، ولعل بدونه لا ينشرح لذلك .

ومنها : تحصين الفرج عن الزنا المحرم ، بإجماع أهل الملل والعقول .

ومنها : تحليل فضلات البدن المحتقنة فيه ، وإنعاش الحار الغريزى به ، فيخف بذلك البدن وينشط . ولهذا بعض الناس يمرض بتركه ويكثر فى بدنه الجراحات والدماميل ونحوها .

ومنها : أن يحسن الخُلُق ، ويبسط بشرة الوجه .

وقد نص « جالينوس » على أن سبب سوء خلق الخصيان ، وتعبيس وجوههم وانتهارهم لمن كلمهم : بترك الجماع ، لاحتباس الماء ، وتعفنه فى أبدانهم ولئن سلمنا أن فيه قذارة فالجواب من وجهين :

أحدهما : أن قذارته شرعية أو طبيعية ؟ إن قلت : شرعية ، فهو ممنوع ، فإن الذى يصلح أن يضاف إليه الاستقذار فى الجماع هو : المنىّ ، والمذى ، ورطوبة فرج المرأة . وهذه الأشياء طاهرة عند كثير من أهل الشرع .

ومن قال بنجاستهما منهم عفى عن يسيرها دفعاً للحرج والمشقة . فأما مخرج البول والغائط فلا وطء فيه والحيض يحرم الوطء فى زمنه . فأين القذارة إذن فى الجماع ؟

وإن قلت : طبيعية لم يلزم من ذلك وجوب اجتنابها عقلا ، ولا شرعاً ، لأن هذه الأشياء كالبصاق ، وبلغم المعدة والرأس والمخاط وعرق الحمى ، بل مطلق العرق . فإن هذه كلها فضلات تحللها الحرارة من البدن ، وهى تورثه خفة ونشاطاً وصحة ، ومعتمد العلاج الطبى بتنقية البدن من المواد التى ليس من شأنها أن تكون فيه .

الثانى : سلمنا أن فيه قذارة بكل حال . لكن مفسدة تلك القذارة مغمورة

بما فيه من المصالح العظيمة الدنيوية والأخروية . والعقول الصحيحة لا ترجح إعدام مفسدة واحدة حقيقة . خصوصاً . وقد باشرها الأنبياء والصديقون أجمعون ، إلا من شذ منهم على وجود مصالح كثيرة جمة النفع .

ثم أين قذارة الجماع من قذارة الغائط ؟ الذي يتعبد غنابيس النصارى ببقائه على أبدانهم ، حتى تغالى فيه النصارى ، فجعلوا يتهادونه ويتبركون ويستسقون به من الأمراض ، بناء منهم على فهمهم الفاسد لكلام المسيح في الفصل الثامن والعشرين من إنجيل متى حيث يقول : « ليس النجس ما دخل الفم ثم خرج مستحيلاً من المخرج . إنما النجس ما خرج من الفم من الكلام السيء ، لأنه يدل على نجاسة القلب[1] » هذا معنى كلامه .

ومن أنكر من النصارى أنهم يتعبدون ببقاء العذرة على أبدانهم فهو مستخف منكر لما يعلم — كما ينكر بعض فقهاء المسلمين تجويز الوطء في الدبر — وهو منصوص في كتبهم وعن أئمتهم .

وأما قوله : « ولذلك فضح الله بهما كل مدع » فنقول في جوابه : لا نسلم أن الله فضح المدعين بحاسة النكاح ، وإنما فضحهم بدعواهم الكلام . ولو كانت حاسة النكاح تقتضي الفضيحة لافتضح بها الأنبياء كلهم ، بل جميع الخلق . كآدم ونوح وإبراهيم . وخصوصاً إسرائيل وداود وسليمان فإنهم كانوا كثيري النساء .

---

(١) النص هذا في الأصحاح الخامس عشر من إنجيل متى : « ثم دعا الجمع وقال لهم : اسمعوا وافهموا : ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان ، بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الانسان . . . وأما ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر ، وذاك ينجس الانسان ، لأن من القلب تخرج أفكار شريرة : قتل . زنى . فسق . سرقة . شهادة زور . تجديف . هذه هي التي تنجس الانسان . وأما الأكل بأيد غير مغسولة فلا ينجس الانسان » (متى ١٥ : ١٠ — ١١ و ١٨ = ٢٠)

والسرادى وكثرة تشاغل إبراهيم وبنيه بالجماع هو الذى أوجب كثرة نسلهم وانتشار الشعوب منهم ، لأن الجماع سبب النسل ، وكثرة المسبب يدل على كثرة السبب .

وبالجملة . فمن جعل حاسة النكاح عاراً . فقد ألحق العار بسائر الأنبياء والصديقين والصالحين وعباد الله أجمعين . وإن عاراً يتلبس إبليس . هؤلاء كلهم ليس بعار :

وعيرونى بذلى فى محبتهـــا وبالذى عيرونى تم لى الشرف

وأما ما ذكر من قصة الرجلين الذين أحرقهما ملك بابل ، فلم أجده فى الباب المذكور من كتاب إرمياء النبى ، فإن كان المشار إليه يرميا النبى ، وأنه غير إرمياء ، وإلا فلا أعلم صحة هذا النقل ، على أنه بتقدير الصحة إنما افتضح هذان الرجلان بدعواهما الكاذبة وزناهما ، لا بتعاطى شهوة النكاح .

على أنى أحسب أن النقل اشتبه عليه[1] ، وأن المراد بالرجلين هاروت وماروت . ولهما قصة عجيبة وردت بها السنة وذكرها أهل السير . منهم : « وثيمة بن موسى بن الفرات » فى « قصص الأنبياء » :

وكان افتضاحهما بتقدير الله ، وسببه طعن الملائكة على بنى آدم واستقلالهم أعمالهم وتعييرهم بخطاياهم وعصيانهم . فلما ابتلى الملائكة بما ابتلى به بنو آدم ساعة من نهار ، استقالوا فاقيلوا ، إلا هاروت وماروت زنيا فجرى لهما ما جرى[2] . وقد ذكرت بعض قصتهما فى « الفوائد »

---

(١) قلنا سابقاً : إن قصة الرجلين فى الأصحاحات الزائدة على سفر دانيال .

(٢) قد بينا فى كتابنا « السحر » و « إعجاز القرآن » أن الملائكة لا تعصى الله أبداً . وأن نزول هاروت وماروت من السماء كان إشاعة من علماء اليهود ، والله =

قلت : والذى أوجب لهـذا النصرانى تقديم هذا الكلام ، وتقبيح حاسة النكاح هو كونه رأى المسيح لا داعى له اليها ، ورأى محمداً ـ عليه السلام ـ شديد الداعى إلى ذلك ، كما نقل عنه حيث يقول «حبب إلى من الدنيا ثلاث : الطيب ، والنساء ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » وأنه تزوج كثيراً وتسرى ، فأراد العاج أن يجعل هذا مطعناً عليه .

ولقد تاه عن الصواب . فإن نكاح النساء هو عين الطهارة ، لما فيه من تحصين الدين ، والإعانة على تقوى رب العالمين . ولهذا كان محمد ﷺ إذا رأى امرأة أعجبته دخل على بعض نسائه يقضى حاجته منها ، ثم خرج . وفعل ذلك يوما ثم خرج على أصحابه ، فقال : « إن المرأة إذا أقبلت أقبل معها شيطان يزينها ، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله ، فإن معها مثل الذى معها »

وقال : « إذا كانت لأحدكم إلى امرأته حاجة فليأتها ، وإن كانت على التنور »

= كذبها بقوله : « وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت » أى لم ينزل الله من شىء من السحر كما يدعى اليهود ، كما نفى إشاعتهم عن كفر سليمان بقوله « وما كفر سليمان ولكن الشياطين — أى علماء بنى إسرائيل — كفروا » وأشاع اليهود : أن هاروت وماروت علما من أراد منهم السحر ، واشترطا عليه بأنهما فتنة . فنفى الله تعليم الملكين لأحد ، بقوله : « وما يعلمان من أحد » وإذا ثبت أنهما لم يعلما ، فهما لم يقولا « إنما نحن فتنة » وإذاً لم يعلما ولم يقولا إذن اليهود لا يعرفون ما يفرق بين المرء وزوجه ، وعلى هذا فالقرآن ينفى السحر ، ولا يثبت له حقيقة ، وما يحصل من الضرر عن طريق مدعى السحر فما هو إلا إيهام ، وعلى هذا أيضاً يكون الحديث المثبت لسحر النبى ﷺ حديث ضعيف ، كما أطلق الإمام الفقيه الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى .

كل ذلك محافظة على حفظ الدين ، لئلا يغلب الإنسان عليه بداعي الشيطان والهوى .

كما حكى في التوراة : أن « يهوذا بن يعقوب » تعرض له كنّته — زوجة ابنه — في الطريق في صورة زانية ، فواقعها على أن يعطيها جدياً ورهنها عليه عمامته وقضيبا كان بيده[1] .

وأن « روبيل » وطىء سرية أبيه يعقوب ونجس فراشه . ونحن لا نقول بصحة هـــذا ولكنه حجة على النصارى واليهود ، وتحقيق ذلك وتلخيصه : أن شهوة النكاح في الإنسان طبيعية كشهوة الأكل والشرب ، وحب الغلبة والرئاسة ، بل هي أشد الشهوات . ولذلك كان أكثر افتتان العالم بها ، فقضاؤها وأمن غائلتها بالطريق الحلال المصطلح عليه في النواميس الإلهية أولى في العقل من التعرض وتركها لمعصية الرحمن وطاعة الشيطان .

وقول محمد — عليه السلام — : حبب إلىّ من دنياكم النساء ، ليس ذلك لغلبة شهوته عقله ، كيف ذلك وسيرته : سيرته . لمن تأملها ، وثباته : ثباته . بل إنمـــا مقصود ذلك : أن يتفرغ خاطره التفرغ الكلى لأداء الرسالة ، والقيام بأعبائها — كما يتفرغ الجائع بالأكل — لأداء العبادات .

---

(١) هذا مكتوب في الأصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين .

وقد ورد فى السنة النبوية الصحية عن يوشع[1] بن نون . أنه لما توجه إلى بعض مغازيه ؛ أحسبها : غزاة أريحا ، مدينة الجبارين ـ قال لقومه : « لا ينبغى رجل قد ملك بضع امرأة ، يريد أن يبنى بها ولما يبن . ولا آخر قد بنى بيوتاً ، ولم يرفع . ولا آخر قد اشترى غنما ، أو خلفات، وهو ينتظر أولادها الحديث . رواه أحمد ، وأخرجاه فى الصحيحين[2] .

كل ذلك مراعاة لاجتماع الخواطر فى طاعة الله ، وحذراً من تفرق الهمم فيها ، ونظائر هذا فى شريعتنا مطلوب كالنهى عن الصلاة مع مدافعة الأخبثين ، وكذلك الشبق ، وكل مايلهى .

وبالجملة : فكل عبادة الله ـ سبحانه ـ ينبغى للانسان أن لا يدخل فيها ، حتى يحسم مواد اشتغال قلبه عنها ما أمكن ، ومن هذا ، أو قريباً منه قوله عليه السلام : « لا يقضى القاضى وهو غضبان » لأن القضاء عبادة ، والغضب يشغل عنه . وكذلك كل مافى معنى الغضب من مرض أو حر أو برد أو شبق ونحو ذلك. فلهذا كان عليه السلام يحب الطيب لا ليلتذ به فى نفسه، بل إكراما

---

(١) فى التراجم الحديثة : يشوع ، وروبيل فى التراجم الحديثة : رأوبين .

(٢) الحديث هذا بالمعنى فى التوراة . يقول موسى عليه السلام ـ كما هو مكتوب « إذا خرجت للحرب على عدوك ورأيت خيلا ومراكب قوم أكثر منك فلا تخف منهم . . ثم يخاطب العرفاء الشعب قائلين : من هو الرجل الذى بنى بيتاً جديداً ولم يدشنه . ليذهب ويرجع إلى بيته لئلا يموت فى الحرب فيدشنه رجل آخر . ومن هو الرجل الذى غرس كرما ، ولم يبتكره . ليذهب ويرجع إلى بيته لئلا يموت فى الحرب فيبتكره رجل آخر . ومن هو الرجل الذى خطب امرأة ولم يأخذها . ليذهب ويرجع إلى بيته لئلا يموت فى الحرب فيأخذها رجل آخر . » (التثنية ٢٠ : ١ إلخ) .

الملائكة الذين معه خصوصاً جبريل صاحب الوحي . ولهذا كان يبغض الثوم والبصل ، وكل ذي ريح كريهة ، وقال لأصحابه : « إني أناجي من لا تناجون . وإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ».

وأما المسيح فلعله في ترك النكاح ، كان عنيناً ، أو لكونه كان لا من ذكر ، أو لكونه ملكاً ظهر في صورة آدمي ، فغلبت عليه صفة الملائكة . كما قال الله — سبحانه — : « ولو جعلناه ملكاً ، لجعلناه رجلاً[1] » الآية . أو لكونه كان هو الله أو ابنه على رأي النصارى الساقط — تعالى الله عما يقولون — .

ونحن نقول : إن المسيح لو تأسى بسائر الأنبياء في النكاح والنسل ، وتكثير العباد والعبّاد لكان ذلك أكمل له . فالذي يحتج علينا في خاسة النكاح بترك المسيح له ، نحتج عليه في فضيلته بفعل جميع الأنبياء له وليس المسيح — عليه السلام — بخير من جميع الأنبياء ، إلا على هذيان النصارى في أنه : الله[2] ، أو ابن الله . وذلك ممنوع عند كل عاقل ، بل هو عبد الله ورسوله ، وسيأتي تمام الكلام على هذا الشرط عند ذكر تفاصيله .

---

(١) الأنعام ٩

(٢) جميع النصارى يعترفون — كذباً — أن المسيح ابن الله ، لأن كل إسرائيل عندهم ابن الله ، ولأن داود عليه السلام في المزمور الثاني تنبأ عن النبي المنتظر بلقب ابن الله ، على معنى القرب من الله مثل « الفقراء عيال الله ، والأغنياء وكلاء الله » فطبقوا النبوءة هذه على عيسى — عليه السلام — أما عن أن عيسى هو الله تعالى . فهذا هو مذهب الأرثوذكس (اليعاقبة) وأما أنه إله مستقل بذاته من آلهة ثلاثة . فهذا هو مذهب الكاثوليك (الملكانية)وقد حكم الله عليهم بالكفر في قوله : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم » (المائدة ٧٢) وفي قوله : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة » (المائدة ٧٣)

قال : « الشرط الثالث ، يعني من شروط النبي : إظهار المعجز للناس ، ويقع الفرق بين الصادق والكاذب » .

قلت : هذا كلام صحيح :

قال : « والمعجز فعل ماليس فى قوة الإنسان أنه يفعله بحسب المجرى الطبيعى » .

قلت : هذا جيد فى تعريف المعجز ، لكن المتكلمين فيه عبارة أخرى أحق من هذه وهو قولهم : المعجز هو الأمر الممكن الخارق للعادة ، المقرون بالتحدى ، الخالى عن المعارض . فالأمر : جنس المعجز وغيره . والممكن : فصل له عن الممتنع ، إذ الممتنع لا يوجد . والخارق للعادة يفصله عن الأمور العادية كطلوع الشمس ووقوع المطر وركوب الفرس ونحوها . فإن المستند فى دعوى النبوة إليها لا يثبت له شيء والمقرون بالتحدى : إحتراز عمن يدعى أنه معجز من قبله ، دليل على صدقه . وهو كما يقول إنسان اليوم : إن قلب موسى عصاه حية ، دليل على صدق فى دعوى النبوة . فإن ذلك لا ينفعه ، لأن معجزه ليس مقارنا لتحديه ، والخالى عن المعارض : احتراز من الشعبذة والنيرنجات فإنها تعارض بمثلها ، فإذا ظهر على يد شخص هذا الأمر بهذه الشروط كان معجزاً ، وكان الشخص نبيا .

قال : « الشرط الرابع : أن يكون الدين بشرعه موافقاً للدين الطبيعى ، وهو نوعان :

أحدهما : عام لجميع الأمم ، لا يختص بأمة دون أمة ، كبر الوالدين ، وصلة الرحم والإحسان إلى المحسن ، والتجاوز عن المسيء . وبالجملة : جلب المصالح ودرء المفاسد ، والتحلى بالفضائل ، والتخلى عن الرذائل .

والثاني : يختص بأمة دون أمة كتحريم لحم الخنزير عند غير النصارى وتحريم ذبح الحيوان عند البراهمة » .

هذا حاصل ماذكره في هذا الشرط .

قلت : هذا شرط متفق على حسنه عقلا وشرعاً ، وهو تام الوجود في دين الإسلام على ماذكرنا جملة منه في شرح « الآداب الشرعية » لكن لايلزم أن يأتي النبي به على هذه الصفة ، واشتراطه فلسفة صدقه بل لله سبحانه أن يتعبد خلقه بما شاء ، سواء كان ذلك مصلحة لهم أولا . بناء على أصلنا في أن رعاية الأصلح للخلق لا يجب على الله سبحانه ـ وإنما فعل ذلك حيث فعله بهم ، تفضلا ، لا وجوباً .

الشرط الأول

الصدق

قال : « وإذ قد فرغنا من الكلام فى النبوة والنبى ، وشروطه التى يجب امتحانه بها بحيث أن وجدت فيه صدق ، وإن اختلت فيه أو بعضها كذب . فإنا وجدنا الرجل المسمى : محمد بن الله بن عبد المطلب ، أدعى النبوة فى أمة من العرب ، والتمس منه الشرط الأول ، وهو الصدق . فوجدنا ماجاء به يشتمل على صفتين : صادق وكاذب — كما سنبين — » .

قلت : هذه دعوى مجردة عن حجة ، فإذا ذكر الحجة قوبلت بحسب ماينبغى

قال : « وليس كون الصدق بحال كذب المتكلم موجبا لحسن الظن به ، بل خلط الصدق مع الكذب أبلغ فى الحيلة ، وأنفذ فى المكيدة . ولهذا يقال : مامن تعليم كاذب إلا وممازجة شىء من الحق ليلتبس الباطل به ، وتكون الخدعة أنفق فيه ، والحيلة فى التصديق أقوى[1] » .

قلت : هذا كلام صحيح . وهو من محاسن الكلم لاينازع فيه عاقل ، بل النزاع فى أن ماأتى به محمد — عليه السلام — يشتمل على الكذب .

---

(١) قول النصرانى هذا : هو مافعله اليهود والنصارى فى دين الإسلام ، لقد تظاهر بعضهم بالإسلام وحاكوا المؤمرات ضده .. وأنضم بعضهم إلى صفوف الخوارج فى محاربة على رضى الله عنه .

القسم الأول من شرط الصدق

تصديق النصراني آيات قرآنية

قال : « فلنورد أقاويل هذا الإنسان من صدق وغيره .

فقسم الصدق . قوله في سورة الصمد : « قل : هو الله أحد[1] » .

قلت : لا شك أن هذا الكلام حق في نفسه ، لكن إخبار هذا المصنف بصدق هذا الكلام عنده ، إما جهل بحقيقة التوحيد ، أو ستر لعوار دينه الثالوثي ، وتحلية لجيده العاطل منه به ، وإلا فأين قوله : « الله أحد » من قولهم : « الآب ، والإبن ، والروح القدس ، إله واحد » ودعواهم التوحيد مع هذا التصريح[2] : كلام في الريح ، لا يعقل ولا يتحصل ، كما قد حققت بطلانه في « التعليق على الإنجيل » .

قال : « وقوله في سورة يونس : « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام[3] » وفي سورة آل عمران : « وإذ قالت الملائكة : يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين[4] » الآية . وقوله في سورة الأنعام : « لا مبدل لكلماته[5] » ـ يعنى كلمات الله ، وهى التوراة

---

(١) الصمد .

(٢) أنظر كتابنا . أقانيم النصارى .. نشر دار الانصار بمصر .

(٣) يونس ٣ .

(٤) آل عمران ٤٢ .

(٥) الأنعام ١١٥ والآية ٣٤ والمعنى . « لا مبدل » لا مغير لكلمات الله عز وجل من وعده بالنصر على من خالفه (تفسير الطبرى نقلا عن مصحف الشروق) .

والإنجيل ـ وفى سورة الحجر : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[1] »
والذكر : هو التوراة والإنجيل . ويشهد لذلك قوله فى سورة الأنبياء : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا ، نوحى إليهم .فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون[2]

فبين بهذا : أن كلمات الله غير مبدلة » .

قلت : هذه الآيات كلها حق وصدق . ولكن أخطأ هذا الخصم إيرادها فى مواضع :

منها : أنه حصر ماجاء به محمد من الصدق فيها ، والقرآن مملوء من الحكم والأخبار التى يعلم بالضرورة صدقها . وإنما هذا رجل معاند ، يريد أن ينفى التهمة عن نفسه ، بإيهام العدل فى إيراد مايعتقده صدقا وكذبا . وعناده : يأبى عليه إلا إظهار التعصب والجور . فذكر خمس آيات ، حصر الصدق فيها ، وهى مما يعتمد عليها وتنفعه فى عناده . وشرع فى ذكر مايعتقده كذبا ، فملأ منه الكتاب . ويأبى الله إلا ظهور الحق واستعلائه وخمول الباطل وإذعانه .

ومنها : قوله : « لامبدل لكلماته » ووهم منها فى موضعين .

أحدهما : أنه ذكر الكلمات المضافة إلى الضمير ، فاحتاج أن يفسره بالله تعالى ، وقد كان يستغنى عن ذلك بإيراد الآية فى أول السورة المذكورة ، وهى قوله : « ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين[3] » . فإن

---

(١) الحجر ٩ .

(٢) الأنبياء ٧ « فاسألوا أهل الذكر» قيل . أهل القرآن . وقيل . أهل التوراة والإنجيل (تفسير الطبرى نقلا عن مصحف الشروق بمصر) .

(٣) الأنعام ٣٤ والآية ١١٥ .

الكلمات فيها مضافة إلى الله — سبحانه — لا إلى ضميره المحتاج إلى تفسيرين . وهذا لا يقدح فى صحة ما احتج به ، لكن بما ذكرناه أظهر ، فعدوله عنه مشعر بالضعف وقصور النظر .

الموضع الثانى : أنه فسر كلمات الله بالتوراة والإنجيل ليثبت علينا بكتابتنا أنها حجة لازمة لنا ، وهيهات من دون المراد موانع .

والذى يدل على أنه ليس المراد بالكلمات هنا التوراة والإنجيل : هو أن هذه الآية فى سورة الأنعام . وسورة الأنعام كلها جدال ومناظرة لعباد الأوثان الذين ينكرون البعث . ولا تعرض فيها لأهل الكتاب إلا بطريق الاستشهاد بهم ، كقوله : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » وقوله : « والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق [1] » وليس المراد بأهل الكتاب : الموجودين بل الأوائل المعاصرين لزمن النبوة ، أو بطريق عموم خطاب عنهم لهم لا بالقصد ، وإذا عرف هذا فالله سبحانه يقول قبل هذه الآية : « أفغير الله أبتغى حكما ؟ وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا [2] » .

والخطاب لكفار العرب ، والكتاب الذى أنزل إليهم هو القرآن ، وهو المراد بالكلمات . قاله قتادة والطبرى . قال الله سبحانه « والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق [3] » وهذا استشهاد بأهل الكتاب الموجودين

---

(١) الأنعام ١١٤ والآية قبلها ٢٠ وفى تفسير القرطبى « والذين آتيناهم الكتاب » يريد اليهود والنصارى . وقيل : من أسلم منهم »

(٢) الأنعام ١١٤

(٣) الأنعام ١١٤

حينئذ من أسلم منهم كعبد الله بن سلام وغيره ، أو جميع أهل(١) الكتاب ، ولكن يكتم ذلك منهم من يكتمه عناداً .

ولو كانت الكلمات هي التوراة والإنجيل لكان الكتاب المذكور هو التوراة والإنجيل ، ولم يكن به حاجة إلى أن يستشهد أهل الكتاب على صحته ، لأن التوراة والإنجيل المنزلين على موسى وعيسى ، لم ينازع فيها أحد حتى يستشهد لها . وأيضاً : لو كان كذلك لم تصح شهادة أهل الكتاب لكتابهم لموضع التهمة . ثم قال : « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا ، لا مبدل لكلماته(٢) ، وهي الكتاب الذي أنزل مفصلا ، وهو القرآن . إذ لا معنى لقول القائل : وهو الذي أنزل إليكم القرآن مفصلا ، وتمت التوراة والإنجيل ، ولا مبدل للتوراة والإنجيل » ، لأن المخاطبين بهذا الخطاب هم كفار العرب ، ومحمد — عليه السلام — لم يكن يدعوهم إلى التوراة والإنجيل حتى يثنى لهم عليهما . وإنما كان يدعوهم إلى القرآن فثبت بهذا أن المراد بقوله « لا مبدل لكلماته » هو القرآن .

---

(١) هذا هو الصواب لأن أهل الكتاب المعاصرين لمحمد ﷺ وغير المعاصرين إلى يوم القيامة يعلمون أن القرآن حق = أعنى العلماء لا الأميين الذين لا يعلمون إلا أماني — والصواب في « كلمة ربك » تعنى خبر الله لأنبياء بنى إسرائيل أن محمداً ﷺ سيظهر قد تحقق في حينه . . ومعنى « كلماته » أى كل أخباره تتحقق ، فلماذا تنكرون خبر محمد وحده ؟

(٢) الأنعام ١١٥ وفي الطبرى كلمة ربك أى القرآن (نقلا عن مصحف الشروق) وفى تفسير القرطبى « وتمت كلمات ربك » قراءة أهل الكوفة بالتوحيد — أو كلمة — والباقون بالجمع — أى كلمات — قال ابن عباس : مواعيد ربك فلا مغير لها . والكلمات ترجع إلى العبارات أو إلى المتعلقات من الوعد والوعيد وغيرهما . قال قتادة الكلمات هي القرآن لا مبدل له ، لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون » اه . « والصحيح أن الكلمات ترجع إلى المتعلقات من الوعد والوعيد وغيرهما .

وفى ما يرجع إليه نفى التبديل قولان :

أحدهما : معناه ، ومتعلقه من أخبار وحُكم ووعد ووعيد، أى أن ما أخبر الله فى القرآن من خبر ، أو حكم به من حُكم ، أو وعد من ثواب ، أو أوعد من عقاب لا يستطيع أحد تبديله ولا بيان فساده .

والثانى : أنه لفظه ، أى لا يقدر أحد أن يزيد فيه ولا ينقص ، لأن الله — سبحانه — ألهم المسلمين حفظه حرفا حرفاً ، فلا يدخله الزيادة والنقص كما دخل التوراة والإنجيل على ما قد شاهدته أنا بنفسى فى الكتابين من التناقض والاختلاف وأثبته فى تعليق على الكتابين :

ثم إن هذا المصنف جعل عمدته فى كتابه تفسير ابن عطية . فما باله لم يذكر ما قاله ابن عطية فى تفسير قوله « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته»؟ لكنه رآه فحاد عنه . ولعمرى إنه معذور فى ذلك . فإن كتب المسلمين ليست عنده حجة . وإنما يذكر منها ما يذكر احتجاجا عليهم وإلزاماً لهم ورميا لهم بسهامهم كما نحتج نحن عليهم بالتوراة والإنجيل على هذا الوجه ، ولا نعتقد صحة ما فيها .

ومنها : قوله إن « الذكر » فى قوله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» هو التوراة والإنجيل »

وليس كذلك بل هو القرآن بإجماع مفسرى القرآن[1] . ذكر عبد الرازق فى تفسيره عن معمر ، عن قتادة وثابت البنانى فى قوله « وإنا له لحافظون »قال

---

(١) فى القرطبى قال قتادة وثابت البنانى : حفظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلا ، أى تنقص منه حقاً » .

« حفظه الله من أن يزيد فيه الشيطان باطلا أو يبطل منه حقا » .

قلت : ونظيره قوله تعالى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »[١] والمعنى واحد .

أما احتجاجه على ذلك بقوله « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون[٢] » فلا حجة فيه ، لأن قبل ذلك قوله سبحانه « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » يعنى القرآن بلا خلاف ولا شك « إلا استمعوه وهم يلعبون » يعنى كفار العرب « لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا » وهم الكفار « هل هذا — يعنى محمداً — إلا بشر مثلكم » أى فليس بأولى بالرسالة منكم . كما قال قوم نوح له « ما نراك إلا بشراً مثلنا[٣] » وقول قوم صالح « أبشراً منا واحداً نتبعه[٤] » ؟ ثم قالوا « أفتأتون السحر وأنتم تبصرون » ؟ فأجابهم الله تعالى عن هذا بقوله « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم[٥] » أى أن الرسل الذين كانوا قبلك بشراً وقد اعترف هؤلاء الكفار برسالتهم . فما وجه إنكارهم لرسالتك مع كونك بشراً ؟ ثم قال « فاسألوا أهل الذكر » يعنى أهل التوراة : هل كان المرسلون إلا رجالا يوحى إليهم ؟

فالذكر أصح المراد ها هنا غير الذكر المراد فى سورة الحجر ، وهو الذكر المحفوظ .

فإن لفظ الذكر ورد فى القرآن على وجوه :

---

(١) فصلت ٤٢ (٢) الأنبياء ٧ (٣) هود ٢٧ (٤) القمر ٢٤
(٥) الأنبياء ٧ — والأنبياء ٣ وفى الطبرى أهل الذكر : قيل أهل القرآن . وقيل أهل التوراة والإنجيل . والأصح فى سورة الأنبياء أن أهل الذكر هم أهل الكتاب كما قال المؤلف رحمه الله .

منها : القرآن والتوراة كالموضوعين المذكورين .

ومنها : الرسول ، كقوله « قد أنزل الله إليكم ذكراً — رسولا —[1] » على ما قيل فيه .

ومنها : الشرف ، كقوله « وإنه لذكر لك ولقومك[2] » أى شرف . فلفظ « الذكر » مطلق على هذه المعانى بالاشتراك أو التواطىء . أو بالحقيقة والمجاز . وبكل تقدير فلا يصح استدلاله على أن الذكر المحفوظ هو الذكر المبدلة[3] أهله . ويبين ذلك بتقرير استدلاله على وجه صناعى هكذا : الله — سبحانه — حفظ الذكر ، والذكر هو التوراة . فالله حفظ التوراة ، لكن المقدمه الأولى مهملة ، وشرطها فى الإنتاج أن تكون كلية ، هكذا : الله حفظ كل ذكر . والتوراة ذكر . لكن ليس التقدير هذا ، وحينئذ يدخل التفصيل فى المقدمة الأولى . فيقال : ما تعنى بالذكر المحفوظ ؟ التوراة أو القرآن ؟ الأول ممنوع . والثانى : مسلم ، لكنه لا يفيد ، لأن الحد الأوسط فى الشكل مختلف فمحمول الأولى غير موضوع الثانية .

قوله : « فتبين بذلك أن كلمات الله غير مبدلة »

قلنا : هذا صحيح لكن قد بينا أن المراد بكلمات الله ليست التوراة والإنجيل التى بأيديكم بل هى القرآن . ولئن سلمنا أنهما التوراة والإنجيل ، بل

---

(١) الطلاق ١٠ — ١١

(٢) الزخرف ٤٤

(٣) يقصد أن اليهود والنصارى بدلوا التوراة والإنجيل

وكل كلام الله غير مبدل ، إلا أن ما بأيديكم ليس هو التوراة والإنجيل المراد من ها هنا ، المنزلين على موسى وعيسى ، بل كلمات الله التى هى كلماته لا يدخلها التبديل فى خبر ولا حكم ولا وعد ولا وعيد ، وما بأيديكم من ذلك تواريخ وسير مبدل محرف متناقض ، علمنا تناقضه بالعيان والمباشرة[١] .

(١) لأن التوراة كتبها عزرا فى بابل بعد سنة ٥٨٦ ق . م . والإنجيل عدله النصارى بعد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م

القسم الثاني من شرط الصدق

أولاً : تكذيب النصراني لآيات قرآنية

قال : القسم الثاني من قوله – يعني مما زعم أنه كذب من أخبار محمد – عليه السلام – فمن ذلك قوله : « إذ قالت امرأة عمران : رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً » إلى قوله : « وإني سميتها مريم[١] » وقوله في التحريم : « ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها[٢] » وقوله في سورة مريم : « ياأخت هارون ما كان أبوك امرء سوء[٣] » .

قال : « فثبت بهذا كله : أن مريم أم المسيح هي بنت عمران أخت موسى وهرون » .

قال : « واسم أبي مريم أم المسيح : يعقيم . وأمها : حنة . وبين مريم هذه ، وعمران أبي موسى ألف وخمسمائة سنة[٤] » .

---

(١) آل عمران ٣٥ - ٣٦ . (٢) التحريم ١٢ (٣) مريم ٢٨ وفي تفسير القرطبي : قيل : إن مريم من ولد هرون أخي موسى فنسبت إليه بالأخوة لانها من ولده ، كما يقال للتميمي : ياأخا تميم ، وللعربي ياأخا العرب . وفي تفسير الكشاف نقلا عن القرطبي : قال السدي : إنها كانت من نسل هرون ، وهذا كما تقول الرجل من قبيلة : ياأخا فلان . ومنه قوله عليه السلام : « إن أخا صداء قد أذن ، فمن أذن فهو يقيم » اهـ وهذا هو الرأي الصحيح .

(٤) في كتب النصارى أن اسم أبي مريم « يهوياقيم » ، والقرآن يقصد من =

قال : « وعذرا له فى هذه الغلطة ، فإن الناقل ، إما جاهل وإما قاصد إيقاعه فى الغلط » .

قلت : يشير هذا الخصم إلى أن محمداً ـ عليه السلام ـ كان يلقن أساطير الأولين ثم ينظمها بعبارة ، والملقن له إما جاهل بالنقل ، أو قاصد تغليطه .

قلت : وللعدو أن يقول ماشاء ، وإنما يثبت ما قامت عليه الحجة . وهذا سؤال قد كفانا جوابه صاحب الشريعة ـ ﷺ ـ فروى المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول الله ـ ﷺ ـ إلى نجران . فقالوا : ألستم تقرأون « ياأخت هرون » وقد كان بين عيسى وموسى ما كان ؟ فلم أدر ماأجيبهم ، ورجعت إلى رسول الله فأخبرته . فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم » رواه مسلم والترمذى وقال حديث حسن صحيح(١) .

= « امرأة عمران » : واحدة من ذرية عمران أبى هرون وموسى ، أى أن أم مريم منتسبة إلى ذرية عمران لا أن عمران أباها المباشر. وقد وضحنا هذا فى كتابنا : يوحنا المعمدان بين الإسلام والنصرانية . كما وضحنا فيه نسبة مريم إلى هارون النبى بأنها من نسله ، خلافا لادعاء النصارى أنها من نسل داود عليه السلام . وبين موسى وعيسى ألف وخمسمائة وواحد وسبعون عاماً بحساب النصارى . وليس هذا الحساب صحيح فى نظرنا . فالمدة أطول .

(١) الحديث موضوع لتحريف الكلم عن مواضعه ويجب على العلماء الذين يفسرون القرآن بالمأثور أن يراجعوا أنفسهم. فإن مريم من نسل هرون أخى موسى ـ عليهما السلام ـ حقيقة كما جاء فى التفاسير عن السدى وغيره . وقد حقق الإمام ابن حزم فى كتابه الفصل نسبتها إلى هارون. وفى إظهار الحق لرحمت الله الهندى نسبها إلى هارون . يقول ابن حزم : « وفى أول إنجيل لوقا الذى هو تاريخه المؤلف فى =

قلت : ومعنى هذا الحديث ماذكره عبد الرزاق فى تفسيره . قال : أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله «ياأخت هارون» قال : كان رجلا صالحاً فى بنى إسرائيل يسمى هارون فشبهوها به . فقالوا : يا شبيهة هارون فى الصلاح . فتحقيق معنى الحديث أن هارون هذا سمى باسم هارون أخى موسى تبركا .

وحينئذ يفسد استدلال هذا الخصم ويكون الحد الأوسط فى نظمه وهو هارون مختلفاً ، كما تقدم فى استدلالة على أن الذكر المحفوظ هو التوراة .

وأما قوله : إن اسم أبى مريم : « يعقيم » فجوابه من وجهين .

أحدهما : أن هـذا لم أعلمه ولا رأيت أحداً ذكره ممن أثق به من علماء المسلمين . وعلماء اليهود والنصارى غير مأمونين عندنا، ولا وثوق لنا بما عندهم على ماسبق فى مقدمات الكتاب . ومعنا شىء نحن معتقدون فيه، واثقون به، وهو القرآن المتضمن أن اسم أبيها عمران . ويكون ذلك من أسماء الأعلام المشتركة مثل هارون وهارون وفرعون وفرعون ،وزيد وزيد،وعمرو وعمرو فلا نعدل عنه إلى غيره ، ولا سبيل لهم إلى إقامة الحجة القاطعة التى نضطر إلى تسليمها علينا ، وان أمكنهم ذلك وفعلوه قبلناه منهم ، فإنه لاغرض لنا فى العناد بل الحق حيث كان متبع .

= أخبار المسيح قال لوقا : «كان بعد هردوس ، والى بلد يهودا، كوهن يدعى زكريا من دولة أبيا ؛ وزوجته من بنات هارون، تسمى اليشباب ، ثم ذكر كلاما فيه مجىء جبرائيل الملك عليه السلام إلى مريم عليها السلام أم المسيح عليه السلام وأنه قال لها فى جملة كلام كثير : « وقد حبلت اليشبات قريبتك على قدمها رعقرها » فأخبر أن اليشبات هارونية ، وأنها قريبة لمريم ، فعلى هذا فمريم أيضاً هارونية » الخ (ص ٥٦ — ٥٧ ج ٩ الفصل فى الملل والأهواء والنحل) .

الوجه الثاني : أن هذا اختلاف فى الأسماء ، لا فى المسميات لجاز أن يكون عمران تعريب يعقيم ، فإن العربية تصرفت فى الألفاظ الأعجمية فعربتها كما سمت العرب المسيح : عيسى ، واسمه فى الإنجيل : يسوع . فعكسوه من آخره وقلبوا الواو ياء[1] . وكان أصل موسى موشا ، بالشين المعجمة ، يعنى الماء والشجر ، لأن آل فرعون التقطوه من بين ماء وشجر حين ألقته أمه فى اليم وهو هو الماء والشجر .

وكما سموا « حران » هذه المدنية التى بين الشام وبلاد الجزيرة باسم هاران أخى إبراهيم ، وهو أبو لوط ، لأنه براها ، فعربوها ، فقالوا : حران .

أو لعل عمران اسم ويعقيم لقب ، فكل هذا محتمل ، فلا يقدح مثله فى صاحب ناموس عظيم غلب ناموسه على ناموس المسيح[1] والكليم .

* * *

قال : « ومن ذلك قوله فى سياق تبشير الملائكة لزكريا بيحيى « قال رب اجعل لى آية . قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً[2] » قال :

(١) المسيح ليس له ناموس . لأنه مصدق للتوراة . والإنجيل تبشير بمجىء محمد ﷺ . فالأديان دينان لا ثلاثة : دين موسى، ودين محمد عليهما السلام . وقد نسخ محمد عن أمر الله تعالى دين موسى . أما عيسى فإنه تابع لشريعة التوراة .

(٢) آل عمران ٤١ ومريم ١٠ والرمز هو الإشارة ، وهى تنزل منزلة الكلام وفى إنجيل لوقا : إن صمت زكريا عقوبة ، لكن القرآن لم يخبر أنه عقوبة . وفى إنجيل لوقا : أن مدة الصمت إلى حين ولادة يحيى ، وفى القرآن أن مدة الصمت ثلاثة أيام . قال له جبريل « وها أنت تكون صامتاً ، ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذى يكون فيه هذا ، لأنك لم تصدق كلامى الذى سيتم فى وقته » (١ : ٢٠) ويقول لوقا بعد ولادة يحيى عن زكريا : « وفى الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم وبارك الله » (١ : ٦٤) .

« وهذا باطل ، لأن سكوت زكريا كان أزيد من تسعة أشهر ، وذلك من الوقت الذى بشرته إلى أن وضع ، وأن كان على جهة التأديب والعقاب ، يعنى على مراجعته الملك ، وكونه لم يثق بأول كلامه ، لا على جهة الآية ، وذكر حكاية ذلك من الإنجيل فى كلام طويل قد ذكرته أنا وجوابه فى « التعليق على الأناجيل » .

قلت : والذى يحتاج إلى الجواب عنه فى هذه الجملة أمران :

أحدهما : أن سكوته كان أكثر من ثلاثة أيام .

الثانى : أن سكوته كان عقوبة لا علامة .

والجواب عن ذلك من وجهين :

أحدهما : الجواب العام وهو أن مستندكم فى هذا : الإنجيل . وليس حجة علينا[1] ، كما أن ما عندنا ليس حجة عليكم – على زعمكم – فنفيت دعوانا ودعواكم ولا فاصل بيننا يلزمنا جميعاً الرجوع إليه .

الوجه الثانى : أن خبر محمد – عليه السلام – أثبت ثلاثة الأيام ، ولم ينف ما فوقها[2] وأثبت العلامة ، ولم ينف العقوبة . فإذن الجمع بين القولين ممكن ، وهو أن سكوته كان تسعة أشهر ، ومنها ثلاثة الأيام المذكورة .

---

(١) قال لوقا فى بدء إنجيله : « إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الامور المتيقنة عندنا ، كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداما للكلمة ، رأيت أنا أيضاً ... ألخ » وعلى قوله هذا يثبت عنده الخطأ والصواب .

(٢) بنفى الزيادة وبنفى العقوبة فى نظرنا .

ولعله إنما اقتصر عليها لخصيصة فيها ، وذلك أن فى القرآن فى سورة مريم « آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً » قال عبد الرازق : أخبرنا معمر عن قتادة عن عكرمة قال : « سوياً » من غير خرس . وذكر فى الإنجيل : أن زكريا بقى أبكم إلى أن وضع يحيى ، والأبكم : الأخرس ، فلعله كان فى ثلاثة الأيام الأول ساكتاً من غير خرس ، وفى بقية المدة ساكتاً بخرس ، ويكون الأول علامة ، والثانى عقوبة . والقرآن الكريم إنما ذكر هذه القصة فى سياق ذكر النعمة على آل إبراهيم وآل عمران واصطفائهم على العالمين . فاقتصر على ذكر زمن الآية والعلامة التى هى من نعم الله على خلقه ؛ إذ هى موجبة الطمأنينة القلوب ، ولم يذكر مدة البُكم الذى هو عقوبة لئلا يفضى ذلك إلى ضرب من تكدير النعمة بذكر العقوبة عقيبها .

والقرآن فيه من ملاحظات الآداب واللطائف ما هو أدق من هذا ، وشبيه بهذا تأدب إبراهيم مع ربه حيث يقول : « الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين[1] » فأضاف الخلق والهداية والإطعام والإسقاء إلى الله . لأنها نعم ، وأضاف المرض إلى نفسه لكونه محله ، وإن كان ليس منه فى الحقيقة تأدبا لأن المرض صورته ، صورة نقمة . وإضافته إلى المنعم فى سياق الاعتراف له بالإنعام تكدير للتأدب . وكذلك لا تنافى بين كون السكوت علامة صدق البشرى ، وعقوبة على عدم المبادرة إلى التصديق بها ، وذكر العقوبة فى هذا ليس مما اخترعه هذا المصنف من الأسئلة على القرآن بل قد ذكره مفسرو القرآن منهم قتادة[2] . قال الطبرى : « وهو قول أكثر المفسرين » .

---

(١) الشعراء ٧٨ — ٨٠ .

(٢) وروى عن النحاس أنه ليس عقوبة .

قلت : وعليه إشكال . وإن كان قد ذكره المسلمون ، فإنه لا خلاف بيننا وبين النصارى أن مريم لما بُشِّرت بالولد استعظمت ذلك وقالت : (أنّى يكون لى ولد، ولم يمسسنى بشر[1]) ؟ نطق بذلك قرآننا وإنجيلهم[2]، ثم إنها لم تعاقب على ذلك بشىء .

فإن قال قائل : إن زكريا كان أكمل من مريم ، والأكمل فى الحال أولى بالعقوبة على الأفعال ، وهذا معلوم من قواعد الشرع والعقل ، ولهذا كان وعيد العلماء أعظم من وعيد الجهال .

قلنا : الجواب من وجهين .

أحدهما : أن هذا مع قيام المقتضى للعقوبة ، إنما يقتضى تخفيف العذاب عن المفضول فى الحال ، لا سقوطه بالكلية، وقد وجد مقتضى العقوبة فى مريم كما وجد فى زكريا ، فكان ينبغى أن يحصل لها من العقوبة بحسب حالها .

الثانى: أنه باطل بأمر نبيهم. لما سأل الطمأنينة بمشاهدة كيفية إحياء الموتى[3] فإنه لم يعاقب ، مع أنه فى عدم المبادرة إلى قبول خبر الصادق كزكريا ومريم . بل أولى لوجهين :

أحدهما : أنه كان فى غاية من كمال الحال :

الثانى : أن المخاطب له لو كان هو الله نفسه على ظاهر القرآن ، والمخاطب لزكريا ومريم كان الملك .

---

(١) آل عمران ٤٧

(٢) « فقالت مريم للملاك . كيف يكون هذا ، وأنا لست أعرف رجلا ؟ » (لوقا ١ : ٣٤)

(٣) يقصد إبراهيم عليه السلام .

وبشارة زوجة إبراهيم حيث «صكت وجهها، وقالت عجوز عقيم[1]» ولم تعاقب .

والأشبه — والله أعلم — أن العقوبة لا مدخل لها هنا لوجهين :

أحدهما : أن الله سبحانه — خلق الإنسان من ضعف ، ولم يجعل فى قوة عقله إدراك الحقائق الإلهية ، فعدل الله — سبحانه — يقتضى تمهيد عذر الإنسان إذا ضعف فى مثل هذه المقامات المدهشة ، ما لم يصر على العناد ، ولو كان مثل هذا موجباً للعقاب لكان أولى الناس به موسى — عليه السلام — فإن الله سبحانه — لما قال له : «ألق عصاك[2]» ، فألقاها ، إلقاء راغب عنها ، ظناً منه أن الله نهاه عن حملها ، ثم التفت فإذا هى حية تسعى ، فأمعن هرباً ، فلما أعاد قال له ربه : «خذها ولا تخف»[3] فلف كم مدرعته على يده ، ثم تناولها . فقال له الملك : أرأيت لو أذن الله لما تحاذر أكانت تنفعك كمك ؟ فقال : لا ، ولكنى ضعيف ، ومن ضعف خلقت . فإن موسى فعل هذه الفعال ، وهو بحضرة الله — سبحانه — يسمع كلامه بغير واسطة ، وقد وانسه بالكلام ، ولم يبق من أمره شك ، فقد كان أولى بالعقوبة إذن ، ولكن مثل هذا لا يقتضيها فى عدل الله سبحانه .

الثانى : أن العقوبة تستدعى ذنباً ، وليس ها هنا ما يصح أن يكون ذنباً إلا الشك فى قدرة الله ، على ما أخبر به ، أو فى صدقه فيه ، والأنبياء عارفون بالله وصفاته لا يخفى عليهم مثل هذا ، وهم معصومون منه ، وإنما كان ذلك من

---

(١) الذاريات ٢٩ وصكت وجهها : ضربت جبهتها تعجباً .
(٢) النمل ١٠ .
(٣) طه ٢١ .

زكريا ومريم وإبراهيم وسارة وكل من صدر منه ذلك من المؤمنين بالله تعجباً من كيفية المقدور ، لا شكا فى حقيقته ، فأراد أن يعرف : هل يعاد شاباً ثم يرزق الولد ، أو يرزقه وهو بهذه الحال ؟ والتعجب وسؤال الله - سبحانه - كشف الأمور الملتبسة إن لم يقتض ثواباً ، لم يقتض ، عقاباً .

ومن الدليل على أن العلامة مراده من سكوت زكريا ولا بد : ما ذكر فى الإنجيل أن زكريا قال للملاك : « من أين أعلم هذا وأنا شيخ وزوجتى قد تناهت فى أيامها » ؟ (١) فهذا سؤال من زكريا للآية بلا شك . فأجابه الملك وقال : « أنا جبريل الواقف بين يدى الله ، وأرسلت لأبشرك بهذا . وها أنت تكون ساكتاً ، لا تقدر على الكلام إلى اليوم الذى يتم هذا . لكونك لم تصدق كلماتى اليوم التى تتم فى زمانها » .

فأخبر فى الإنجيل : أن جبريل أجاب زكريا على سؤاله ، والجواب تجب مطابقته للسؤال . وقد ثبت أن سؤاله كان عن الآية ، فيكون الجواب بها . وزيادة العقوبة إن ثبت وسلمناه لا ينافى ذلك ، لأن الجواب يجوز أن يتضمن زيادة عما فى السؤال ، كما فى قوله تعالى : « وما تلك بيمينك يا موسى ؟ قال : هى عصاى » هذا طبق السؤال ، وقوله : « أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى (٢) » هذا زيادة عليه .

---

(١) نص العبارة فى الأصحاح الأول من إنجيل لوقا هكذا : « فقال زكريا للملاك كيف أعلم هذا لأنى أنا شيخ وامرأتى متقدمة فى أيامها ؟ فأجاب الملاك وقال له : أنا جبرائيل الواقف قدام الله ، وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا . وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذى يكون فيه ، لأنك لم تصدق كلامى الذى سيتم فى وقته » (لو ١ : ١٨ — ٢٠)

(٢) طه ٢٠

وقوله عليه السلام حين سئل: «أنتوضأ بماء البحر؟» فقال: «هو الطهور ماؤه» هذا طبق السؤال. وقوله «الحل ميتته» زيادة عليه، ويكون وجه الجمع بين الآية والعلامة: أما ما ذكرناه من قبل وهو أن ثلاثة الأيام سوياً من شهر خرس علامة، وباقيتها أخرس عقوبة، أو بأن مطلق السكوت علامة، وامتداده إلى حين الوضع عقوبة. والله أعلم.

* * *

قال: «ومن ذلك قوله في سورة يوسف: «فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه» إلى قوله: «ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً»[1] وتقرير السؤال من وجهين:

أحدهما: أنه أخبر أن أبوي يوسف حضرا عنده ذلك الوقت، وقد ثبت في التوراة: أن راحيل أم يوسف ماتت في نفاسها ببنيامين[2]، ودفنت ببيت لحم، قبل أن يطرأ ليوسف ما طرأ.

والثاني: أنه ذكر أنهم سجدوا ليوسف، ولم يذكر في التوراة. غير أن يعقوب لما رأى يوسف فتح ذراعيه، وعانقه باكياً»[3].

قلت: والجواب عن الأول من وجوه:

أحدها: الجواب العام، وهو عدم الوثوق بالتوراة، وقد ثبت في التعليق عليها من التناقض والتهافت ما تبين لكل عاقل أنها مما لا يعتمد عليه.

الثاني: إني تأملت هذا الحكم في التوراة على جهة التفصيل فوجدته مختلفاً مشتبهاً جداً وذلك أنه ذكر فيها أن راحيل أم يوسف ماتت على طريق بيت لحم عند قدوم يعقوب

---

(١) يوسف ٩٩ - ١٠٠

(٢) التكوين ٣٥ - ١٨ - ١٩

(٣) التكوين ٤٦ : ٢٩

من عند خاله « لابان » وذلك قبل أن يرى يوسف الرؤيا[١] بمدة ، وذكر فيها: أن يعقوب بعد اجتماعه بيوسف بمصر قال له : « وإنى حين أقبلت من فدان آرام - يعنى قدومه من عند خاله لابان من حوران - ماتت راحيل أمك فى أرض كنعان فقبرتها بيت لحم[٢] » . فهذان نصان يقتضيان : أن أم يوسف ماتت قبل أن ترى الرؤيا ، وذكر فيها : أن يوسف لما جاءه إخوته يطلبون الميرة ، فعرفهم وهم له منكرون ، اتهمهم بالجاسوسية ، وجعل ذلك ذريعة إلى سؤالهم عن عدتهم ، حتى انتهى إلى ذكر « بنيامين » فقال : ائتونى به لأعلم صدقكم ، فرجعوا إلى أبيهم فقالوا أرسل معنا بنيامين ، فقال لهم يعقوب : « إن أخاه قد مات ولم يبق لأمه غيره ولعله تصيبه مصيبة فى الطريق[٣] » .

---

(١) كلام المؤلف صحيح الخامس والثلاثين من سفر التكوين .

(٢) النص : « وأنا حين جئت من فدان ، ماتت عندى راحيل فى أرض كنعان فى الطريق . إذ بقيت مسافة من الأرض ، حتى آتى إلى أفراته . فدفنتها هناك فى طريق أفراتة ، التى هى بيت لحم » (تكوين ٤٨ : ٧)

(٣) المؤلف لم ينقل جيداً . والنص : « لا ينزل ابنى معكم . لأن أخاه قد مات ، وهو وحده باق . فإن أصابه أذية فى الطريق التى تذهبون فيها ، تنزلون شيبتى بحزن إلى الهاوية » (تكوين ٤٢ : ٣٨) لكن قول التوراة « وهو وحده باق » يدل على أنه باق لأمه ، لا لأبيه ، فإن أولاد يعقوب وقتئذ كثيرون غيره . وهذا هو فهم الطوفى الحنبلى رحمه الله . وقد أخذه من نص آخر ، وهو أن يهوذا قال ليوسف عن بنيامين « لنا أب شيخ . وابن شيخوخة صغير ، مات أخوه ، وبقى هو وحده لأمه ، وأبوه يحبه » (تكوين ٤٤ : ٢٠) فقوله « وبقى هو وحده لأمه » يدل على أن أمه إلى ذلك الوقت حية . ومن المحتمل والإحتمال لا يدل على الثقة بالتوراة هنا — أن يكون فى العبارة تقديم وتأخير أى مات أخوه لأمه ، وبقى هو وحده وأبوه يحبه . والمؤلف يرجح عدم موت راحيل ويأخذ النص على ظاهره بدون تقديم وتأخير .

وظاهر هذا : أن أمه الآن حية ، وأنه خاف على وجع قلبها وقلبه لفقده وكذلك ذكر فيها : أن إخوة يوسف قالوا له حين سألهم عن عددهم : « إن لنا أباً شيخاً ، وله ابن صغير ، وهو ابن كبره ، ومات أخوه ، وهو واحد — لا غير — لأمه وأبيه ، وأبوه يحبه[1] » .

وهذا قاطع فى أن أم بنيامين حية إلى الآن — وهى أم يوسف — وهذا تهافت فى التوراة كما تراه . فمن احتج بالنص الأول على موتها قبل هذا الحال احتججنا عليه بهذا القاطع أنها باقية إلى هذا الحال . ويؤكده قول يعقوب ليوسف حين قال : « إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين[2] » فزجره يعقوب وقال له : « ما هذه الرؤيا التى رأيت ؟ أجىء أنا وأمك وإخوتك فنسجد لك على الأرض[3] » .

فنقول : إن كانت أم يوسف التى ولدته حية الآن فهو يناقض ما فى التوراة من أنها ماتت قبل ذلك ودفنت ببيت لحم . وإذا وقع التناقض فيها سقط الاحتجاج ، وليس للخصم مستند فى ذلك غيرها ، وإن كانت قد ماتت فقد سمى يعقوب ليوسف بعد أمه أماً ، وتلك هى التى سجدت له مع يعقوب عند تأويل الرؤيا ، سواء كانت هى والدته ، أحياها الله حينئذ تصديقاً لرؤياه ، كما قال الحسن البصرى ، أو كانت خالته وسميت أماً مجازاً ، كما قال بعض المفسرين .

وكما فى الإنجيل : أنهم كانوا يسمون مريم ويوسف : أبوى المسيح ،

---

(١) تكوين ٤٤ : ٢٠ والنص غير صريح فى موت أم يوسف حسب الترجمة .
(٢) يوسف : ٤
(٣) التكوين ٣٧ : ١٠

فى غير موضع ، قالت له مريم لما تخلف عنها فى أورشليم : « يا بنى لم تخلفت عنا وتركتنى وأباك نطوف عليك (١) » ؟ فكما سمى يوسف أبا المسيح لكونه زوج أمه مجازاً ، فكذا سميت زوجة يعقوب أماً ليوسف مجازاً ، خصوصاً ، وكانت زوجة أبيه أخت أمه نسباً وهى « ليئة » بنت « لابان » (٢) فعرف المجاز وزال الإشكال . والله أعلم بالصواب .

الثالث : أن المراد بأبويه : أبوه وخالته ، والعرب تسمى الخالة أماً ، والعم أباً كما روى أبو إسحاق عن البراء عن النبى ﷺ قال : « الخالة الأم » (٣) رواه الترمذى ، وقال حديث صحيح . وعن ابن عمر : أن رجلا قال : يارسول الله إنى أصبت ذنباً عظيما ، فهل لى من توبة ؟ قال : « هل لك من أم ؟ » قال : لا . قال : « هل لك من خالة ؟ » قال : نعم . قال : فبرها » أخرجه الترمذى أيضاً .

وقال الله تعالى حكاية عن بنى يعقوب أنهم قالوا له : « نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً » (٤) فسموا إسماعيل أباه ، وإنما هو عمه ، وتكملة هذا الوجه قد سبق فى الذى قبله .

---

(١) « وقالت له أمه : يا بنى لماذا فعلت بنا هكذا ؟ هو ذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين » (لوقا ٢ : ٤٨) .

(٢) نص التوراة : « وكان بنو يعقوب إثنى عشر : بنو ليئة : رأوبين بكر يعقوب وشمعون ولاوى ويهوذا ويسا كروزبولون . وإبنا راحيل : يوسف وبنيامين وإبنا بلهة جارية راحيل : دان ونفتالى . وإبنا زلفة جارية ليئة : جاد وأشير » تكوين ٣٥ : ٢٢ — ٢٦)

(٣) قال النبى ﷺ : « وأما الجارية فأقضى بها لجعفر تكون مع خالتها . وإنما الخالة أم » القرطبى فى آية « والوالدات يرضعن » البقرة ٢٣٣ .

(٤) البقرة ١٣٣ .

الرابع : ماذكره الحسن وهو أن الله ـ سبحانه ـ أحيا راحيل أم يوسف حتى سجدت له تحقيقاً لرؤياه (١) .

وقول القائل : « إن هذا ونحوه لم يذكر فى التوراة » : جهالة ، وضيق عطن فى العلم ، فإن التوراة التى عندكم ـ إن صح أنها التى جاء بها موسى ـ فهو حرف يسير من علم الله ، وتضمنت يسيراً مما جرى للقوم ، وقد جرى لهم جزئيات وتفاصيل لم تذكر ، فلعل هذا منها . والله ـ سبحانه ـ يفضل من شاء على من شاء فى العلم والجسم والمال والعقل وغير ذلك . فما المانع أن يكون الله ـ سبحانه ـ اختص محمداً من العلم بما لم يخصكم كما خصه بإذلالكم وإرغام أنوفكم ، بأخذ الجزية منكم ، نحو ثمان مائة سنة .

والجواب عن الثانى ـ وهو سجودهم له ـ من وجوه :—

أحدها : هذا نفسه ؛ وهو أن فى القرآن زيادة علم لم تبلغكم ، تخصيصاً من الله لغيركم عليكم .

الثانى : إن السجود المذكور فى القرآن ليس المراد به وضع الجباه على الأرض بل هو الإيماء بالرءوس ، والإنحناء على جهة التعظيم ، وكانت تلك تحية الملوك عندهم ، فلعله لخفاء صورته وعدم ظهور تأثيره فى هيئة الإنسان الإمضائية لم يذكر فى التوراة اعتباراً بصورته ، وذكر فى القرآن اعتباراً بمعناه ، وهو التعظيم .

على أنه قد صرح فى التوراة بأن إخوة يوسف لما عرفهم وهم له منكرون « خروا له سجداً »(٢) .

---

(١) قول ما عليه دليل .

(٢) « فأتى إخوة يوسف وسجدوا له بوجوههم إلى الأرض » تكوين ٤٢ :٦ .

ثم لما عادوا المرة الثانية « خروا له سجداً »[1] وأن يوسف لما جاء بابنيه « منشا » و « أفرايم » إلى يعقوب ليتبرك عليهما ، سجدا له [2] .

وأن « إبراهيم » لما اشترى مغارة « عفرون » ليجعلها مقبرة لسارة ، فقالوا له : قد وهبناها لك ، خر لهم ساجداً[3] على جهة الشكر حيث يأسروه ولم يماشروه . وسألهم أن يأخذوا منه ثمنها . فقدكان السجود عندهم سهلا متعارفاً فى هذه المواطن اليسيرة الخطب ، وهو من ملة أبيهم .

وفى التوراة : أن يعقوب لما التقى بأخيه العيص سجد له على الأرض سبع مرات [4] فما ظنك بحال الدخول على يوسف من قوم متشوقين إليه ، وخجلين منه بعد سنين متطاولة ، فإن العقول تجزم بأن هذا المقام أولى بالسجود من كل مقام ، خصوصاً لشخص قد أحياهم الله به ، وقد غمرهم بإحسانه بعد أن بالغوا فى الإساءة إليه .

ففى السجود له فوائد .

(أولها) إقامة رسم الملك بفعل تحيته (والثانية) التوصل إلى إزالة ما فى نفسه (والثالثة) إظهار المحبة ليوسف لطاعته له ليرضى عنهم يعقوب ،

---

(١) فلما جاء يوسف إلى البيت أحضروا إليه الهدية التى فى أياديهم إلى البيت وسجدوا له إلى الأرض » تكوين ٤٣ : ٢٦

(٢) « وسجد أمام وجهه إلى الأرض » تكوين ٤٨ : ١٢

(٣) « فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبنى حث » تكوين ٢٣ : ٧

(٤) « وسجد إلى الأرض سبع مرات ، حتى اقترب إلى أخيه » تكوين ٣٣ : ٣ .

وتطييب قلبه بتصافيهم (الرابعة) مكافأته على بعض إحسانه (الخامسة) تصحيح رؤياه ، فإن رؤيا الأنبياء وحى .

الثالث : أنه ذكر في التوراة أن يوسف لما قص رؤياه على يعقوب ، زجره لما قصها . وقال له : « ما هذه الرؤيا التى رأيت ؟ أجىء أنا وأمك وإخوتك فنسجد لك على الأرض[1] ؟ » وكأن يعقوب قد وعى معنى الرؤيا.

قلت : وإنما أراد أن يصد عنه كيد إخوته له ، باستبعاده ذلك وإنكاره .

قلت : فهذا يعقوب قد فهم أن تأويل رؤيا يوسف : سجود إخوته وأبويه له .

وقد ثبت أن الرؤيا صحت ، فكذا تأويلها ، خصوصاً والرؤيا رؤيا نبى ، والتأويل تأويل نبى ورؤيا الأنبياء وحى ، وتأويلهم إلهام .

وأيضاً : فإن فى التوراة أن يوسف رأى رؤيا أخرى وهى أنه رأى أنه وإخوته جمعوا حزماً فى المزرعة ، وقد قامت حزمته ، وجاءت حزم إخوته فسجدت لها . وهذا يدل على سجودهم له ، لما التقوا ، لأن الرؤيتين دلتا على حلم واحد ، وهو السجود[2] .

الرابع : أنه يجوز حمل ما فى القرآن على أن قوله « ورفع أبويه على العرش » جملة . وقوله « وخروا » جملة تختص ضميرها بإخوة يوسف ، لم يتناول أبويه ، فيكون ذلك موافقاً لرؤيا الحزم ، فإنها إنما تضمنت ما يدل على سجود الإخوة

---

(١) التكوين ٣٧ : ١٠

(٢) « فقال لهم : اسمعوا هذا الحلم الذى حلمت . فها نحن حازمون حزماً فى الحقل ، وإذا حزمتى قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتى » تكوين ٣٧ - ٦ - ٧

فقط دون أبويه ، ويصير هذا قريباً جداً [1] لأن إخوته سجدوا له قبل ذلك مرتين بنص التوراة ، وهذه تكون ثالثة ووقتها أولى بالسجود من غيره — على ما سبق —

وإنما ترك ذكره فى التوراة اكتفاء عنه بالمرتين الأولين وتبيينها عليه بطريق أولى .

قلت : وفى ورود القرآن برؤيا النجوم دون رؤيا الحزم أقوى دليل على صدق محمد — عليه السلام — وأن القرآن وحى من الله ، وأنه إنما أخبر بما أوحى إليه ، وإلا فلو كان ينقل ذلك من كتب الأولين لتتبعها ولظفر برؤيا الحزم ، ولذكرها خشية أن يطعن عليه بالنقص والزيادة فاعلم ذلك .

• •

قال : « ومن ذلك فى سورة القصص بعد ذكر موسى « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان » إلى قوله « إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج » [2]
قال : الكذب فى هذه القصة فى مواضع :

أحدها : قوله « وجد على الماء قوماً يسقون . ولم يكن كذلك ، بل القوم طرأوا على بنات شعيب ، وقد ملأن الحياض ليسقين غنم أبيهن ، فأخرجوهن فقام موسى لحماهن وسقى غنمهن — كما سيأتى فى لفظ التوراة .

الثانى : أن النساء كن سبعاً لا اثنتين .

---

(١) لا يكون هذا قريبا جداً ، لأن القرآن نص على سجود الشمس والقمر وإخوته . لا على إخوته فقط .
(٢) القصص ٢٣ - ٢٧ .

الثالث : أن عرض شعيب ابنته على موسى واستئجاره على نكاحها ثماني سنين لم يكن منه شيء ، إنما هذا كان فى زواج يعقوب براحيل بنت خاله لابان، وإنما اختلطت لهذا الإنسان القصة ، أو خلطت له بقصة زواج يعقوب النبي » ثم ذكر ما فى التوراة من قصة موسى فى ذلك . وهو أن قال فيها بعد ذكر قتل موسى للقبطى : « فسمع فرعون هذا الخبر ، كان يطالب قتل موسى . فهرب من حضرته ، وأقام بأرض مدين ، وجلس جوار البئر .

وكان لإمام مدين سبع بنات . كن أقبلن لاستقاء الماء فملأن الحياض ، راجين سقى غنم « يثرو » أبيهن ، فأقبل الرعاة عليهن وأخرجوهن فقام موسى وحمى الجوارى وسقى نعاجهن ، فلما انصرفن إلى يثرو[1] أبيهن ، قال لهن : لم جئتن أسرع من المعتاد ؟ فأجبن : رجل مصرى ، أنجانا من الرعاة ، وبزيادة استقى الماء وسقى النعاج . فقال : أين هو ؟ لم خلفتن الإنسان ؟ أدعونه ليأكل خبزاً فحالف موسى أن يسكن معه ، وأخذ صافورا بنته زوجة » .

قال : « هذا نص التوراة . أن الجوارى كن سبعاً ، لا اثنتين ، وأن والدهن كان اسمه يثرو ، لا شعيب ، ولا ذكر لاستئجاره ثمانى حجج .

---

(١) فى التوراة كلمة « رعوئيل » بدل « يثرو » فى هذا الموضع . والنص فى الأصحاح الثانى من سفر الخروج هكذا : « فسمع فرعون هذا الأمر ، فطلب أن يقتل موسى . فهرب موسى من وجه فرعون وسكن فى أرض مديان وجلس عند البئر . وكان لكاهن مديان سبع بنات . فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن . فأتى الرعاة وطردوهن . فنهض موسى وأنجدهن وسقى غنمهن . فلما أتين إلى رعوئيل أبيهن قال ما بالكن أسرعتن فى المجيء اليوم . فقلن رجل مصرى أنقذنا من أيدى الرعاة وأنه استقى لنا أيضاً وسقى الغنم . فقال لبناته وأين هو لماذا تركتن الرجل . ادعونه ليأكل طعاماً . فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل . فأعطى موسى صفورة ابنته » (خر ٢ : ١٥ - ٢٢)

ثم ذكر قصة زواج يعقوب من التوراة إلى آخرها .

ثم قال : « فتأمل ياقارىء اختلاط القصتين بالأخرى » .

قلت : والجواب عن هذا السؤال من وجوه :

أحدهما : الجواب العام بالقدح فى التوراة وعدم الوثوق بها، كما تقرر فى المقدمة ، وقد وجـــدنا فيها من التناقض والاختلاف مابعضه يقدح فى الاحتجاج بها .

ولذلك سببان ظاهران :

أحدهما : أن اليهود حرفوا منها اسم محمد ـ عليه السلام ـ ودلائل نبوته لئلا يكون عليهم حجة له من كتابهم ، وحرفوا مع ذلك أشياء مما جاء به محمد عن وضعه الذى فى التوراة ليصير ذلك شبهة لهم فى تكذيبه ، ويقولون : مانصنع به ؟ لو وافق ما عندنا أو ذكر فيه ، آمنا به .

السبب الثانى :

أن التوراة تقادم عهدها وحرفت فى زمن « بختنصر » وتعاورتها التغيرات والتنقلات من العبرانى إلى السريانى إلى القبطى إلى العربى لفظاً وخطاً .

وبعيد من مثل هذه التغيرات أن لا تخل بالمعانى . ولذلك صارت التوراة التى بيد النصارى تخالف التى بيد اليهود ، والتى بيد اليهود يخالف بعضها بعضا(١)

---

(١) التى بيد النصارى اسمها : التوراة اليونانية ، والتى فى يد اليهود اسمها : العبرانية . ولليهود السامريين توراة .

كما أن أناجيل النصارى يخالف بعضها بعضاً ، كما قد بينته فى التعليق عليها ، لأن أهل الكتاب معتمدهم على الخط ، لا على الحفظ ، وعلى الرواية بالمعنى لا باللفظ .

الثانى : أن علماء المسلمين ذكروا قصة موسى ، على وفق ما هى فى القرآن. وكان لهم اجتماع بأهل الكتاب واطلاع على علمهم ، وأسلم جماعة من أهل الكتاب ووافقوهم على ذلك كعبد الله بن سلام من اليهود ، والعاقب والسيد رئيسى نجران من النصارى والنجاشى صاحب الحبشة فى ناس كثير ، فدل على أن ما فى القرآن موافق لما فى الكتب القديمة ، ولكن هذا الذى تدعونه تحريف حدث .

فإن قيل : إنما كان إسلام بعض أهل الكتاب وعدم إنكارهم ما جاء به القرآن من الوهم مخافة من سيف الإســـــلام ، فإنه كان مشهوداً منصوراً ، لا يقوم له أحد .

قلنا : هذا مما لا يفيدكم ، فإن مصنف هذا الكتاب قد أبرز فيه كل ما عنده من الطعن فى دين الإسلام مع المخافة وظهور الإسلام ، ولم يمنعه ذلك ، فلو أمكن الأوائل من أهل الكتاب قدح لفعلوا ، ولو فى حقبتهم لاشتهر فى ذلك العصر ثم نقل إلينا . كيف والمسيح ﷺ يقول : « ما من خفى إلا سيظهر ، ولا مكتوم إلا سيعلن » (١)

---

(١) النص فى الإصحاح العاشر من متى هكذا : « ليس مكتوم لن يستعلن ولا خفى لن يعرف » متى ١٠ : ٢٦ .
وفى مرقس : « ليس شىء خفى لا يظهر ، ولا صار مكتوماً إلا ليعلن » مر ٤ : ٢٢ .
وفى لوقا : « ليس مكتوم لن يستعلن ، ولا خفى لن يعرف » لو ١٢ : ٢

وهو قول معصوم لا ينخرم، وأيضاً فإن من الممتنع عادة أن أحداً لا ينتقل من دين إلى دين إلا بعد انشراحه لما انتقل إليه وانقباضه عما كان عليه، وإن من ينشرح صدره لدين يحتمل الذل والصغار والقتل، ولا ينتقل عنه كاليهود والنصارى فى بلاد المسلمين، والمسلمين فى بلاد النصارى. فمن المحال عادة أن جماعات من أحبار اليهود والنصارى ورؤسائهم ورعاعهم يتركون دينهم فى عصر النبوة إليه إلا بعد علمهم بصحة ما جاء به. ولا حجة على من يقدح فى الإسلام من أهل الدينين. وهذا «ابن جزلة» صاحب «منهاج البيان» فى الطب كان نصرانياً وأسلم وصنف كتابا سماه «إفحام النصارى» ولما مات وقف كتبه على تربة الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت ببغداد. وكثيرون مثله يسلمون ويحسن إسلامهم وبعد ذلك يطعنون فيما كانوا عليه من اليهودية أو النصرانية، ولم ير أحد مسلماً خرج عن الإسلام لحمد ما انتقل إليه.

فإن قيل: لأن المسلمين لا يتركونه بل يقتلونه فلا يتسع له زمن النظر والترجيح بين ما انتقل عنه وإليه، ثم انحسمت مادة الردة فى الإسلام خوف القتل[1].

---

(١) الذى جاء فى القرآن عن هذه الجريمة هو قوله تعالى «ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» (البقرة ٢١٧) والآية - كما ترى - لا تتضمن أكثر من حكم بحبوط العمل والجزاء الأخروى بالخلود فى النار. ويقول الإمام الشيخ محمود شلتوت «وقد يتغير وجه النظر فى هذه المسألة إذا لوحظ أن كثيراً من العلماء يرى أن الحدود لا تثبت بحديث الآحاد، وأن الكفر بنفسه ليس مبيحاً للدم وإنما المبيح للدم هو محاربة المسلمين والعدوان عليهم ومحاولة فتنتهم عن دينهم وأن ظواهر القرآن الكريم فى كثير من الآيات تأبى الإكراه على الدين. فقال تعالى: «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» (البقرة ٢٥٦). أنظر الاسلام عقيدة وشريعة صفحة ٢٨١ =

قلنـا : لا شك أن مصلحة الدين ومنفعته عظيمة وهى النجاة الأبدية ، وأعظم مصلحته توجب قوة الداعى المحول إليه وذلك يوجب انفتاح أبواب الوسائل الموصلة إلى المقصود منه . وهـذه بلاد النصرانية ملاصقة لبلاد الإسلام والسبل إليها آمنة مسلوكة ، وفى المسلمين ناس كثيرون وقفوا على حقيقةدين المسلمين والنصارى وهم عقلاء ألباء ، فلو صح لهم ماذكرتم من القدح فى دين الإسلام لتوصلوا إلى أرض النصرانية واعتصموا بها وجعلوها هجرة دينية . والله أعلم .

ثم لو لم يكن فى هـذا الجواب إلا معارضة ما نقله المسلمون لمـا نقلتموه ، لأوقف دعواكم فى صناعة النظر حتى يبدو مرجحاً لما قلتموه أو دليلا آخـر .

الثالث : أن ما حكاه هـذا المصنف من القصة فى التوراة ، لا ينافى ما فى القرآن ، بل فى القرآن زيادة بيان ومناسبة للقصة . فرد تلك الزيادة لكونها لم تذكر فى التوراة جهالة ، لأنه إبطال للوجود المحض بالعدم المحض ، وذلك عناد أو قصر باع فى العلم لمـا بيناه فى الوجه الرابع من الجواب عن قوله : « ورفع أبويه على العرش » فى السؤال قبل هذا .

وبيان عدم المنافاة . أما قوله « إن موسى لمـا ورد ماء مدين لم يجد القوم

= دار الشروق بمصر . لكن إذا سرق مسلم مثلا وحكم عليه القاضى بقطع اليد ، فقال : أنا كافر ، ليتخلص من قطع اليد ، فى هذه الحالة يقتل . أى أن المرتد لا يقتـل إلا إذا أحـدث فى الاسلام حـــدثاً . وذلك هو الصحيح لأن القرآن يحرم قتـل الـكافر إذا كان مسالماً ، ولم يصـد عن الدعوة إلى الاسلام .

يسقون بل طرأوا بعد ذلك ، فهذه مناقشة باردة ممن لا يعلم مواقع الكلام ، خصوصاً لغة العرب واتساعها بل ولا حقائق المعقولات فإن (لما) فى لغة العرب أداة زمانية — أى تدل على الوقت والزمان — فإذا قلت : قام زيد لما قام عمرو ، معناه : قام زيد وقت أو زمان قيام عمرو ، فقوله « لما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة » أى وقت ، أو زمن وروده ماء مدين « وجد عليه أمة » ولا شك أن الزمان والمكان يكونان حقيقة ومجازاً ، فحقيقة المكان : هو الموضع الذى يستقر فيه الجسم ويحيط به فقط دون ما حوله ، كدائرة الكرسى مثلا لمن جلس عليه ، ومجاز المكان : ما قارب مستقر الجسم وما أحاط به من مكانه الحقيقى ، كالبيت أو الدار بالنسبة إلى الكرسى الذى جلس عليه ، وحقيقة زمان الفعل : الجزء الذى يحدث فيه الفعل فقط ، لا يتناول شيئاً مما قبله ولا بعده ، كالجزء الذى كان فيه ورود موسى . ومجازه : هو ماقارب ذلك الجزء بساعة أو ساعتين أو أقل أو أكثر بحسب قرب المجاز وبعده وعظم الحقيقة وصغرها .

وإذا ثبت هذا التقرير بأن : أن لا منافاة بين قوله فى القرآن : « لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة » وبين قوله فى التوراة : « فأقبل الرعاة عليهن وأخرجوهن » لجواز أن يكون إقبال الرعاة ، ووجدان موسى لهم جميعاً فى زمن وروده المجازى ، الذى هو بعيد زمن وروده الحقيقى .

وكذلك قوله : « ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال : ماخطبكما ؟ قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما » مع قوله فى التوراة : « فقام موسى ، وحمى الجوارى ، وسقى نعاجهن » لا تنافى بين الأمرين لجواز أنهما لما أخرجهما الرعاة عن الماء وقفتا تذودان غنمهما — أى تحفظانها من الشرود — فجاء موسى « فقال : ما خطبكما ؟ » فأخبرتاه ، فحماهما وسقى لهما .

وأما قوله « كن سبعاً لا اثنتين » فمن الجائز أن السبع حضرن لكن الذى

فود الغنم منهن اثنتان ، والأخر يملأن الحياض ، أو ينظرن فى مصلحة أخرى الغنم . فوقع الخطاب فى القرآن على الذائدتين دون البواقى لأنهن حينئذ أخص بالغنم والبواقى كالأجنبيات منها ، لا يُعلم فى الحال تعلقهن بأمرها .

وأما قوله « لا ذكر لندب شعيب موسى إلى زواج ابنته ، ولا لاستئجاره ثمانى حجج » فلا ينافى ما فى القرآن من ذلك ، لأن هذا مجمل وما فى القرآن مفصل ، ولا تنافى بين المجمل والمفصل . على أن فى قوله فى التوراة : « أن يثرو قال لبناته : ادعونه يأكل خبزاً ، فخاف موسى أن يسكن معه وأخذ سافورة بلته زوجة » معنى مافصله القرآن ، إذ معناه : أن يثرو عزم على موسى وأقسم عليه أن يسكن معه . وهذا قريب فى العرف من قوله « إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين » فإن الناس جرت عادتهم أنه إذا ورد عليهم غريب ، فظهرت منه النجابة والخير والخصال الحميدة والأفعال النافعة تمسكوا به وحسنوا له المقام عندهم ، وعرضوا عليه المسكن والسكن ليرتبط بذلك عليهم فينتفعون به وينتفع بهم . وقد كان « يثرو » أحق الناس بمثل هذا لكبره ، وكون بناته حرمات ضعفن عن القيام بأمر الغنم ، وقد كان الرعاة يستضعفونهن .

وأما قوله « كان اسم أبيهن يثرو (شعيب) فقد سبق جواب مثله عند قوله « كان اسم أبى مريم أم المسيح يعقيم ، لا عمران » وذلك أن الأسماء ألفاظ تختلف باختلاف اللغات ، ومنع اتفاق المسميات لا يضر اختلاف الأسماء . ويدل على هذا ما ذكره « ويثمة بن موسى بن الفرات » فى كتاب « قصص الأنبياء » عن محمد بن إسحق قال : حدثنى عبد الله بن زياد بن سمعان عن بعض من قرأ الكتب أن أهل التوراة يزعمون أن شعيباً نسبه فى التوراة ابن ميكاييل ابن يشجر وبالسريانية يبروت بن جزى بن يشجر ، وبالعربية شعيب بن جزى ابن يشجر بن لاوى بن يعقوب » .

قال : « وحدثنى الشرقى بن القطامى ـ وكان عالماً بالأنساب ـ قال :

هو يثرون بالعبرانية ، وشعيب بالعربية بن عيفاء بن ثابت بن مدين ابن إبراهيم[1] » .

فتبين بما ذكرناه أن هذا نزاع لفظى لا يقدح فى حقائق المعانى ، وأما ما ذكر من أن الاستئجار إنما كان فى قصة زواج يعقوب لا موسى .

فجوابه : إن احتجاجك فى هذا إنما هو بسكوت التوراة عن ذكره فى قصة موسى على ما قد ثبت فيها من التحريف والتبديل والزيادة والنقص والتفاوت فى النسخ بالنسبة إلى ما بأيديكم وأيدى اليهود وإلى ما فى أيدى طوائف اليهود ، وذلك استدلال بالسكوت الصرف والعدم المحض ، والقرآن جاء بزيادة بيان فليس قدح التوراة فى القرآن لمجيئه بالزيادة أولى من قدح القرآن فى التوراة لمجيئها بالنقص ، فما المرجح لأحد القدحين على الآخر ؟ على أن ما فى القرآن أولى بالاعتبار لأنه أنسب بسياق القضية لمن تدبره ، ولأنه أقرب عهداً بالظهور من التوراة ، وأبعد عن التحريف والنقل من لغة إلى لغة ، ومن ترجمة إلى ترجمة ، والمسلمون أشد عناية بحفظه من أهل الكتابين بحفظهما .

ثم نقول : ما المانع من أن تكون قصة يعقوب وموسى فى زواجهما

(١) راجعنا الأسماء على ما نقله القرطبى فى تفسيره فى سورة الأعراف . والذى فى التوراة أن « رعوئيل » هو أب المرأتين . وكاتب التوراة ذكر أيضاً أن اسمه « يثرون » والنص الأول هكذا : « وكان لكاهن مديان سبع بنات . . . فلما أتين إلى رعوئيل أبيهن . . . إلخ » وقد سبق ذكره ، والثانى هكذا : « وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان » (خروج ٣ : ١) وهذا يدل على سهو الكاتب وغفلته فى سرد الحوادث . وعلى هذا لا يصح لهم تخطئة القرآن لأنه يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون .

اتفقتا على صفة واحدة ، كما اتفق لإبراهيم وإسحق ، فى أن كل واحد منهما لما دخل أرض « أبيمالك » ملك فلسطين ادعى أن زوجته أخته لجمالها ، خشية أن يغلب عليها . وقد صرحت بذلك التوراة . لكن اتفق أنها شرحت قصة يعقوب بأبسط مما شرحت قصة موسى .

ثم بعد هذا كله نقول لهذا النصرانى : الخلاف والتناقض الذى أوردته علينا بتقدير ثبوته هو فى كتابين المتين ، وهما التوراة والقرآن ، ولا شك أن فى إنجيل لوقا فى الفصل الثانى والثلاثين (١) أن يوحنا قال للمسيح : « يا معلم رأينا إنساناً يخرج الشياطين باسمك فمنعناه لأنه لم يتبعنا . فقال : لا تمنعوه لأن كل من ليس عليكم فهو معكم » .

وفى إنجيل مرقس هذه الحكاية بعينها ، وأن المسيح قال فيها « كل من ليس معنا فهو علينا » (٢) وهذا تناقض بيّن .

وبيانه : أن كل واحد من الناس إما أن يكون معك أو عليك ، أو لا معك ولا عليك فالطرفان حكمهما معلوم . أما الواسطة وهى الذى لا لك ولا عليك

---

(١) الكلام عن قول إبراهيم : إن امرأته أخته فى الإصحاح الثانى عشر من سفر التكوين . وعن قول إسحق فى الإصحاح السادس والعشرين من سفر التكوين

(٢) فى ترجمة البروتستانت : الإصحاح التاسع .

(٣) لوقا ٩ : ٤٩ — ٥٠ .

(٤) عبارة مرقس فى الاصحاح التاسع الآية الأربعين ونصها :
« لأن من ليس علينا فهو معنا » وعلى هذا النص لا تناقض . وإذا أردت معرفة أكثر من مائة مثال على التناقض فى الأناجيل فاقرأ كتاب إظهار الحق لرحمت الله الهندى .

فإنها على لفظ لوقا تكون لك . لأنها ليست عليك ، وعلى لفظ مرقس تكون عليك لأنها ليست لك ، فهذا تناقض فى إنجيلكم ، وهو كتاب ملة واحدة ، بعضه حجة على بعض ، والقدح فى بعضه قدح فى كله ، فما كان جوابك عن هذا التناقض الذى فى الإنجيل ، فهو جوابنا عن التناقض الذى بين التوراة والقرآن . ونكون قد سامحناك فى هذا لأن ما أوردناه عليك من تناقض كتابك وارد عليك ولازم لك ، وما أوردته أنت علينا من تناقض التوراة والقرآن ليس لازماً لنا ، لأنا نحن نقول : القرآن حق وصدق ، والتوراة التى احتججت علينا بها — لا أقول التى أوتيها موسى — كذب وزور ومحال وافتراء على الله ورسله . وأنت لا يمكنك أن تقول : إن إنجيل لوقا حق وصدق ، وإنجيل مرقس كذب وزور ، أو بالعكس ، لأن أناجيلكم الأربعة هى كتاب واحد . وإنما اختلفت بالزيادة والنقص والرواية بالمعنى ، وما فيها من الاختلاف والتناقض .

فإن قلت : إن الذى أوردته على من تناقض إنجيل لوقا وإنجيل مرقس ليس تناقضاً فى الأصل ، بل هو من قلم الناسخ فهو خطأ فى صورة الخط ، لا فى حقيقة النبوة .

قلت : هذا نفسه جوابنا عما أوردته من تناقض التوراة والقرآن فى قصة موسى ، وهو أن نضيف الخطأ إلى قلم الناسخ وصورة الخط فى التوراة وهى أولى بذلك من القرآن لتقادم عهدها وتغير التراجم واللغات فيها ، بل وأولى من الإنجيل لأنها قبله .

فإن قلت : أنا ما أوردت تناقضاً بين التوراة والقرآن ، بل كذبت القرآن بالتوراة .

قلت : هذا هو معنى التناقض . ثم جوابك ما سبق من أنه ليس تكذيبه

القرآن بالتوراة أولى من تكذيب التوراة بالقرآن ، بل هذا أولى لما بيناه غير مرة ، والله أعلم : هذا تفصيل جوابه على ماذكر هو فى كتابه . أما ماذأيناه فى التوراة مما يدل على وفاق القرآن نذكر إن طولنا منه إن شاء الله تعالى .

قال : « وفى سورة النساء بعد ذكر اليهود : « وقولهم : إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وماقتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم »(١) وذكر كلاما لابن عطية فى تفسير قوله « شبه لهم » وأن شبه المسيح ألقى على صاحب له يقال له : جرجس باختياره على أن يكون رفيق المسيح فى الجنة .

قال : « ويتمسك المسلمون بهذا فى القطع على أن المسيح ماصلب . وذلك باطل بالتواتر عند الأمتين : اليهود والنصارى . ومؤرخى المجوس على صلب المسيح ، وبعض الكتب المقدسة » .

وذكر كلام أشعياء ودانيال ، وما فى إنجيل متى مما يدل على ذلك وأن المسيح صلب ومات وقبر وقام حيا فى اليوم الثالث وظهر لتلاميذه مراراً كثيرة .

ولما تكلم « السهروردى » فى كتاب « التنقيحات » فى التواتر وشروطه فى أصول الفقه تعرضت له قصة الصلب فقال : « لو لم يصلب عيسى لم يبق على المحسوسات اعتماد » .

قلت : هذا حاصل ماأورده على هذا السؤال . والجواب :

أما الآية الكريمة المخبرة بنفى قتل المسيح وصلبه فنعتقد أنها حق وصدق ونتمسك بها على القطع بذلك لأنها عندنا صادر عن الحكمة والعلم الإلهيين بواسطة العصمة النبوية وهى منقولة إلينا بالتواتر .

---

(١) النساء ١٥٧ .

وأما ماحكاه عن «ابن عطية» فى تفسير قوله «شبه لهم» فذلك مما لم يختص بنقله «ابن عطية» بل ذكره جميع مفسرى القرآن قديمهم وحديثهم على اختلاف بينهم فى ذلك. فقال ابن سمعان ومحمد بن إسحق: «إن الذى ألقى عليه شبه عيسى هو رجل من أصحابه يقال له جرجيس» وقال وهب بن منبه: «هو يهوذا الذى أسلمه، ودل عليه، وهو الذى اسمه فى الإنجيل يهوذا الإسخريوطى».

قلت: وهذا أشبه. لأن عادة الله — سبحانه — جرت فى أنبيائه أن يرد كيد من عاداهم عليهم، كنوح أنكره قومه فنجا وغرقوا. وإبراهيم إذ ألقى فى النار فكانت عليه بردا وسلاما.

وموسى إذ عاد مكر فرعون عليه فأغرقه (فرعون) وقارون إذ قذف موسى بالزنا ليقتله، أو يغض منه فخسف به. وعيسى مكر به يهوذا فعاد مكره عليه. ومحمد — ﷺ — إذ قال الله — سبحانه — له: «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين»(1) وقال الله — سبحانه —: «ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله»(2) وقال فى قوم صالح حين أرادوا تبييته: «ومكروا مكراً، ومكرنا مكراً، وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين»(3).

وأما قوله: «إن ذلك باطل بالتواتر عند الأمتين اليهود والنصارى ومؤرخى المجوس».

جوابه: أن المدعى تواتره عند اليهود والنصارى: ما هو: صلب إنسان مطلق؟ أو صلب إنسان مقيد بأنه المسيح؟ الأول مسلم، ونحن أيضاً نوافق

---

(1) الأنفال ٣٠ (2) فاطر ٤٣
(3) النمل ٥٠ — ٥١

عليه ، وهو جرجيس[١]، أو هو ذاك ماسبق عن ابن إسحق ووهب ، والثانى ممنوع ، وهو محل النزاع وسنبين مستند المنع فى آخر هذا الجواب .

وأما مؤرخوا المجوس فالجواب عن تأريخهم بذلك من وجوه : أحدها :

أنهم لم يكونوا حاضرى قصة المسيح ولا أحد منهم . فدار اعتقادهم صلبه على خبركم وخبر اليهود ولاحجة فيه لأن الأمر اشتبه على من حضر القصة بأن أظلمت الأرض ظلمة شديدة ،صرح بها الإنجيل[٢] وغيره ففى تلك الظلمة أطلقت الملائكة المسيح وربطت الذى ألقى عليه شبهة مكانه ،فاعتقدتم أنتم :أن المسيح صلب . وقوى ذلك الاعتقاد فى نفوسكم : حنقكم على اليهود ، وحب تقرير العلم للعدوان عليهم ، واعتقدت ذلك اليهود كما اعتقدتموه ، وحملهم على ذلك الاعتقاد : حب الغلبة والظفر بمن اعتقدوه عدواً لهم ولو وفقوا لتابعوه . فعليهم وعليكم من الله ماتستحقونه .

---

(١) فى الأناجيل : يهوذا وقول المؤلف : أو هو ذاك ماسبق عن ابن إسحق ووهب يدل على اضطرابه هو فى الأسماء ، فإنه عند ابن اسحق جرجيس، وعند وهب يهوذا بحسب نقله . واعلم أن المؤلف يدعى رفع المسيح إلى السماء بجسده وروحه لكن الحق أن اليهود لما ائتمروا مع الرومان على القبض على المسيح ، فر المسيح من بين أيديهم إلى جهة يقال إنها بلاد كشمير ، وإنا أعتقد أنه توجه إلى مصر ، وبها عاش إلى أن جاءه الأجل ومات ودفن فى الأرض ، وارتفعت روحه كما ترتفع أرواح الشهداء (أنظر الفتاوى للشيخ شلتوت) وفى إنجيل برنابا أن شبه المسيح ألقى على يهوذا ، وصلب يهوذا لا المسيح عليه السلام . ولم يذهب المسيح إلى مصر صغيراً لأن الاناجيل أثبتت وجوده فى أورشليم ، يتعلم العلم فى هيكل سليمان وكان من النذيرين المتفرغين لطلب العلم والعبادة .

(٢) الظلمة التى صرح بها الاناجيل : كناية عن شدة الأمر (انظر ص ٢٧) .

الوجه الثانى : أنا أجمعنا وإياكم على ضلال المجوس ، وسخافة عقولهم حيث عبدوا النار التى يوجدها الحطب ، ويعدمها الماء والتراب ، وانقطاع مادة الوقود فعقول هذا شأنها كيف تكون حجة على العقلاء ؟ وإن كانوا عندكم عقلاء فاعبدوا النار معهم ، وإذا كنتم أنتم أصحاب الدعوى ، فندعى نحن : أن الأمر اشتبه عليكم والتبس ، فما الظن بقوم جهال أجانب من القضية معكم واليهود ترجعون بشبهة فقلدتكم فيه ، وتابعوكم عليه ، كما قلدوا آباءهم فى عبادة النار .

الوجه الثالث : أن المجوس أعداء المسلمين والنصارى واليهود مثلكم .

وشأن العدو أن يطلب لعدوه العثرات ، ويقبل منه الدعوى ، ولا شك أنهم تتبعوا عثراتكم وعثرات اليهود فوجدوها . أما عثراتكم فدعواكم التثليث والهية المسيح ، وغير ذلك من سخافاتكم . وأما عثرات اليهود فما كثر من أن تحصى على ما دلت عليه كتب الأنبياء المتقدمين والمتأخرين قتلهم الأنبياء بغير حق وتعديهم حدود الله ، وإبائهم من الانقياد له ولرسله وتكذيبهم المسيح وبهتهم عليه مع إظهاره المعجزات والبينات ، وقد شتم الله – سبحانه – سلط على أوائلهم فرعون فساموهم سوء العذاب ، خمس مائة[1] عام حتى استنقذهم الله بموسى ، ثم كان له معهم من التعب ما لا يخفى . وأما المسلمون فلم يجدوا لهم عثرة يقدحون بها فيهم ، فقووكم على صلب المسيح ليوهموا بذلك القدح فى القرآن كيداً للمسلمين ، ولو لم يكن إلا مجرد احتمال هذا القصد منهم ، كان ذلك تهمة لهم تقتضى عدم الالتفات إلى مقالهم[2] .

---

(١) خمس مائة عام تقريباً (أنظر التواريخ فى كتابنا يوحنا المعمدان بين الاسلام والنصرانية) .

(٢) فى الكتب التاريخية النصرانية : أن المسيح لم يقتل ولم يصلب ، وقد بينا ذلك فى غير هذا الكتاب .

وأما ماذكره من نص الكتب المقدسة . ككتاب إشعياء ودانيال ، وإنجيل متى . فجوابه من وجوه :

أحدها : الجواب العام من عدم الوثوق بهذه الكتب لتقادم عهدها ونقلها من لغة إلى لغة وتهمة اليهود والنصارى عليها خصوصاً الإنجيل . فإنا قد بينا في التعليق عليه ما يقيم عذرنا في عدم الوثوق به ، من الاختلاف والتناقض .

ونص كلام أشعياء : « لكن أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحملها . ونحن حسبناه مصابا مضروباً من الله ومذلولا . وهو مجروح لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا ، تأديب سلامنا عليه ، وبجبره شفينا ، كلنا كغنم ضللنا . ملنا كل واحد إلى طريقه ، والرب وضع عليه إثم جميعنا . ظلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه ، كشاة تساق إلى الذبح ، وكنعجة صامتة أمام جازيها ، فلم يفتح فاه . من الضغطة ومن الدينونة أخذ ، وفي جيله من كان يظن أنه قطع من أرض الأحياء . أنه ضرب من أجل ذنب شعبي ، وجعل مع الأشرار قبره ، ومع غني عند موته . على أنه لم يعمل ظلماً ، ولم يكن في فمه غش » .

وقوله : « ويساق إلى الذبح ، وكنعجة صامتة أمام جازيها ، فلم يفتح فاه » لا حجة فيه على وقوع القتل ، بل على القود إلى القتل . ونحن نقول به ، فإنهم قادوه ليقتلوه ، فخلصه الله بما ذكرناه ، وكم من قيد إلى القتل ثم نجا ، فلم يقع به القتل .

قلت : وفي كلام أشعياء هذا تصريح بالإخبار بقتله ودفنه . لكن عليه إشكالان :

أحدهما : أن في أول هذا الفصل بعينه ، وهو النبوة في المسيح : « إن عبدي

ليفهم ويرتفع ويتعظم ويتعالى جداً، حتى يتعجب منه كثير من الناس(١)، وساق صفاته إلى أن اتصل بذكر قتله ودفنه، فهذا تصريح بأن المسيح عبدالله، وأنتم تقولون: هو الله، أو ابن الله، كما صرح به الإنجيل. فإن قلتم بمجموع الأمرين أعني عبوديته وقتله، فقد خالفتم دينكم في القول بالعبودية. وإن ألغيتم الأمرين ولم تعتدوا بهما فقد سقط عنا إشكال الإخبار بالقتل. وإن قلتم بأحدهما دون الآخر وهو القتل كان ذلك ترجيحاً من غير مرجح، واحتجاجاً بكلام تقدحون في (بعضه) ثم نقابلكم بمثله، فنقول بالعبودية دون القتل.

فإن قيل: ذكر العبودية حق باعتبار ناسوت المسيح، وإلهيته حق باعتبار لاهوته.

قلنا: هذا هوس، وأنتم عند التحقيق عاجزون عن إثباته. وقد وجهت ذلك في التعليق على الإنجيل.

الإشكال الثاني: أن أشعياء قبل المسيح بخمس مائة عام أو نحوها، وهو يحكي ما جرى للمسيح بلفظ الماضي حيث قال: «أما هو فتذلل، ولم يفتح فاه، كشاة تساق إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها» ونحو ذلك من صيغ الماضي وحقه أن يذكر بصيغة المستقبل. وهذا يدل على اضطراب هذه الأخبار، وكونها مدخولة.

قلت: لكن عند الإنصاف، هذا الإشكال لا يتجه لأن إخبارات الله سبحانه كثيراً ما جاءت عن المستقبل بصيغة الماضي، وقد وقع مثله في القرآن

(١) النص في الأصحاح الثاني والخمسين من أشعياء: «هو ذا عبدي يعقل يتعالى ويرتقي ويتسامى جداً جداً» وبعده نص كلام أشعياء الذي ذكره المؤلف.

كثيراً . والمعول عليه فى الجواب مما تضمنته الكتب القديمة من قبل المسيح هو الوجه الأول ، وهو القدح فى صحتها ، ودعواهم بتواترها ممنوعة ، وإثباته عليهم شديد .

الوجه الثانى : أن هذا الخصم قدح فى قوله « ورفع أبويه على العرش » وفى قصة زواج موسى على أن يؤجر نفسه ثمانى حجج بأن ذلك لم يذكر فى التوراة فنحن أيضاً نقدح فى دعواه صلب المسيح وقتله بعين ذلك ، وهو أنه لم يذكر فى التوراة ، حيث جمع إسرائيل ، بنيه بمصر قبل موته ، وأخبرهم بما يكون لكل منهم فى مستقبله[1] .

فإنه أفاض على « روبيل » وقال له : « نجست فراشى » ـ يعنى كونه وطىء سرية أبيه ـ وقال : « لا يفقد الملك من سبط يهوذا . والنبوة والكهنوت من بين فخذيه ، حتى يأتى من هو له ، وإياه تنتظر الشعوب . الرابط فى الشجرة

(١) فى الأصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين : « ودعا يعقوب بنيه . وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام ، اجتمعوا واسمعوا يا بنى يعقوب . واصغوا إلى إسرائيل أبيكم . رأوبين أنت بكرى ، قوتى ، فضل الرفعة ، وفضل العز فائرا كالماء لا تتفضل . لأنك صعدت على مضجع أبيك . حينئذ دنسته . على فراشى صعد » .

ثم قال عن « يهوذا » : « يهوذا جرو أسد . من فريسة صعدت يا ابنى . جثا وربض كأسد وكلبوة . من ينهضه ؟ لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب . رابطاً بالكرمة جحشه ، وبالجفنة ابن أتانه . غسل بالخمر لباسه ، وبدم العنب ثوبه ، مسود العينين من الخمر ، ومبيض الأسنان من اللبن » .

جحشه. وفى القضيب ابن أتانه مسودة من الخز عيناه ، وأشد بياضاً من اللبن أسنانه » .

وهذه صفات[1] المسيح بلا شك ، ولم يذكر أنه يقتل ولا يصلب . فإن قيل : ثبت قتله بزيادة مقبولة من الأنبياء كما ذكر عن أشعياء ودانيال والإنجيل.

قلنا : ورفع أبوى يوسف على العرش وإيجاد موسى نفسه ثمانى سنين ثبت بزيادة مقبولة على لسان محمد فى القرآن . وهى زيادة مقبولة .

فإن قيل : لكن زيادة قبل المسيح يثبت على لسان من اتفقنا على نبوته وصدقه[2] ، وزيادة رفع أبوى يوسف ، وإيجاد موسى نفسه يثبت على لسان من اختصصتم باعتقاد نبوته ، وخالفناكم نحن فيها ، ولم نوافقكم عليها .

قلنا : هو كذلك لكن عدم موافقتكم على صدقه لا يقدح فى نبوته وصدقه لأنكم أنتم وافقتم اليهود على صدق موسى والتوراة، وخالفوكم فى صدق المسيح والإنجيل . ولم يكن ذلك قادحاً فى صدقهما ، باتفاق منا ومنكم .

فإن كان عدم وفاقكم لنا على صدق محمد قادحاً فيه ، لزمكم أن يكون عدم وفاق اليهود لكم على صدق المسيح قادحاً فيه ، والجواب مشترك .

---

(١) هذه ليست صفات المسيح ، فإن الملك لم يزل من اليهود على يديه ، والشريعة لم تنسخ على يديه ، هذه نبوءة عن محمد ﷺ وضحها كثيرون من العلماء . انظر على سبيل المثال إظهار الحق لرحمت الله الهندى .

(٢) اليهود السامريون ينكرون نبوة أشعياء وإرمياء ودانيال ، ويرفضون كتبهم .

وأما ماذكر عن «السهروردى» من قوله: «لو لم يصلب عيسى، لم يبق على المحسوسات[1] اعتماد» وهو من أكابر فلاسفة الإسلام. فليس صحيحاً عن السهروردى. وإنما حكى ذلك حكاية عن بعض من نازع فى بعض أحكام التواتر من نظر ذلك فى كتابه وجده، ولم يتفق لى حكاية لفظه.

وبتقدير صحته عنه. فالجواب عنه من وجوه: —

أحدها: أن هذا الرجل المذكور رجل غلبت عليه الفلسفة، ثم انسلخ منها إلى الزندقة، حتى قتل فى «حلب» بسيف الشرع، فليس قوله حجة على الله ورسوله، والقرآن وإجماع المسلمين.

وقوله: «كان من أكابر فلاسفة الإسلام» غلط. فإن الفلسفة التى كان يتعاناها هذا وأصحابه ليست من الإسلام فى شىء[2]. وكيف تكون من الإسلام وهى تقدح فيه، وتقوض مبانيه؟ وإنما الإسلام انقياد واستسلام لأحكام العزيز العلام، وسنة محمد عليه السلام واتباع لا ابتداع. وإنما هؤلاء القوم زنادقة، ينتمون إلى الإسلام لحفظ رياساتهم ودمائهم والإسلام فسيح واسع يقبل منهم الظاهر، والله أولى بالسرائر. فهم فى الظاهر منه، وفى الباطن منسلخون عنه.

---

(١) بعض مؤرخى النصارى ينفى صلب وقتل المسيح، وقد نقل ذلك عنهم جرجى زيدان والمستشرق سيل وغيرهما. فعلى رأى البعض يكون الحس مختلفا فى نقله. فالذى لا يبقى عليه الاعتماد هو النقل لا الحس نفسه.

(٢) المؤلف قسم الفلسفة إلى نوع مذموم ونوع محمود، فالتى كان يتعاناها السهروردى وابن عربى وغيرهما من المتصوفين الأراذل من النوع المذموم، وأما الفلسفة بمعنى توضيح الفكرة وإقامة الدليل عليها، فإنها لا تذم ولا ترفض.

الثانى : أن قوله « السهروردى » إن كان حجة علينا فليكن قول كل من أسلم من النصارى ، ثم عاد بالقدح على دين النصرانية حجة عليكم ، وإنما تقوم الحجة بقول المعتبرين منا ، كالخلفاء الأربعة(١) ، والقراء(٢) السبعة . والأئمة الأربعة(٣) ، أو من هو معتبر فى الإجماع من أهل الحل والعقد(٤) كما لا تقوم حجتنا عليكم إلا بمن تعتبرون قوله منكم .

الثالث : أن « السهروردى » لم يكن عالماً بأصول الشرائع والنبوات على الوجه المعتبر فيها ، حتى يكون قوله حجة لها وعليها . إنما كان عنده فلسفة محضة وعقليات صرفة وليس له تصنيف إلا فى ذلك كاللمحات والألواح والإسراف وغيرها . وهذه « التنقيحات » لا يعتمد عليها من المسلمين فى أصول الفقه إلا من هو على طريقه فى الإنحراف إلى الفلسفة ، والخلو من علم النبوة وقد رأيتها وهى كثيرة التشكيك ، لا يكاد يبنى شيئاً إلا ويهدمه ، ولا ينصر قولا إلا ويخذله

---

(١) الشيعة لا يعتبرون أقوال أبى بكر وعمر وعثمان حجة . ويتجرأون على ذمهم وأما أهل السنة فإنهم يكفرون من يسب الصحابة ، ويعتبرون أقوالهم المروية عنهم برواية صحيحة حجة . ويرد عليهم الشيعة بأن معاوية وأصحابه سبوا علياً وأصحابه فلماذا لا تكفرون معاوية بسببه علياً ؟ (انظر كتاب مؤتمر علماء بغداد - تأليف مقاتل ابن عطية) .

(٢) تنكر الشيعة جمع القرآن فى عهد أبى بكر وعثمان ، ويقولون جمع القرآن وكتب فى حياته النبى ﷺ .

(٣) يقول الشيعة بأن جعفر الصادق أستاذ الأئمة الأربعة ، وعلى قولهم يكون مذهبهم الفقهى المروى عن جعفر أقوى من مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل .

(٤) لا تعتقد الشيعة إلا فى آل البيت النبوى .

وأنت أيها الخصم قد قدمت عند ذكرك ضرورة الخلق إلى النبوة ومنفعتها : أن العقل لايستقل بإدراك الأمور الإلهية بدون تأييد إلهى .

الرابع : قوله « لو لم يصلب المسيح لم يبق على المحسوسات اعتماد » إن أراد لم يبق عليها اعتماد مع عدم المعارض لها فلا نسلم أن ذلك لازم لعدم صلب المسيح ، وإن أراد مع وجود المعارض فهو صحيح ، فإن مدارك العلم إما حس أو عقل أو مركب منهما . وكلها قد تخالف مع وجود المعارض أما الحس فكما فى التخييلات السحرية والشعبذية وكعدم إدراك الصوت للصمم ، والريح للجسم والطعم للمرة ، واللمس لفساد فى الآلة ، أو لعله فى محله ، وأما العقل فكما يعرض للإنسان عند غلبة السوداء أو الحزن أو الفرح المفرطين أو السكر ونحوه من المغيبات كالنوم والإغماء فإنه يرى الحقائق منقلبة ، والأمور مضطربة ، وأما المركب منهما فكخبر الواحد وإذا كان فى طريقة كذاب . وكالتواتر إذا فقد فيه شرط .

وأما البرهان على أن المسيح لم يصلب ولم يقتل فهو : أن قتله إن لم يكن كولادته من غير ذكر ، فهو مثله فى الشهرة ، ولا بد . ثم إن ولادته من غير ذكر لما كان له وجود ، تواتر تواتراً ، لم يختلف فيه إثنان منا ومنكم ، فلما اختلفنا فى قتله ، دل على أنه لم يبلغ تلك المرتبة من التواتر ، فلم يثبت بمجرد الدعاوى أو الحجج الضعيفة وإنما كان الأمر فى ذلك مشتبهاً كما نص عليه القرآن فاشتبه عليكم .

يؤكد ذلك : أن المسيح طبق ذكره الآفاق ، لما ظهر على يده من الخوارق وقتل مثل هذا لايقبل بمثل هذا النزاع لما يجب له فى مطرد العادات من الشهرة والغلبة ، وإذا كان يحيى وزكريا دونه فى الشهرة بكثير ، ثم لم يختلف فى

قتلها(١) . فما الظن بالمسيح الذى أجمعنا على أنه أفضل أبناء إسرائيل(٢) وأنتم تدعونه إلها ؟ .

* * *

قلت : « وفى سورة الكهف عند ذكر ذى القرنين . قال : « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة(٣) » قال ابن عطية : على وزن فعلة أى ذات حماة ، وقرأ أبو بكر عاصم والباقون : « فى عين حامية » وذكر حديث أبى ذر نصافى ذلك . قال : « فدل على أن العين هناك حارة » .

قال : « وفى سورة يس مثل هذا حيث يقول : « والشمس تجرى لمستقر لها(٤) » الآية . وذكر حديث البخارى عن أبى ذر حيث قال له النبى – ﷺ – أتدرى أين تذهب هذه ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها(٥) » .

---

(١) بين القرآن أن يحيى مات موتاً عادياً ، وليس كما يزعم النصارى أنه قتل لقد أثبت القرآن الموت للمسيح ، ونفى القتل ، وكذلك أثبت الموت ليحيى . قال تعالى : « وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ، ويوم يبعث حياً » (مريم ١٥) .

(٢) المسيح من فضلاء أنبياء بنى إسرائيل ، ومن فضلاء أبناء إسرائيل .

(٣) سورة الكهف ٨٦ ومابعدها . وقرأ ابن عاصم وعامر وحمزة والكسائى : « حامية » أى حارة ، والباقون : « حمئة » أى كثيرة الحماة وهى الطينة السوداء ، وقد يجمع بين القراءتين فيقال كانت حارة وذات حمأة (عن القرطبى) .

(٤) سورة ياسين ٣٨ .

(٥) لفظ البخارى عن أبى ذر قال النبى ﷺ لأبى ذر حين غربت الشمس =

قال : « وهذا كله بين البطلان لكل من له أدنى (نظر) فى الهيئة ، لأن الشمس تدور أبداً فى فلكها ، وهو الفلك الرابع ، ولا تغرب فى عين حامية ولا تجرى لمستقر لها ، لأنها ليس لها قرار[١] » .

قلت : الجواب عن هذا السؤال :

أما القراءتان : « حمئة » من الحماة ، « وحامية » من الحرارة ، فهما قراءتان صحيحتان ، والأولى قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو ، والثانية قراءة الباقين . والخبط فى نقل مذهب القراء فيهما لا أدرى هل هو من هذا الخصم أو من غيره[٢] ، وقد روى ابن عباس عن أبى بن كعب : أن النبى - ﷺ - قرأ :

= « تدرى أين تذهب ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم - قال : « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، فلا يؤذن لها . يقال لها : ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها ، فذلك قوله تعالى : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم »

(١) قال بعض العلماء : ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغرباً ومشرقاً ، حتى وصل إلى جرمها ومسها ؛ لأنها تدور مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض ، وهى أعظم من أن تدخل فى عين من عيون الأرض ، بل هى أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة ، بل المراد أن انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق ، فوجدها فى رأى العين تغرب فى عين حمئة . كما أنا نشاهدها فى الأرض الملساء كأنها تدخل فى الأرض (من تفسير القرطبى) ومعنى « لمستقر لها » قيل : إلى انتهاء أمدها عند انقضاء الدنيا (القرطبى)

(٢) النصرانى نقل من كتب التفسير نقلاً صحيحاً . فالتهمة إن تكون ، تكون على المفسرين .

« فى عين حمئة[1] » رواه أبو داود والترمذى . وقال حديث غريب . قال والصحيح : أنها قراءة ابن عباس لأنه اختلف هو وعمرو بن العاص فيها ، وترافعا إلى كعب الأحبار ، ولو كان عنده فيها رواية لا كتفى بها .

ووجه الجمع بين القراءتين : أن تلك العين حارة ، وهى ذات حمأة ، فإن اجتماع الأمرين جائز غير ممتنع . وأما حديث أبى ذر فلفظه على مارواه الترمذى وغيره قال : « دخلت المسجد حين غابت الشمس ، والنبى — ﷺ — جالس . فقال : « أتدرى يا أبا ذر أين تذهب هذه ؟ » قال : قلت الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تذهب فتستأذن فى السجود فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها : إطلعى من حيث جئت . فتطلع من مغربها » قال : ثم قرأ وذلك « مستقر لها » قال : وذلك قراءة عبد الله قال الترمذى : هو حسن صحيح وأخرجاه فى الصحيحين ، ورواه أبو داود والنسائى . ووصف الشمس بالسجود وخطابها من الحقائق الإلهية التى لا يستقل العقل بدركها ؛ فيجب تلقيها عن أصحاب الشرائع بالقبول[2] ، كما سبق تقريره فى المقدمة الثانية فى صدر الكتاب .

---

(١) قال ابن عباس : هى « حمئة » وقال معاوية « حامية » فحكم كعب الأحبار بأنها تغرب فى عين سوداء ، فوافق ابن عباس (نقلا عن القرطبى) وهذا فى نظرنا من عبث المفسرين ؛ لأن ألفاظ القرآن منقولة بالتواتر ومضبوطة ضبطا دقيقاً ومن عبثهم أنهم نقلوا عن ابن مسعود وابن عباس « والشمس تجرى لا مستقر لها » وهذا باطل ومردود على من نقله . وهم بهذا العبث يعطون الأعداء الكلام الذى يطعنون به فى الدين .

(٢) كيف يتلقى هذا الخبر بالقبول ، وهو ثابت بأحاديث آحاد والواقع يكذبه والمعنى : أن الشمس تستقر عند انتهاء الدنيا ، ومعنى تجرى أى تدور بسرعة ، وتستمر فى الدوران إلى قيام القيامة وقال المؤلف بعد قليل من هذا الكلام : « وخبر الآحاد إنما يفيد ظنا ضعيفاً » .

وأما معنى غروبها فى عين حامية ، ففيه تأويلات :

أحدها : أنها تغرب فيها فى رأى العين ، لا الحقيقة كما يرى كأنها تغرب فى البحر أو من وراء الجبل، بل من وراء جدار صغير ، بحسب اختلاف مناظرها وأوضاع الناظرين إليها .

الثانى : أن « فى » بمعنى على . أى تغرب على عين حامية ، أى تكون مقابلة لها ، وحروف الصفات يقع بعضها موقع بعض كما قال تعالى : « لأصلبنكم فى جذوع النخل » أى عليها . وقال عنترة : —

بطل كأن ثيابه فى سرحه ∴

أى عليها :

وعلى بمعنى فى ، كقول أبى كبير الهذلى :

ولقد سريت على الظلام بمغشم ∴

أى فى الظلام .

الثالث : أنها بمعنى عند . أى تغرب عند عين حامية . وقد ترد بمعنى عند ، ومع ، فى العربية . فكلام يحتمل لهذه التأويلات السابقة فى اللغة التى ورد بها ، لا ينبغى أن يتهجم على القدح فيه .

وقد نقل بعض المفسرين عن كعب أنه قال : « فى التوراة أنها تغرب فى ماء وطين [1] » .

---

(١) أثبت علماء الهيئة كذب كعب الأحبار ، وفى حياته كذبه معاوية بن أبى سفيان كما حكى البخارى ، وفى كتب التفاسير خرافات كثيرة منقولة عنه .

وأصحاب الهيئة يعترضون على هذا بناء على ماقرروه من أن الشمس مثل كرة الأرض مائة وواحدة وستين مرة ونصف وربع فكيف تسعها عين من عيون الأرض ؟ والجواب بما سبق . وأما قوله « إن هذا كله بين البطلان » لمن له أدنى معرفة بالهيئة » فجوابه : إن علم الهيئة مبنى على مقدمتين :

إحداهما : أن حركة الأفلاك متصلة متشابهة يستحيل أن يعرض لها البطء والسرعة أو الرجوع أو الانقطاع .

والثانية : اعتبار الرصد .

وقد قدح المحققون فيهما بما لايسع هذا المكان ذكره . ومنه : أن حاصل الرصد : الاعتماد على أبصار الآحاد[1] ، والبصر لا يفيد اليقين لكثرة مايعرض للبصر من الغلط ، خصوصاً مع البعد المفرط ، وخبر الآحاد إنما يفيد ظناً ضعيفاً ودعوى أهل الهيئة : أن علمهم ثابت بالبراهين الهندسية كذب وزور وبهتان . إذ لو كان كذلك لما وقع الخلاف العظيم بينهم فى تفاصيل علمهم وجمله .

وإذا اتجه القدح فى مقدمات الهيئة لم يبق بها وثوق ، وصار خبر[2] الشرع أوثق منها ، على ماقدمت أنت أيها الخصم فى بيان ضرورة النبوة من كلام « أرسطو » وغيره .

ثم نقول : إن علم الهيئة على تقدير صحته وثبوته لاينفى مافسرنا به كيفية غروب الشمس فى العين الحامية ،

---

(١) يعتمدون على المناظير المكبرة ، لا على البصر وحده .
(٢) خبر الشرع أوثق إذا كان من القرآن الكريم والسنة المفسرة العلمية .

وأما قوله : « إن الشمس تدور أبداً فى فلكها ، وهو الرابع ، ولا تجرى لمستقر لها ، لأنه ليس لها قرار .

فجوابه من وجهين :

أحدهما : أن يقال له : أنت إما أن تكون فيلسوفاً محضاً ، أو مشرعاً تقول بصحة الشرائع ، وما جاءت به النبوات . فإن كنت فيلسوفاً ، ورد عليك كثير مما تقول به من أحكام التوراة والإنجيل مما تعتقد الفلاسفة فسادها.

منها : دعواك فى المسيح أن لاهوت الله اتحد بناسوته ، فصارا حقيقة واحدة ، أو أن الله - سبحانه - واحد بالذات ، متعدد بالأقانيم [1] التى هى الله والإبن وروح القدس . وإن كنت مشرعاً فيلزمك تجويز أن الشمس يمكن أنها تستقر وتقف ، فإنه قد ثبت باتفاقنا : أن يوشع بن نون وقفت له الشمس عن مسيرها ليلة السبت [2]، حتى فرغ من قتال الجبارين . وقد ذكرته أنت فى كتابك هذا عند بيان وجود النبوة .

وثبت أيضاً فى الإصحاح الثامن والثلاثين من مصحف أشعياء [3] أن الله

---

(١) الأقنوم هو الشخص الكبير فى اللغة السريانية . وأقانيم الكاثوليك أشخاص آلهة هى الآب (الله) والابن (المسيح) والروح القدس (على الحى الإلهام) وكل إله مستقل بذاته . وعلى المجاز الأقنوم مرحلة من المراحل الذات واحدة وعلى المجاز تكون أقانيم الأرثوذكس مراحل لذات الله تعالى أى هو الآب قبل أن يتجسد فى شكل عيسى ، ويصير إبنا بعد التجسد ، ويصير الروح القدس بعد رفعه إلى السماء .

(٢) فدامت الشمس ووقف القمر ، يشوع ١٠ : ١٣

(٣) فى الأصحاح الثامن والثلاثين من سفر أشعياء : « فصار قول الرب إلى =

سبحانه رد الشمس إلى خلفها عشر درجات علامة لحزقيا ملك بنى إسرائيل على أنه ينفس له فى عمره خمس عشرة سنة بعد أن حضره الموت مشهورة . ومثل هذا لا يصح فى علم الهيئة بناء على المقدمة المذكورة ، وأن حركة الأفلاك متصلة . ويقال : إن من حين وقوف الشمس لهذين النبيين تخبط حساب المنجمين ، واختلط رأيهم . فالله أعلم .

وأما أنك تكون تارة فيلسوفاً وتارة مشرعاً . فهذا مما لا يمكن ، لأن الفلسفة والتشريع لا يجتمعان (١) . وقد حاول قوم منهم أبو الوليد بن رشد الجمع بينهما فلم يحصل إلا على الحيرة ، وظهر أمره ، فكاد أهل المغرب يقتلونه وأحسبه مات فى حبس الشرع ، وأنا أحسبك أيها الخصم حائراً متردداً . لا نصرانياً ولا مسلماً ، ولا فيلسوفاً ٥

الوجه الثانى : إن قوله « لمستقر لها » له أربع محامل صحيحة :

أحدها : أن « اللام » بمعنى فى : أى تجرى فى مستقر لها ، وهو فلكها ،

= أشعياء قائلا : اذهب وقل لحزقيا هكذا يقول الرب إله داود : قد سمعت صلاتك قد رأيت دموعك . هأنذا أضيف إلى أيامك خمس عشرة سنة . ومن يد ملك أشور أنقذك وهذه المدينة ، وأحامى عن هذه المدينة . وهذه لك العلامة من قبل الرب ، على أن الرب يفعل هذا الأمر الذى تكلم به . هأنذا أرجع ظل الدرجات الذى نزل فى درجات آحاز بالشمس عشر درجات إلى الوراء فرجعت الشمس عشر درجات فى الدرجات التى نزلتها » أش ٣٨ : ٤ - ٨

(١) إذا أعمل المسلم فكره فى تعليل أحكام الشريعة وبيان أهدافها والغرض منه بالحق ، فهذا المسلم فيلسوف ، لأن الفلسفة هى إقناع الناس بفكرة ما بأسلوب واضح وحجج مقبولة . أما فلسفة ابن رشد والسهروردى فكالمثل جعجعة ولا أرى طحناً .

تجرى فيه ما بين طرفى مشارقها ومغاربها من ناحية الشمال والجنوب ، لا تجاوز ذلك .

الثانى : أن تكون بمعنى إلى ، أى تجرى إلى مستقر لها ، وهو حين تستقر زوال حركتها عند قبض الله السموات والأرض وتكوير الشمس والقمر وانكدار النجوم عند خراب العالم على ما جاء به شرع الإسلام وأخبر به النبى الصادق عليه السلام — وأشار إليه المسيح فى الإنجيل حيث يقول : « إذا جاء ابن الإنسان فى مجده على الغمام ، والملائكة حوله هنالك من عرفنى اليوم عرفته ومن أنكرنى أنكرته [١] »

معنى هذا الكلام . ويكون هذا معنى قوله — سبحانه وتعالى — « وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى [٢] »

الثالث : أن بعض أئمة السلف قرأ هذه الآية « والشمس تجرى لا مستقر » أى لا تقف ولا تفتر ، وهو معنى قوله تعالى : « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين » [٣] أى لا يفتران من الدأب ، وهو السعى الشديد ، وتكون هذه القراءة مفسرة للمراد من الأخرى .

وكل هذا محتمل لا يقدح بمثله فى فروع شريعة ، فضلا عن أصولها [٤] .

---

(١) الأصحاح الخامس والعشرون من إنجيل متى ، وعبارة المسيح لا تدل على يوم القيامة (أنظر البشارة بنبى الاسلام فى التوراة والإنجيل)

(٢) الرعد ٢ (٣) إبراهيم ٣٣ .

(٤) علقنا على هذا بالقدح من الأعداء إذا لم نحذفه من كتب التفاسير .

الرابع : أن يكون مستقرها موضع سجودها . كما جاء فى الحديث ، وقد بينا جواز وقوفها عن السير ، بقصة يوشع وحزقيا . وأن هذا مما يجب أن يتسلم عن النبوات ويتلقى بالقبول ، ولا يقابل بشبه العقول القاصرة عن إدراك الحقائق الإلهية . والله أعلم

• • •

قال : « وفى سورة الصف قال : « وإذ قال عيسى بن مريم : يا بنى إسرائيل — إلى قوله — ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »[1] ·

وفى سورة الأعراف قال :

« الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ، الذى يجدونه مكتوباً عنـــدهم فى التوراة والإنجيل »[2] ولا نجد ذكراً لمحمد فى التوراة والإنجيل .

قال : « ولعل قائلا يقول : نزع اسمه منهما . أو هكذا يقول . وأما جوابه عن ذلك بأن ظهور محمد ، إما أن يكون بخير أو شر ، وعلى التقديرين يجب إبقاؤه ، ولا فائدة فى نزعه »

قال : « ولم لم ينزع أسماء الأنبياء الذين كان يخبر بعضهم ببعض ، سابقهم بلاحقهم كيحيى بن زكريا . ولم لم ينزع اسم الشيطان والدجال » ؟

والجواب عن ذلك : أن فى التوراة نبوءات كثيرة عن محمـــد ﷺ . ومنها ما جاء فى سفر تثنية الاشتراع : « أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك

---

(١) الصف ٦ — (٢) الأعراف ١٥٧

وأجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ماأوصيه به ، فإن من وسط إخوتهم يدل على أنه سيكون من بنى إسماعيل — عليه السلام — وأجعل كلامى فى فمه يدل على أنه نبى أمىّ ، لا يقرأ ولا يكتب . وقال فى نهاية التوراة لن يقوم نبى فى بنى إسرائيل مثل موسى .

وأما فى الإنجيل . فحيث يقول فى بشارة يوحنا :

« والبرقليط الروح القدس ، الذى سيرسله أبى باسمى ، هو يعلمكم كل شىء وهو يذكركم بكل ما قلته لكم[1] » وحيث يقول : « إنه خير لكم أنى أنطلق لأنى إن لم أذهب لم يأتكم البرقليط ، وإذا انطلقت أرسلته لكم ، وإذا جاء ذلك ، فهو يوبخ العالم على الخطية وعلى البر وعلى الحكم . أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بى ... وأما على الحكم فلأن أركون هذا العالم يدان »[2] ثم قال : « إذا جاء روح الحق ذاك فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ، ويخبركم بما يأتى ، وهو يمجدنى لأنه يأخذ مما هو لى ويخبركم[3] » .

قلت : وإذا تأملنا هذه الإشارات وجدناها مطابقة لصفات محمد ﷺ ، لأنه لم يأت بعد المسيح من ادعى النبوة ومجّد عيسى وبالغ فى تمجيده ، وصدقه فى نبوته ، ووبخ العالم على خطية الكفر وقتل اليهود وغيرهم على تكذيب المسيح وعبادة الأوثان ، وأخبر بأن الناس يدانون يوم القيامة ويحاسبون ، وعلم الآداب ومكارم الأخلاق وظهر ناموسه واشتهر فى البدو والحضر كظهور نواميس الأنبياء قبله إلا محمد ﷺ ، وإن لم يكن محمد هو

(١) يوحنا ١٤ : ٢٦ — (٢) يو ١٦ : ٧ — ١١
(٣) يو ١٦ : ١٣ — ١٥

الذى أشار إليه لزم القدح فى صدق وعده بالبرقليط[1] ، لأن من المحال عادة إن عاد أحد يظهر بما ظهر به محمد ، ويتم له .

فإن قيل : قد ذكر « البرقليط » فى الإنجيل بصفات غير هذه مما لا يطابق صفات محمد ، فيحمل ما ذكرتموه عليه .

قلنا : مع المسامحة نقول لكم : اذا كان ما فى الإنجيل حق عندكم فيجب اعتباره ما أمكن ، وحيث ذكر « البرقليط » تارة بما يوافق صفات محمد، وتارة بما يخالفها فاجعلوه من باب اللفظ المشترك والبرقليط الذى ذكرناه — عليه السلام — والذى ذكرتموه اجعلوه من شئتم ، ويحصل لنا المقصود . وقد بينت وجه دلالة هذا الفصل على المطلوب ، وما عليه من سؤال وجواب فى التعليق على الإنجيل ، فاكتفيت به هناك عن تكراره ها هنا . والله أعلم .

---

(١) البرقليط : بكسر الباء اسم أحمد ﷺ . والنصارى يعترفون بأن البرقليط بكسر الباء اسم أحمد . لكنهم ينطقون البرقليط بفتح الباء ، وإذا كانت الباء مفتوحة لا تدل على اسم أحمد ، بل تدل على صفة هى : النائب عن المسيح عوضاً عنه ، ليعزى بنى إسرائيل فى فقدهم الملك والشريعة .

وكلمة البرقليط كلمة عبرانية ، وتترجم فى اليونانية بيركليتوس . والنصارى بحسب النطق يترجمونها باركليتوس . ومن المعلوم أن حرف الدين فى اللغة اليونانية لا يضاف إلا إلى الأسماء وأن حروف المد وهى الألف والياء والواو فى اللغة العبرانية لم توضع إلا فى القرن الخامس الميلادى. وهذا يعنى أن بيرقليط اسم أحمد صراحة .

ويؤكد أن بيرقليط إسم أحمد : الأوصاف الواردة للإسم وهى تبكيت العالم على الخطايا . . . إلخ ويؤكده أيضا : أن النصارى يفسرون البيرقليط بالإله الثالث وليس فى التوراة والانجيل إلا إله واحد (انظر كتابنا : أقانيم النصارى)

وأما قوله : « لعل قائلا يقول : نزع اسمه منهما أو هكذا يقول . وأما جوابه عن ذلك بأن ظهور محمد إما أن يكون بخير أو شر ، وعلى التقديرين يجب إبقاؤه ولا فائدة فى نزعه » .

فجوابه : إن هذا إنما يصح أن يحتج به من علم منه العدل والإنصاف وطلب الحق وكمال العقل . واليهود والنصارى ليسوا كذلك حتى يصح احتجاجهم بهذا . أما اليهود فإنهم تعدوا على أنبيائهم وبغوا عليهم وقتلوهم ، وكفروا بالمسيح مع ظهور صدقه بالخوارق على يده لكل عاقل منصف . فكفرهم بمحمد ككفرهم بالمسيح ، وإنكارهم لاسمه وصفته كإنكارهم لصفة المسيح المذكورة فى التوراة فى كلام إسرائيل لما جمع بنيه ، وأخبرهم مايكون منهم على ما سبق بيانه آنفاً فى الجواب عن صلب المسيح — لكن اليهود علموا من صفة محمد أنه يظهر بقوة وشوكة ، لايقدرون معها على قتله وصلبه — كما زعمتم وإياهم أنهم فعلوا بالمسيح — فغيروا اسمه وصفته فى التوراة لئلا يتحقق عنادهم بقيام الحجة عليهم من كتابهم ورأوا أن العناد بشبهة أولى منه بلا شبهة .

وأما النصارى فلأن الإنجيل الذى صرح فيه بذكر محمد ليس هذا الذى بأيديهم (١) بل هو كتاب نزل على المسيح من السماء كتوراة موسى وقرآن محمد ولكنه عدم فلم يظهر .

وأما الأناجيل التى بأيديهم فهى سيرة المسيح وحكاية ما جرى له ، وفيها شىء من حكمه ومواعظه ، فهو بمثابة ما نقل عن الأنبياء من كلام أنفسهم ،

---

(١) هو الذى بيد النصارى الآن ، لأن الأناجيل التى بأيديهم أقرتها المجامع النصرانية من قبل ظهور محمد ﷺ ، والمؤلف اعترف بذلك فى قوله : « على أنا قد بينا أن فى فصل الپيرقليط من بشارة يوحنا ... »

كالأخبار المروية عن محمد عليه السلام وغيره من الأنبياء . وكذلك التوراة التي بأيدي اليهود اليوم(١) ، على أنا قد بينا أن في فصل البرقليط من بشارة يوحنا ما يكفي في الإشارة إلى ذكر محمد بصفته .

وأيضاً فإن المسيح كان آية من آيات الله سبحانه ، أضل بها من شاء من خلقه فعصمهم . الله به مدة مقامه بين أظهرهم ، فلما ارتفع عنهم ، وقع في دينهم الدخل والتلبيس من شياطين الجن والإنس ، كما نبينه في « الفوائد والتعليق على الإنجيل وذكره هنا يطول .

وأيضاً انضم إلى ذلك في حق الطائفتين أن محمداً جاءهم بترك المألوف من دينهم وذلك شديد على النفوس لا يثبت له إلا كاملوا العدل والعقل ، وقد بينا عدم العدل في اليهود ، وعدم العقل في النصارى حيث اعتقدوا أن الله خالق السموات والأرض خرج من بطن مريم ثم أسلم نفسه للقتل والصلب ليستنقذ الخطاة في بني آدم ، وقد كان قادراً على استنقاذهم بدون هذا التعب ، وعقول تخيل لأهلها اختراع مثل هذا جديرة بأن تخيل لهم الاستمرار عليه حتى يحرفوا لأجله أسماء الأنبياء وينازعوا في الحق ويعاندوه .

وحاصل ما نقوله في جوابه : أن محمداً كان ظهوره بخير عظيم وبركة عميمة ولكنهم غيروه حسداً له ، واستبقاء للرئاسة فيهم ، وغيرة عليها أن تخرج منهم وينالها غيرهم .

---

(١) والتوراة التي فيها ذكر لمحمد عليه السلام هي التي بيد اليهود الآن ، لأنها أقرت رسمياً في العالم من زمان عزرا الوراق ، وكان قبل عيسى بما يقرب من خمسمائة عام .

وإذا كان إخوة يوسف هموا بقتل أخيهم يوسف ثم لما دفقوا به باعوه على الكفار ورموه فى رق العبودية حتى لقى من مرارة التهم والسجن ما لقى حسداً له على ما ظنوه من تأويل رؤيا يجوز أن تقع وأن لا تقع مع كونهم من صلب نبى معصوم ، وهم معاشرون له صباح مساء ، فما الظن باليهود والنصارى البغاة الجهال ، وقد مضى منهم الزبد ، وبقى منهم الغثاء وسفلة العالم وسقطهم فيما علموه بالوحى الإلهى .

وأيضاً إذا كانت « سارة » المرأة الصالحة المحفوظة بمعاشرة النبى المعصوم « إبراهيم » — صلوات الله عليه — قالت له : اخرج بابن الأمة — تعنى إسماعيل ابن هاجر — عنى ، لئلا يرث مع ابنى إسحاق(١) ، كما نص عليه فى التوراة ، غيرة منها أن يشارك ابنها فى رئاسة أبيه ، فما الظن باليهود والنصارى على ما عرف منهم ؟

وأما قوله : « لم لم ينزع أسماء الأنبياء الذين كان يخبر بعضهم ببعض

---

(١) النص : « فقالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحاق » تك ٢١ : ١٠

وقد رد الله عليه بقوله : « بإسحاق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك » تك ٢١ : ١٢ — ١٣ .

فقد ثبت أن اسماعيل وارث لأبيه فى النبوة . ويؤكد إرثه أن الله تعالى قال عنه لأبيه : « وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً . إثنى عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة » تكوين ١٧ : ٢٠ .

فقد أثبت لاسماعيل بركة ، والبركة يفسرونها بالملك والنبوة . وقد انبهت التوراة على قيام نبى من إخوة اليهود وهم بنو اسماعيل لتحقق البركة فيهم فى هذا النص : « يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون . . . إلخ » تثنية ١٨ : ١٥ .

سابقهم بلاحقهم كيحيى ابن زكريا ، ولم لم ينزع اسم الشيطان والدجال[1]؟

فالجواب : أن الفرق بين أولئك الأنبياء ومحمد عليهم السلام من وجهين:

أحدهما : أن موسى لم يأت بعده نبي إلا بتقرير أمر التوراة ومتابعتها ، فكانوا في المعنى نواب موسى وخلفاءه ، كالتلاميذ الإثنى عشر لعيسى . ومحمد عليه السلام جاء بنسخ الشرائع[2] كلها وأحكام التوراة والإنجيل وغيرهما ، واستئناف شريعة مبتدأة من عند الله . ولهذا لما جاء المسيح بإبطال السبت وأشياء مما تخالف حكم التوراة تعصبوا عليه وقتلوه - كما زعمتم وإياهم .

الوجه الثاني : أنهم كانوا يعلمون أن أولئك الأنبياء ضعفاء لا شوكة لهم فلم تكن لهم حاجة إلى نزع أسمائهم ، بل إن رأوا منهم ما يوافقهم وإلا قتلوهم كما فعلوا بيحيى وزكريا والمسيح وغيرهم من الأنبياء - كما حكوا -

ومحمد - عليه السلام - علموا أنهم لا يقدرون عليه ، كما قدروا على غيره ، فنزعوا إسمه ليصير شبهة لهم في خلافه - كما سبق .

* * *

قال : وفي سورة النور : « والله خلق كل دابة من ماء » وفي سورة

---

(١) الدجال إسم وضعه النصارى في الأناجيل للتشويش على نبوة محمد ﷺ ويعنون به محمداً ﷺ .

(٢) شريعة موسى كانت ناسخة لما قبلها من الشرائع ، ولم يأت بعد موسى ناسخ لشريعته إلا محمد - عليهما السلام - والإنجيل معناه: البشرى المفرحة . وفيه : أن يعمل أتباع عيسى - عليه السلام - بأحكام التوراة ، حتى يأتي النبي المبشر به ، فيسمعون له ويطيعون .

الفرقان : « وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً » وفى سورة الروم : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » وفى سورة فاطر : « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة » وفى سورة الأنبياء : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » وهذا بين التناقض ، والكذب لازم فى إحدى القضيتين وخلاف هـــذا فى التوراة ، حيث يقول : إن الدواب خلقت من التراب والإنسان من الماء ، وخلاف ذلك أيضاً فى الوجود ، إذ بعض الأشياء مخلوقة من الأرض وبعضها من الماء » .

قلت : الجواب : أنه لا تناقض فى هذا ولا كذب ـ بحمد الله ـ عند من عرف وتبين ذلك ببيان معنى كل « آية » على انفرادها ، ثم بيان الجمع بين الجميع .

أما قوله : « والله خلق كل دابة من ماء[1] » فنقول : الدابة فى وضع اللغة كل ما دب ودرج . وفى عرف الاستعمال اللغوى : مختص بدواب الأربع كالفرس ونحوه ، فإن حمل لفظ الدابة على هذا المعنى العرفى فلا إشكال فى أنها من ماء ، وهو الماء الذى ينزله الذكر فى الأنثى وتنزله هى عند الوقاع .

وإن حمل على الوضع اللغوى فالجواب من وجوه :

أحدها : أن « من » فى قوله « من ماء » للسببية ، بمعنى أن الماء مدخلا وتأثيراً بحقيقته أو بما هو من طبيعته فى وجود كل دابة . وهذا صحيح . فإن كل دابة هى حيوان ، وكل حيوان لا بد فيه من رطوبة مائية بها تتقوم حياته ، فيدخل فى ذلك العقارب والخنافس ، ونحوها من الحشرات التى يقال إنها

---

(١) النور ٢٤ : ٤٥ .

تتولد من التراب ، لأنها وإن كانت متولدة من التراب إلا أنها لا تستغنى عن رطوبة ، هى من طبيعة الماء تقوم حياتها .

الوجه الثانى : أن نقول فى الدابة وضعاً ما قلناه فى الدابة عرفاً ، وهو أن سائر أشخاصها مخلوقة من « ماء » الوقاع ، لأن فيها ذكوراً وإناثاً قطعاً ، ولا فائدة للصنفين المذكورين إلا التناسل المعتاد بين سائر أصناف الحيوان ، وما يقال : من أن بعض الدواب تخلق من التراب ، فلا شك أنه قد قيل ، ولكنا لم نشاهده فلا يقلد فيه . ولا عليه دليل قاطع من جهة العقل ، فإن شاهدناه أجبنا حينئذ بحسب ما ينبغى .

والذى رأيته فى هذا : ماذكر فى تواريخ الأولين : أن الملك « سنحاريب » رأى فى منامه أن عقرباً صعدت على سريره فلدغته ، فوقع عنه . فاستدعى بعض المعبرين فسأله عن رؤياه ، فقال له : إنها تدل على أنه يغلب على ملكك رجل لا أصل له ، لأن العقرب لا أصل لها ، وإنما تخلق من التراب ، فكان تأويله أن غلب فرعون على سنحاريب وأخذ ملكه ، ولم يكن لفرعون أصل فى الملك وإنما كان أبوه راعى غنم . هكذا قيل . لكن فى هذا مناقشات كثيرة لا يعتمد عليها معها .

الوجه الثالث : إن ثبت أن بعض الدواب مخلوقاً من غير الماء ، كان قوله تعالى : « خلق كل دابة من ماء » عاماً مخصوصاً بذلك ، أى أنه أطلق العام وأراد الخاص وهو كثير كقوله : « الله خالق كل شىء »[1] وخص بالعقل ذاته وصفاته تعالى .

وقوله : « تدمر كل شىء »[2] — يعنى الريح العقيم — وخص بالعقل السموات

(١) الزمر ٦٢ . (٢) الأحقاف ٢٥

والأرض وغيرهما مما لم تدمره. وقوله «وأوتيت من كل شيء [١]» ـ يعني بلقيس ـ وخص بالعقل ما لا تؤته من ملك سليمان وغيره. والتخصيص لازم فيما حكاه الخصم من قوله فى التوراة: إن الدواب خلقت من التراب [٢]، لأنا نقول: أى الدواب تريد؟ إن أردت مجموع جنسها أولا وآخراً فى جميع أزمنة الوجود فهذا يكذبه العيان، لأنا نشاهد الدواب تتكون من ماء الذكر والأنثى. وإن أردت أنواع جنس الدواب الأول التى هى لأنواعها كآدم لنوع البشر، وهو المراد، لأن هذا الكلام فى سفر الخليقة، وهو إنما يذكر فيه أوائل الموجودات، وحينئذ يلزم التخصيص إن أريد باللام فى «الدواب» الاستغراق. وإن أريد العهد يعنى أوائل أنواع الدواب لم يكن فيه حجة على مناقضة القرآن إذ يصير تقديره بعض جنس الدواب من التراب. والقرآن تضمن أن كل دابة خلقت من «ماء» فيخص أحد الكتابين الآخر، إن سلمنا صحة التوراة، وإلا لم يلزمنا ما فيه، بناء على ما سبق.

وأما قوله: (خلق من الماء بشراً [٣]) فإن حملنا لفظ (الدابة) على المعنى الوضعى دخل فيه البشر، واتفقت الآيتان. وإن حملناه على العرفى لم يتناول البشر، وكان فى هذه الآية مفرداً بالذكر على وفق ما ذكر فى الدابة من الخلق من الماء، والمراد أنه خلق الإنسان من الماء يعنى «منى» الزوجين، وهو مشاهد.

وأما قوله: (وجعلنا من الماء كل شيء حى [٤]) فجوابه من وجهين:

أحدهما: أن «من» فيه للسببية والتقرير ما سبق فى الوجه الأول من جواب

---

(١) النمل ٢٣. (٢) التكوين ١: ٢٤ (٣) الفرقان ٥٤.
(٤) الأنبياء ٣٠.

قوله (خلق كل دابة من ماء) وأيضاً : فإن حياة كل حى إما كاملة كحياة الإنسان وغيره من الحيوانات ، أو قاصرة كحياة الزرع والنبات ، وكل ذلك لا بد فى تحقق حياته من الماء على ما هو مشاهد .

الثانى : أن كل حى مخلوق من ماء الرقاع كما سبق فى الوجه الثانى من جواب الآية المذكورة ويمكن أن يحمل على إرادة الخاص بالعام كما سبق فى الوجه ثالث هناك على تقدير أن يثبت أن من الأحياء ما ليس من المـاء .

وأما قوله (خلقكم من تراب[1])فالمراد خلق أباكم - يعنى آدم - من تراب بناء على ما نص الله علينا فى كتابه ، وأجمع عليه المسلمون من أن آدم خلق من تراب ، وإنما خاطبنا بذلك ، لأننا نسل آدم وولده ، وحيث كنا كامنين فيه بالقوة كان خلقه من تراب كخلقنا من تراب ، وإذ تقرر الـكلام على الآيات مفردة ظهر وجه الجمع بينهما وأن لا تناقض فيها .

فقوله فى سورة الروم : (خلقكم من تراب) يعنى أصلـكم وأباكم آدم ، وقوله فى الفرقان : (خلق من ماء) يعنى المنى من الذكر والأنثى (بشراً فجعله نسباً وصهرا) وهو لا ينافى الخلق من تراب ، لأن المخلوق من الماء غير المخلوق من التراب ـ على ما بيناه ـ ويدل عليه ما فى سياق آية فاطر حيث يقول : (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة)[2] .

أى خلق آباكم آدم من تراب ثم خلقكم منه ومن غيره من ذريته من نطفة .

وكذلك قوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان) يعنى آدم (من سلالة من طين) أو يكون المراد بالإنسان ذريته خلقوا من سلالة وهى المنى المستل من الأصلاب لـكن أصل تلك السلالة من طين باعتبار آدم (ثم جعلناه) يعنى الإنسان غير آدم (نطفة) وهو المنى (فى قرار مكين) وهو الرحم (ثم خلقنا

---

(١) فاطر ١١ والروم ٢٠ . (٢) فاطر ١١ (٣) المؤمنون ١٢ .

النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً) الآية .

وقوله : (خلق كل دابة من ماء) (وجعلنا من الماء كل شيء حي) قد سبق وجه المراد منهما . فحصل من ذلك : أنه لا تناقض في هذه الآيات ، ولا كذب ،

وأما قوله « هذا تناقض ، والكذب لازم في إحدى القضيتين [١] » فهذا قول من لا يعلم ما التناقض ؟ ولا ما الكذب ؟ فإن التناقض هو تقابل القضيتين بالسلب والإيجاب مع اتفاقهما في الجزء والكل والقوة والفعل والشرط والزمان والمكان والإضافة ، ومتى اختل شيء من ذلك أمكن الجمع ولم يلزم التناقض ، وأين اتفاق هذه الآيات كلها في هذه الأمور . والله أعلم .

* * *

قال : « وفي سورة الحج (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم [١]) .

وذكر ما حكاه ابن عطية وغيره في التفسير [٢] من أن النبي ﷺ كان

---

(١) التوراة تصرح بأن آدم مخلوق من التراب (تكوين ١ : ٢٤ و ٢٦) .
(٢) الحج ٥٢ .
(٣) خالف ابن عطية كثيرون من المفسرين ، ففي القرطبي عن القاضي عياض « إن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند صحيح سليم متصل : ثقة . وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، ويقول القرطبي نفسه : « الأحاديث =

يتمنى أن يتبعه قومه ويؤثر هدايتهم ، ولكثرة تمنيه ذلك ألقى الشيطان على لسانه فى تلاوة سورة النجم حين قال : (ومناة الثالثة الأخرى : تلك الغرانيق العلى ، إن شفاعتهم لترتجى) ففرح المشركون وقالوا : قد ذكر آلهتنا بخير فلانوا له وكفوا عن أذاه وأذى أصحابه ، فاتصل بمهاجرة الحبشة — الهجرة الأولى — أن قريشاً أسلمت ، فجاءوا فوجدوا ما ألقاه الشيطان قد نسخ وعادت قريش إلى غلظتها وشقاقها ، فعاد الذين جاءوا من الحبشة إليها . وذلك سبب الهجرة الثانية .

ولما علم النبى ﷺ أن ما كان قاله من مدح الأصنام من إلقاء الشيطان اغتم لذلك فأنزل الله — سبحانه — تسلية له : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ، ألقى الشيطان فى أمنيته » الآية .

قال : فتضمنت هذه القصة باطلين :

أحدهما : الافتراء على الرسل فى وصفهم بهذه المثلبة من أن الشيطان تلبس عليهم فى وحى الله — سبحانه — بما يقع به الغواية والإضلال للناس ، وحاشا الأنبياء من أن يكون للشيطان عليهم سلطان ، خصوصاً فى تخليط الوحى عليهم .

والثانى : إخباره بأن للأصنام شفاعة ، ومدحها بذلك ثم ذكر حديثا

= المروية فى نزول هذه الآية ليس منها شىء يصح . وكان مما تموه به الكفار على عوامهم قولهم : حق الأنبياء ألا يعجزوا عن شىء ، فلم لا يأتينا محمد بالعذاب ، وقد بالغنا فى عداوته ؟ وكانوا يقولون أيضاً : ينبغى أن يجرى عليهم سهو وغلط ، فبين الرب — سبحانه — أنهم بشر ، والآتى بالعذاب هو الله تعالى على ما يريد . ويجوز على البشر السهو والنسيان والغلط إلى أن يحكم الله آياته وينسخ حيل الشيطان . اهـ .

زعم أن البخارى ذكره فى باب العيدين ولم أجده فيه — فلعله قلد فى نقله غيره ، لكن الحديث صحيح فى الشريعة . عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن الشيطان عرض لى فى الصلاة ليقطعها علىّ ، فأمكننى الله منه ، ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى يصبحوا فينظروا إليه . فذكرت قول سليمان : « رب هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى »

قال : « فمن له هذا السلطان على الشيطان ، كيف يتسلط عليه الشيطان فيعبث به هذا العبث ، ويخلط عليه الوحى ؟ » قال : « وقد تضمن هذا الحديث أن الشيطان متجسم . لقوله : « هممت أن أربطه إلى سارية » ، وهذا باطل لأن الشياطين بسائط مجردة عن المادة كالملائكة والنفوس . وهذا قول الأنبياء والفلاسفة »

هذا ما ذكره فى هذا السؤال .

والجواب عنه : أما قصة إلقاء الشيطان على لسانه . ما ذكر فى سورة النجم فقد استفاض نقلها بين الأمة[1] ، ورواها الثقات ويدل على صحتها ما رواه

= المروية فى نزول هذه الآية ، وليس منها شىء يصح . وكان مما تموه به الكفار على عوامهم قولهم : حق الانبياء ألا يعجزوا عن شىء ، فلم لا يأتينا محمد بالعذاب وقد بالغنا فى عداوته ؟ وكانوا يقولون أيضا : ينبغى ألا يجرى عليهم سهو وغلط ، فبين الرب — سبحانه — أنهم بشر ، والآتى بالعذاب هو الله تعالى على ما يريد ويجوز على البشر السهو والنسيان والغلط إلى أن يحكم الله آياته وينسخ حيل الشيطان » ا . هـ

(١) استفاض نقلها بين العلماء الذين لا يخافون الله واستفاض ردها بين الراسخين فى العلم ، وكيف لا ترد ؟ وقد أجمعت الأمة فيما طريقة البلاغ على أن النبى ﷺ معصوم فى البلاغ عن الاخبار بشىء بخلاف ما هو عليه من الله لا قصدا ولا عمدا ، سهوا أو غلطا .

البخاري والترمذي وصححه عن عكرمة عن ابن عباس قال : « سجد الرسول ﷺ في سورة النجم فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس »

قلت : فسجود المشركين كان السبب المذكور لأنهم ظنوا أنه قد وافقهم بمدحه آلهتهم وصار الدين واحدا ، أو أنهم سجدوا لآلهتهم إعظاما لما سمعوا من مدحها . وأما الجن فلعلهم جاءوا يستمعون القرآن كما حكى عنهم فيه ، ولا محذور في هذه القضية بوجه من الوجوه لأن الأنبياء في الحقيقة بشر يجرى عليهم الخطأ والنسيان ويتطرق عليهم الشيطان(١)

وقد اختلف العلماء في أنهم معصومون من المعاصي مطلقا أو من الكبائر فقط أو منها عمدا أو من الصغائر كذلك ؟ وجوز بعض الناس عليهم الكفر بناء على أن مطلق المعصية جائز عليهم وهي كفر ، في خلاف كبير ، لكن اتفقوا على أنهم معصومون فيما يبلغونه عن الله من الوحي بحيث لا يلحقهم فيه خطأ ، وإن لحقهم فيه خطأ بسهو منهم أو تلبيس من شيطان إنسى أو جنى ، نبهوا عليه ، ولم يقروا عليه ، وهكذا جرى في هذه القصة ، وأخبر الله أنه يحكم آياته وينسخ ما يلقى الشيطان .

وأما تشنيعه بقوله « حاش لله ومعاذ الله أن يتسلط الشيطان على الأنبياء بمثل هذا » فلعمرى أن هذا ليس غيرة منه على الأنبياء ولا تعظيما لهم . فإن اضطرابه في هذا الكتاب بين الفلسفة والشرع يدل على أنه محلول الرابطة بالكلية أو مذبذب لا إلى هذا ولا إلى هذا . ولكن عناداً للإسلام . كما قيل : —

وما من حبه يحنوا عليه ولكن بغض قوم آخرينا

---

(١) أنهم معصومون من الخطأ في تبليغ كلمات الله .

ولعمرى أن منصب الأنبياء محفوظ ، ولكن هذا أمر جائز عليهم عقلا وشرعا ، ولسنا نعطيهم ماليس لهم ولا هم يرضون .

ولهذا قال نبينا ﷺ : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم » يعنى حيث إتخذوه إلها ، ولكل واحد رتبة لا يتجاوزها فرفعه عنها إفراط ووضعه عنها تفريط . أما جواز ذلك عليهم عقلا فلأنه لا يلزم منه محال لذاته ولا لغيره . وأما جوازه شرعا فثبت فى شرعنا : أن إبليس سلط على آدم فأخرجه من الجنة ، وماذكر فى التوراة من أن الحية أغوته[1] لا ينافى ذلك . لأن إبليس دخل فى فم الحية إلى الجنة فأغواه[2] .

وورد فى الآثار : أن موسى لما ذهب لمناجاة ربه على الجبل كان إبليس يدور حوله ، فقال له بعض ملائكة الرب : ويحك يا إبليس بم تطمع من موسى وهو فى هذا المقام ؟ قال : بم طمعت به من أبيه ، حين أخرجته من الجنة[3] .

وسلط على أيوب حتى أتلف جسده وماله إمتحانا من الله له بالصبر[4] وسلط بعض الشياطين على سليمان فأخذ خاتمه وألقاه فى البحر بعد أن ألقى عليه شبه سليمان ، فجلس على كرسيه أياما[5] . وذلك تأويل قوله تعالى : «ولقد

---

(١) التكوين ٣ : ١

(٢) هذا التوفيق لامبرر له ، لأن دفاعنا عن التوراة — إن بذلنا قصارى الجهد — لا يجدى لكثرة الاختلافات فيها .

(٣) هذا الأثر من الاسرائيليات .

(٤) أنظر سفر أيوب .

(٥) هذا الخبر من الاسرائيليات

فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ، ثم أناب »(١) . وكان سليمان مسلطاً على أصناف العالم .

---

(١) ص ٣٤ واعلم أن المؤلف رحمه اللهساير بعض المفسرين فى قولهم : أن الشيطان أخذ خاتم سليمان عليه السلام وجلس على كرسيه ووطء نساءه . وهذا من الخرافات التى جاءت بها كتب التفاسير ، وقد تصدى كثير من العلماء على نقد هذا الخبر ، والتمسوا تفسيرات لفتنة سليمان ، ففى تفسير فخر الدين الرازى : أن سليمان ابتلى بمرض شديد ، ضنى منه ، حتى صار لشدة المرض كأنه جسد ، أو جسم بلا روح « ثم أناب » أى رجع إلى حالة الصحة . ذكر ذلك عنه صاحب قصص الأنبياء الشيخ عبد الوهاب النجار . وفى القرطبى : « وقيل : إن الجسد كان سليمان نفسه ، وذلك أنه مرض مرضاً شديداً حتى صار جسداً ، وقد يوصف به المريض المضنى ، فيقال : كالجسد الملقى » .

ويقول الشيخ النجار :

« أقول : وعندى وجه لم يذكره أحد من العلماء . وهو أن كرسى داود إنما هو كرسى سليمان . لأن داود كان يرشح سليمان للملك والجلوس على كرسيه . وقد قام أبشالوم بن داود وثار على والده وانتزع الملك من داود وجلس على الكرسى — الذى هو فى الواقع كرسى سليمان — وهرب منه داود إلى شرق الأردن ، وسرح الجيوش لمقاتلته ، وباشر أبشالوم الحرب بنفسه ، فقتل أبشالوم إذ مر به بغله تحت بطمة فتعلق فى أغصانها من شعره فأتى رئيس الجند يوآب وقتله ، وعاد سليمان إلى كرسيه بعد أن تزعزع بفعل أخيه أبشالوم . وتضرع إلى الله وسأله ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده .

لاشك فى أن سليمان فى تلك الردة كان يعتقد إعتقاداً جازما لاشك فيه : أن الكرسى الملكى أفلت من يده ، ولا راد له سوى الله تعالى ، فاستغفره تعالى لما قد أسلف من هواجس نفسية لا يخلو منها من كان مثله فى سن الصبا » ا . هـ . =

وبهذا يحصل الجواب عما ذكره فى سياق حديث البخارى .

وقوله فيما سيأتى من كلامه : « هذا من الخرافات التى جاء بها القرآن » دعوى مجردة عامة مستندة فيها سكوت التوراة وكتب الأوائل عنها ، وذلك فى الحقيقة استدلال على نفى العلم الوجودى بالجهل العدمى ، وهو قلة معرفة بالمناظرة .

وقد صح عندكم فى الإنجيل : أن المسيح لما اعتمد يوحنا المعمدان سلط عليه الشيطان إمتحاناً له . فقال له : « إن كنت محفوظا فألق نفسك من أعلى هذا الهيكل . فقال له : مكتوب لا تمتحن ربك . وقال له : تسجد لى وأعطيك ممالك العالم كلها — وكانت قد رفعت له — فقال له يسوع : مكتوب أعبد ربك وحده »[1] .

معنى القصة هذا . وإذا جاز أن يتعرض الشيطان للأنبياء ويسلمون منه ،

= وعندى أنا تأويل افتتنة سليمان عليه السلام شبيه بما ذهب إليه الشيخ النجار ، وفى اعتقادى أنه أقرب إلى الصواب مما ذهب إليه . ففى الأصحاح الحادى عشر من سفر الملوك الأول أن سليمان أحب نساء لسن من بنى إسرائيل ، وكانت له سبع مئة من النساء والسيدات وثلاث مئة من السرارى . وتذكر التوراة أن نساءه أملن قلبه ، ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه — ونحن ننزه سليمان عن ذلك — وتذكر التوراة أن الرب أقام خصما لسليمان هو « هدد الأدومى » وخصما آخر هو « رزون بن أليداع » وخصما آخر هو « يربعام بن ناباط » وهؤلاء الخصوم ناوئوا سليمان فى حياته ، وأخذ يربعام من مملكة سليمان عشرة أسباط بعد موته ، وترك لابن سليمان سبطاً يحكم عليهما .

(١) متى ٤ : ١ — ١٠

فما المانع من أن يتعرض لهم ، وينال منهم . بل هذا ألزم عليكم . لأن المسيح عندكم هو الله أو ابن الله ، وقد عارضه الشيطان حتى لقى منه شدة على ما أشار إليه الإنجيل ، أو صرح به ، فالأنبياء لا يبعد أن ينال منهم ، ثم يتداركهم الله بعصمته . وقد سحر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بعض شياطين اليهود حتى أثر ذلك فى أفعاله ، ثم شفاه الله من ذلك ، وأنزل عليه المعوذات [١] .

وبالجملة . الأنبياء بشر ، والبشر عرضة لهذه الآفات وغيرها . ثم يتداركهم الله بعصمته من شاء . وإذا كان إلهكم المسيح سلط عليه شياطين اليهود ، الذين كيدهم دون كيد الشيطان الحقيقى بكثير ، فصلبوه وأهانوه ودفن ثم بعث بعد ثلاثة أيام — على زعمكم — فكيف لا يتطارق على الأنبياء الذين هم دون رتبة الألوهية بكثير شيطان الجن الذى هو أقوى كيداً من شياطين الإنس بكثير ؟ هذا مما لا يعقله عاقل ولا عادل .

نقول لهذا الخصم : ما نرى مثلك فى تنزيهك للأنبياء عما ذكــــرت حكى عن بعض النساء الخفرات أنها مرت على رجال فاستحيت منهم ، فكشفت ثوبها عن استها حتى غطت وجهها ، وكرجل قال لرسوله : إذا وصلت إلى فلان فسلم لى عليه وصك لى قفاه . فإنك تنزه الأنبياء عن أن يتعرض لهم الشيطان تعرضا مأمون العاقبة متداركا بالعصمة الإلهية . ثم إنك تصدق ما فى التوراة من أن رو بيل بن يعقوب وطىء سرية أبيه ، ونجس فراشه [٢] ،

---

(١) أنكر كثير من العلماء أن النبى سحر — وإنكارهم فى موضعه لأن الله تعالى يقول عنه : « والله يعصمك من الناس » (المائدة ٦٧) ولو صــــدقنا سحر النبى صلى الله عليه وسلم ، لجاز الشك فى الوحى ، إذ من المحتمل أن يترك من الوحى شيئا ، أو يتهاون فيه ، وهذا هو غرض واضعى الحديث .

(٢) التكوين ٣٥ : ٢٢

وأن يهوذا (١) وجد كنته زوجة ابنه على الطريق فى صورة زانية ، فزنا بها بجدى ، ثم رهنها به خاتمه وعمامته وقضيبا كان فى يده ، ثم إن لما ظهر حملها أمر بحرقها فلما عرفته أن الحمل منه وأرته العلامة أمر بتركها . وأن « شكيم » زنا ببنت يعقوب ، ثم خطبها ، وأن ذلك أغضب إخوتها حتى خدعوهم باقتراح الختان عليهم ، ثم دخلوا وهم مرضى من ألم الختان فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم (٢) . وأن لوطا لما نجا من عذاب قومه أسقته ابنتاه الخمر ، ثم ضاجعتاه فوطئهما فأحبلهما(٣) . وهذا منصوص مصرح به فى التوراة التى بأيديكم وأنتم مع ذلك تحتجون علينا بما فيها . وهذه حكايات — والله — يتنزه سوقة الناس ورعاعهم وأراذلهم عنها . بل عما هو دونها ، وأنتم تنسبونها إلى الأنبياء . فلعن الله من قال ذلك ، ومن يصدقه ، فما أسرع ما نسيتم العدل والإحسان الذى أمركم به المسيح فى الانجيل . لقد أطعتموه فى ذلك كما أطاعته اليهود حيث فعلوا به ما فعلوه من الإهانة والصلب ، فعليكم جميعاً من الله ما تستحقونه .

فإن صدقت بما فى التوراة من هذا الهذيان فيكفيك ذلك جهلا وحمقا وقلة عقل، وسخافة رأى وزندقة حيث تنسبون الأنبياء المعصومين المعظمين إلى المكر والخداع والزنا بالأجانب وبالبنات وسرارى الآباء ، وإن لم تصدقوه ، فكيف تحتجون علينا بكتب فيها مثل هذا الفشار؟

وقوله : « تضمنت هذه القصة باطلين . أحدهما : نسبة الرسل إلى هذه المثلية والافتراء عليهم بذلك » .

---

(١) التكوين ٣٨
(٢) الاصحاح الرابع والثلاثون من التكوين
(٣) الاصحاح التاسع عشر من التكوين

قلنا : قد بينا أن هذا لا غضاضة عليهم فيه ، وليس هذا افتراء عليهم لأنه نبي معصوم مثلهم . وقد أخبر عنهم بما أوحى إليه .

وأما الباطل الثانى وهو إخباره بأن الأصنام شفاعة فليس ذلك من إخباره ، وإنما الشيطان أخبر به على لسانه . وقد بينا أن لا محذور فى ذلك ، ثم نسخه الله . وإنما كان يتجه القدح أن لو لم ينسخ واستمر ، لكنه لم يستمر بحمد الله .

وفسر بعض العلماء إلقاء الشيطان فى أمنيته وعلى لسانه بأنه نطق ما نطق به مقارنا لنطقه فاشتبه صوته بصوته . وهو أول ما يقال . وبهذا يكتفى المحذور بالأصالة جدا ، ثم بينه هاهنا لدقيقة ، وهى أن قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ، ألقى الشيطان فى أمنيته » لا يقتضى كل رسول ونبى تمنى ، وألقى الشيطان فى أمنيته بل يقتضى أن من وجد منه التمنى كما وجد منك « ألقى الشيطان فى أمنيته » كما ألقى فى أمنيتك وذلك لأن الإلقاء وقع فى جواب إذا الشرطية التى ينتفى مشروطها لانتفاء شرطه ، فحينئذ نقول : قد يوجد التمنى من بعض الأنبياء فيوجد الإلقاء من الشيطان وقد لا يوجد التمنى فلا يوجد الإلقاء . هذا مقتضى الآية لفظاً .

أما عقلا فيقتضى أن كلهم تمنوا ، وكلهم ألقى فى أمنيته لأن الله سبحانه بعثهم رحمة للخلق ، فمن المحال عادة أن نبياً يبعث إلى أمة ، ولا يتمنى رشادها وهداها واتباع ما جاء به من الحق ، وترك هواها .

وأما قوله فى حديث البخارى : « من له هذا السلطان على الشيطان ؟ » كيف يعبث به الشيطان هذا العبث ؟ ، فقد سبق جوابه عند ذكر عبث الشيطان بسليمان ، ونزيد هنا بأن نقول : هو وإن كان له على الشيطان هذا السلطان

لكن يجوز أن يسلط عليه الشيطان بإذن الله لحكمة . وقد بين الله سبحانه الحكمة فى ذلك حيث يقول : « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض » يعنى الكفار والمنافقين كانوا قد أيسوا من محمد أن يعبد آلهتهم ، أو يسكت عن ذمها ، وقد ضجر بعضهم وهم أن يدخل فى الاسلام فألقى الشيطان على لسانه مدح الأصنام ليظنوا أنهم منها على شىء فيتمسكوا بعبادتها ، وأن لها قدراً عند محمد ، فيطمعون فى إجابته إلى عبادتها أو الكف عنها ، فأمسك من كان أراد الدخول فى الاسلام عنه بهذا السبب ، حتى مات كافراً ، وظنوا أن رجوع محمد عن مدحها بعد إلقائه على لسانه عناد لها ورجوع عن الحق فى أمرها . وهذه الآية من أكبر الأدلة على إثبات القدر . وسيأتى عند ذكر هذا الخصم له .

وأما قوله : « تضمن هذا الحديث أن الشيطان متجسم » .

قلنا : نعم . وقوله هذا باطل وهو أن الشياطين بسائط مجردة عن المادة قلنا : أعن المادة العنصرية الكثيفة التى هى كمواد الآدميين ؟ أو عن المادة مطلقاً ؟ الثانى ممنوع . والأول مسلم فإن لهم مادة لطيفة ، وكذا الملائكة فإن الشياطين خلقوا من نار ، والملائكة من نور ، كما صح فى السنة النبوية . ثم كيف يصح دعوى تجردهم عن المادة مطلقا . وقد ذكر فى الأناجيل فى نحو عشرين موضعا . منها : أن المسيح كان يخرج الشياطين من الناس ، وأن بعض الشياطين استغاث منه ، وقال : « ما لنا ولك يا مسيح بن الله[١] » وأنه أخرج الشياطين فى بعض المرات إلى قطيع خنازير فأخذوها حتى دعوها فى البحر فغرقت[٢] ، وأنه أخرج من « مريم المجدلية » سبع شياطين ، ولذلك لازمته

---

(١) الأصحاح الخامس من إنجيل مرقس

(٢) مرقس «

خدمته حتى مات ، وكانت أول من رآه بعد قيامه من الأموات . وبشرت به التلاميذ[١] ، فهل يصح عند عاقل أن يدخل فى الحيوان ويخرج منه ويستغيث ويصوت إلا جسم ؟

وأما قوله : إن هذا هو قول الأنبياء والفلاسفة . فهو كذب ، وافتراء على الطائفتين ، أما على الأنبياء فلأن إبراهيم وإسحق ويعقوب كانوا يرون الملائكة أجساماً . وقد صرح فى التوراة أن « يعقوب » لما عاد من « حوران » إلى « كنعان » عرض له عند قرية « باق » رجل فصارعه إلى أن أسفر الصبح ، وقال له فى آخر القصة : « أنت إسرائيل لأنك قاومت الملاك والرجل »[٢] ، فنقول : هذا إما[٣] ملاك أو شيطان ، وأيهما كان ، بطلت دعوى هذا فى أن ما ذكره مذهب الأنبياء . لكنى رأيت بعض النصـــارى قد تدمغ وزعم أن المصارع ليعقوب هناكان هو الله ، وهذا رأى المجانين ، وهو نظير قولهم إن المسيح هو الله ، وبذلك استدل على هذا ، يعنى : أن الله سبحانه لا يظهر للناس حتى يتأنس بهم ، ويظهر فى مظاهرهم . وأما على الفلاسفة فلأنهم يزعمون : أن الملائكة قوى الأفلاك ، والشياطين قوى النفوس الأمارة والله أعلم .

• • •

قال : « ولقد نقل فى أخباره عن ملك سليمان خرافات . أفصح بها القرآن

---

(١) « وبعد ما قام باكرا فى أول الأسبوع ظهر أولا لمريم المجدلية التى كان قد أخرج منها سبعة شياطين » (مرقس ١٦ : ٩)

(٢) الأصحاح الثانى والثلاثون من سفر التكوين .

(٣) المصارع ليعقوب ملك من الملائكة لأنه فى سفر هوشع عن يعقوب : « فى البطن قبض بعقب أخيه ، وبقوته جاهد مع الله ، جاهد مع الملاك وغلب . بكى واسترحمه . وجده فى بيت إيل ، وهناك تكلم معنا » (هو ١٢ : ٣ - ٤)

من ذلك فى سورة النمل : « وورث سليمان داود [١] » إلى قوله : « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » وذكر كلاما يتعلق بتفسير ذلك عن ابن عطية حكاه عن ابن سلام وابن عباس وغيرهما .

ثم قال : « فانظر بعقلك أيها المسترشد إلى هذه الحكاية ، وما تحتوى عليه من الأمور التى لو كانت لسليمان أو بعضها لسبق ذكر ذلك فى المصاحف لأنها من العجائب التى تتوفر الدواعى عـلى نقلها . فعلم أن تلك خرافات موسوسة » .

قلت : أما ما ذكره ابن عطية وغيره من المفسرين فلسنا بصدد الجواب عنه ، لأنا لسنا على يقين من صحته ، وهم ليسوا معصومين [٢] . وإنما نحن بصدد الجواب عن القرآن الكريم ، الصادر عن المعصوم ، على لسان المعصوم بواسطة المعصوم .

والجواب : إن ما ذكر فى سورة النمل وغيرها من سور القرآن من الحكايات والقصص والعجائب ممكن أخبر به الصادق [٣] ، وكل ممكن أخبر به الصادق

---

(١) سورة النمل ١٦ وما بعدها .

(٢) قول المؤلف رحمه الله : أنه ليس على يقين من صحة كلام المفسرين ، وهم ليسوا معصومين : قول حسن . ولماذا لم يمش فى كل الردود عليه ؟

(٣) أخبرت التوراة عن عجائب سليمان التى ينكرها النصرانى يغالط ، والمؤلف لم يكلف نفسه ان ينظر فى التوراة . ومن نصوصها : « وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب ، فأتت لتمتحنه بمسائل . فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جدا بجمال حاملة أطيابا وذهبا كثيرا جداً وحجارة كريمة وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها ، فأخبرها سليمان بكل كلامها . لم يكن أمر مخفيا عن الملك لم يخبرها به =

فهو حق واقع . فما ذكر فى سورة النمل وغيرها حق واقع أما إمكانه فلا نزاع فيه من سمعه من العقلاء . إذ الممكن ما لا يلزم من فرض وقوعه محال .

وأما كون الذى أخبر به صادق فلوجوه :

أحدها : ظهور المعجزات الخوارق على يديه. وسنذكرها ، وبرهان إثباتها فيما بعد ، عند قدحك فى القرآن فى شرط المعجز .

الثانى : ما اشتهر من أن قريشا ما كانت تسميه منذ كان صبيا حتى ادعى النبوة إلا « الأمين » ، وإنما كذبوه فيما بعد ذلك ، لكونه أخبرهم بحقائق إلهية لم تدركها عقولهم . وذلك جهل منهم بأحكام الشرائع . وأنت قد قدمت عند بيان ضرورة النبوة : أن العقل لا يستقل بمعرفة الحقائق الإلهية ، بدون تأييد إلهى ، ولتكذيب اليهود للمسيح ، وكان صادقاً .

الثالث : الطريق التى استدل بها « هرقل » ملك الروم على صحة نبوته . وأنا أسردها بكمالها تكميلا لفائدتها :

قال البخارى : حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، قال : أخبرنا شعيب عن الزهرى ، قال : أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله ابن عباس أخبره ، أن أبا سفيان بن حرب أخبره :

أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ، وكانوا تجارا بالشام ، فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش ،

= فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذى بناه ، وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التى كان يصعدها فى بيت الرب لم يبق فيها روح بعد . . . الخ » (الملوك الأول ١٠ وأخبار الأيام الثانى ٩)

فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم فى مجلسه وحـوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعى بالترجمان . فقال : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقلت : أنا . قال : أدنوه منى ، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره . ثم قال الترجمان قل لهم : إنى سائل عن هذا الرجل ، فإن كذبنى فكذبوه ، فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا على كذبا لكذبت عنه . ثم كان أول من سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها . قال : ولم تمكننى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا ، وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول :

أعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا، واتركوا مايقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها . وسألتك : هل أحد منكم قال هـذا القول ؟ فذكرت أن لا . فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله . وسألتك : هل كان من آبائه ملك ؟ فذكرت أن لا ، فلو كان من آبائه من ملك ، قلت رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا . فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم

ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل . وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه ، بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا . وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب . وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر . وسألتك بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف . فإن كان ما يقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت قدمه .

قلت : فهذا حديث صحيح ثابت بإجماع المسلمين[١] ، ويستحيل عادة اختلاق مثله . ثم لو سلم أنه مختلق ، لكن هذه القضايا التي فيه مشهورة . مثل أنه لم يكن في قومه ولا ملك ، وأنه غير كاذب ولا غادر ونحوها .

---

(١) هذا الحديث في البخاري ، وهو من أحاديث عسل البخاري . فان البخاري عنده في صحيحه سم موضوع في العسل ، ولا أدري هل هو متعمد وضع السم في العسل ، أم أن الرواة ضحكوا عليه ؟ وهذه المسألة لم أبحثها بعد . ومن أحاديث سم البخاري : أن النبي صلى الله عليه وسلم سحره يهودي من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء ولا يفعله ، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث ـ في غير الصحيح : سنة ـ ثم قال يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه : أتاني ملكان ، فجلس أحدهما عند رأسي ، والآخر عند رجلي . فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي : ما شأن الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم . قال : في ماذا ؟ قال : في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر ، تحت رعوفة في بئر ذي أروان فجاء البئر واستخرجه .

ووجه الاستدلال منها ظاهر جداً ، فلو وفق النصارى كلهم لما وفق له هذا الملك ، لأفلحوا كل الفلاح ، ثم مقصودنا منه : استدلاله على صدقه بقوله : « لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله » .

وهكذا النجاشي ملك الحبشة لما سمع ما أنزل على محمد في سورة مريم من صفة المسيح حيث يقول : « إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا [1] » الآيات . قال : « ما عدا المسيح ما قال هذه » يعني عوده في يده ، وفي أصحابه وبكى في حديث طويل ، وهو حديث أم سلمة عند هجرتهم إلى الحبشة ، وفيه وفي أصحابه أنزل الله سبحانه : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى » إلى قوله : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق [2] » .

فهؤلاء ملوك النصارى يعترفون بالحق ، ويصيرون إليه ، فلا عبرة بقدح حثالتهم ورعاعهم .

وإنما قلنا : إن كل ممكن أخبر به الصادق فهو حق واقع لوجهين :

أحدهما : أنه لو لم يكن كذلك لم يكن لأحد وثوق بإخبارات الله ورسله وليس كذلك .

الثاني : لو لم يكن كذلك لم يكن الخبر صادقا . لكنا فرضناه صادقاً . هذا خلف .

وأما قوله : « لو كانت هذه الأمور لسليمان ذكرها في المصاحف » فجوابه

---

(١) مريم ٣٠

(٢) المائدة ٨٢

سبق فى غير موضع . وهو أن هذا الاستدلال على الوجود المحض بالعدم المحض وهو جهالة .

وكم من واقعة عظيمة وغيرها قد وقعت فى ملك الله لم تذكر فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن . وقد قال الله سبحانه لمحمد عليه السلام فى القرآن « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك . وكلم الله موسى تكليما[1] » وقال لليهود لما سألوه عن الروح : « قل : الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا[2] » .

. . .

قال : « وفى سورة الأحقاف : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن[3] » وفى سورة الجن : « قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن . فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا[4] » الآيات وذكر ما ذكره ابن عطية وغيره فى تفسير هذا من رمى مسترق السمع لمبعثه صلى الله عليه وسلم وأنهم تفرقوا ينظرون ما السبب ؟ فوجدوا النبى عليه السلام يقرأ فعلموا أنه سبب منعهم وذكر حديث مسلم من رواية ابن مسعود قال : فقدنا النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فقلنا : اغتيل ، أو استطير ، فلما كان وجه الصبح إذا هو يجىء من قبل حراء ، فقال : إنه « أتانى داعى الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن » قال : فانطلق بنا ، فأرانا آثارهم ، وآثار نيرانهم . قال الشعبى : سألوه الزاد وكانوا

---

(١) النساء ١٦٤
(٢) الإسراء ٨٥ .
(٣) الأحقاف ٢٩
(٤) الجن . الآيه الأولى وما بعدها .

من جن الجزيرة فقال « لكم : كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما ، وكل بعرة علف لدوابكم » قال : « ولا تستنجوا بهما ، فإنهما زاد إخوانكم من الجن [1] » رواه أحمد .

قال : « وقد تقدم العلم بأن الشياطين بسائط مجردة عن المادة ، فكيف يصطلى بالنار ويركب الدواب ، ويغتذى بنخر العظام ؟ واتفق عقلك على أن هذا حق فتزحزح عن الآدميين ، والحق بالبهائم » .

قلت : الجواب عن هذا من وجوه :

أحدها : أنا قد بينا فيما تقدم : أن الشياطين ليست مجردة عن المادة مطلقا بل إن صح أن لها تجرداً عن المادة فعن الكيفية . وحينئذ يجوز أن يرد عليها هذه الأفعال بحسب مادتها . ودلالة الإنجيل قاطعة فى نحو عشرين موضعاً منه على عدم تجردها . كما سبق .

الثانى : أن البارى — سبحانه وتعالى — إن قلتم ليس مجرداً عن المادة ، فقد جعلتم الملائكة والشياطين أكمل منه ، وإن جردتموه عن المادة فقد جوزتم بالشبه بالإنس حتى يمازجهم ويظهر فى مظاهرهم كظهوره فى ناسوت المسيح حتى صار يأكل ويشرب ويتغوط ويقتل ويصلب ويرد الجمار ويشرب الخمر ويحيى العظام النخرة فيجعلها أوفر ما كانت لحما ويصلى ويتعبد ، فجواز ذلك على الجن الذين هم بعض خلق الله سبحانه يقدر به عليهم ، ويصرفه فيهم أولى وحينئذ لا يمتنع أن الجن إذا أرادوا الطعام خلق الله لهم على ما وجدوه من العظام لحما يأكلونه ، وإن كنا نحن لا نرى ذلك إذ لا حاجة بنا إليه فلا يوجد اللحم عليها حين نراها .

---

(١) الحديث كتبه القرطبى فى تفسير سورة الجن

فإن قيل : المسيح كان يفعل ما ذكرتم من الأفعال بناسوته لا لاهوته .

قلنا : هذا باطل . فإنكم صرحتم بأن المسيح هو مجموع اللاهوت والناسوت وأن المسيح هو الله ، وأنه إنما ظهر ذلك المظهر بطريق التأنس بالإنس ، والانتقال من حال إلى حال .

كذا قرره « ابن الأمثل » مطران « حمص » منكم ، بنحو عشرين حجة من التوراة والإنجيل .

منها : أن الله ـ سبحانه ـ ظهر ليعقوب حين قدومه من عند خاله فصارعه إلى الصبح . وهذه من جملة الحجج عليكم .

الثالث : أن هذا وأمثاله من الحقائق الإلهية التي لا يستقل العقل بدركها فيجب علينا تسلمها عن الشرائع . وإنما ينكر هذا فيلسوف لم يرض نفسه في علوم الشرائع .

على أني أراك أيها الخصم مذبذبا . تارة فيلسوفا صلفا ، وتارة متشرعا جلفا فأراك كما قال بعضهم لامرأته :

إني رأيتك في الهوى ذواقة ... لا تصبرين على طعام واحد

* * *

قال : « وانظر أيضاً إلى قوله في سورة الرحمن يصف نساء الجنة ، الحور العين : « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » قال ابن عطية في التفسير : « قال مجاهد : الجن قد يجامع نساء الإنس مع أزواجهن ، إذا لم يذكر الزوج : الله تعالى » فنفى في هذه الآية جميع المجامعات . قال ضمرة بن حبيب : « الجن

فى الجنة لهم قاصرات الطرف ، يعنى النساء من الجن ، فنفى فى هذه الآية الاختصاص بالبشريات والجنيات » .

قلت : هكذا وجدت كلامه ، وهو مخبط لا يظهر منه وجه الإشكال (١) . لكنا نقول : أما قول مجاهد وضمرة بن حبيب فلسنا منه فى شيء ولا يرد علينا لو عارض غيره (٢) ، وأما معنى الآية فهو : أن لمن خاف مقام ربه فى الجنة نساء أبكاراً لم يفتضضهن قبلهم أحد ، إنسى ولا جنى . ثم تلك النساء يجوز أن يكن نساءهم فى الدنيا ، يعدن أبكاراً كما قال تعالى : « كما بدأنا أول خلق نعيده (٣) » ويجوز أن يكن منشئات من الجنة .

---

(١) وجه الإشكال : أن القرآن أثبت للجن جماعا مثل جماع الإنس ، وبذلك يكون أجساماً . والنصرانى ينفى عنهم الجسمية ويثبت أنهم بسائط مجردة عن المادة

(٢) فى تفسير القرطبى : « قال مجاهد : إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله ، فجامع معه ، فذلك قوله تعالى : « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » وذلك بأن الله تبارك وتعالى وصف الحور العين بأنه لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . يعلمك أن نساء الآدميات قد يطمثهن الجان ، وأن الحور العين قد برئن من هذا العيب ونزهن . والطمث الجماع ، وعن أبى هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كان أحد أبوى بلقيس جنيا » ذكره القرطبى فى سورة النمل . ونحن لا نصدق هــذا الحديث . ولكن نعتقد صحة معناه وهو أن رجالا من الإنس قد يجامعون نساء من الجن ، ورجال من الجن قد يجامعون نساء من الانس والواقع يشهد بذلك . وقال الترمذى الحكيم : فللجن مساماة بابن آدم فى الأمور والاختلاط فمنهم من يتزوج فيهم » (القرطبى ج ١٠ : ٢٨٩) والمؤلف يعترف بذلك فى قوله فيما بعد : « وهذا لا ينفى أن الجن يجامعون نساءهم أو نساء غيرهم فى الدنيا أو فى الآخرة » .

(٣) الانبياء ١٠٤

وذكر حديث « إذا أذن بالصلاة أدبر الشيطان له ضراط » الحديث .
وحديث : « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ويشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ، ويشرب بشماله » .

قال : « وهذا كله تصريح باغتذاء الشياطين وجماعها » .

قلت : هذا كله إشكال يورده بناء على ما قرره من أن الشياطين بسائط مجردة عن المادة ، ولا يتأتى منها ذلك .

قلت : وكأنه يورد تناقضا(١) آخر بين قوله : « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » وبين قول مجاهد : « الجن قد يجامع نساء البشر » وقول ضمرة بن حبيب « الجن في الجنة لهم قاصرات الطرف » .

قلت : وجوابه من وجهين : —

أحدهما : منع التناقض بما بيناه من أن المراد بالآية أن كلا من أهل الجنة له زوجات أبكار ، لم يطمثهن قبله غيره . وهذا لا ينفي أن الجن يجامعون نساءهم أو نساء غيرهم في الدنيا أو في الآخرة .

الثاني : أن التناقض بين قول الله سبحانه وأقوال المفسرين لا يلزمنا . لأن الخلاف بينهم كثير . فإن ألزمنا ذلك طـــال علينا . ولأنهم ليسوا

---

(١) النصراني لا يورد تناقضا كما فهم المؤلف ـ رحمه الله ـ بل يثبت أن علماء المسلمين من أثبت للجن جماعا للإنس ، كما أثبت القرآن في قوله « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » فالآية تثبت أن الجن يطمث لكن في نساء الحور العين لا يطمث .

معصومين فيجوز أن يخطئوا .

. . .

قال : « وفى البخارى من حديث أبى هريرة عن النبى قال : « إذا استيقظ أحدكم من نومه فليستنثر ثلاثاً . فإن الشيطان يبيت على خيشومه » وفيه : « لا تتحروا بصلاتكم طلوع الشمس وغروبها ، فإنهما تطلع بين قرنى الشيطان » .

قلت : وجه سؤاله من هذا ما قدمه من أن الشيطان بسيط مجرد عن المادة فكيف يبيت على خيشوم الآدمى ؟ وذلك يستدعى أن يكون جسماً . وكيف يكون له قرنان ؟ وأيضاً : الشمس مثل الأرض مراراً كثيرة فكيف تطلع بين قرنى شيطان ؟ .

والجواب[1] : قد تكلمنا قبل على بساطة الشيطان وتجرده عن المادة ، ومنعناه مطلقاً . بل هو مجرد مقيد — كما سبق —

وحينئذ يصح منه المبيت على خيشوم الآدمى وأم رأسه ، ليزين له النوم ويثقله فيه ، كى لا يستيقظ بالليل فيصلى . كما ذكر فى حديث آخر : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد ، فكلما أراد أن يستيقظ قال له :

---

(١) أحسن ما يقال فى الإجابة : إنها أحاديث للترغيب فى صالح الأعمال والترهيب من النار ، وليست على الحقيقة . وقريب من هذا قول المؤلف إنها على التمثيل . وأما كراهة الصلاة حال طلوع الشمس وغروبها . فهذا ليس على إجماع من فقهاء أهل السنة كما جاء فى كتاب فقه السنة ، وفى كتاب تسهيل الأحكام للشيرازى الشيعى ليس من إشارة إلى أوقات الكراهة .

نم ، عليك ليل طويل . فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة . وإن توضأ انحلت عقده ، وإن صلى انحلت عقده ، فأصبح نشيطا . وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » .

وهذا من الأسرار الإلهية التي اعترف الخصم في أول كتابه : بأن العقول لا تستقل بإدراكها .

وقد ذكر في الإنجيل : أن المسيح بعد قيامه من الأموات صار روحا مجرداً يظهر لمن شاء ، ويختفي عمن شاء[1] . فكذلك الملائكة والشياطين في ظهورها واستخفائها . وأما قوله : « تطلع بين قرني الشيطان » فقال بعض أهل العلم ، بغريب الحديث : أي ناحيتي رأسه وجانبيه .

قلت : وهـــذا لا ينافي عظمها في نفسها ، كما تقول خرجت بين الجبلين والجدارين ، كما سبق في قوله « تغرب في عين حمئة » ومعناه : أن الشيطان يقارنها على جهة المسامتة ، لا الملاصقة ، كما تقارن بعض الكواكب السبعة بعضاً ، وإن كانت في أفلاكها متباعدة المراكز والذوات ليزين للكفار السجود لها .

وقال بعضهم : القرن : القوة . أي حين تطلع يتحرك الشيطان ويتسلط فيكون كالمعين لها ، وقيل : بين قرنيه أي أمتيه الأولين والآخرين من الساجدين لها ، المطيعين له في ذلك ، أي أن عادة الكفار مستمرة في عبادة الشمس عند طلوعها أو غروبها ، فلا تصلوا حينئذ لئلا يصير فيكم شبه منهم . وهو عليه السلام من شرعه : بغض الكفار والتشبه بهم جداً ، حتى أنه يحسم مواد ذلك بكل ممكن كما ذكره في شرعية الصلاة إلى محراب فيه نار تتقد لئلا يشبه فعل

(١) آخر كل إنجيل

المجوس . وأن لا يشد وسطه في الصلاة بما يشبه شد الزنار ، لئلا يشبه فعل النصارى ، ولا يتعمم غير (   ) لئلا يشبه عمامة اليهود . وأشباه ذلك كثير . قال بعضهم : وكل هذا تمثيل لمن يسجد للشمس عند طلوعها ، فكأن الشيطان مقترن بها ، فيسول له ذلك .

قلت : ومثل هذه الإشارات كثيرة في كلام العرب خصوصاً في كلام هذا النبي ، فإنه كان أفصح العرب وأبلغها ، فليس ينبغي لعلوج النصارى وأعاجمهم أن يناقشوه في ظواهر العبادات ، حتى يعلموا لغته ، فيكونوا مثله . والله أعلم .

• • •

قال : « وفي كتاب مسلم عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن . قالوا : وإياك يا رسول الله . قال : وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير » وقال : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

قلت : ومن سبب هذا الحديث ما رواه الترمذي من حديث مجالد عن الشعبي عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تلجوا على المغيبات ، فإن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم . قالوا : ومنك ؟ قال : ومني . ولكن الله أعانني عليه فأسلم[1] » .

(١) ومثله عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن عفريتا من الجن تفلت عليّ البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع على الصلاة فأمكنني الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى

والمغيبات : اللاتى غاب عنهن أزواجهن . وفى لفظ مسلم : « لا يبيتن أحد عند امرأة إلا أن يكون ناكحاً أو ذو رحم محرم » .

قلت : ومستنده فى إنكار هذا ما قدمه من أن الشيطان بسيط مجرد عن المادة ، فلا يوصف بأنه يجرى مجرى الدم من ابن آدم . لأن ذلك يوجب جسميته ونحن قد منعنا ذلك عليه فى موضعه . وبينا قواطع الإنجيل فى جسميه الشيطان لكنها أجسام لطيفة ، للطافة مادتها . وبذلك يصح عليها أن تجرى من ابن آدم مجرى الدم وغيره ، كالأرواح والرياح ، فإنه قد قال بعض أهل العلم : « إن الروح جسم لطيف سار فى هذا الهيكل الكثيف على شكله ، والهوى يتخرق نواحى البدن ، حتى قال بعضهم : الروح هو الهواء المتردد فى مخاريق البدن ، على أنه يجوز أن يكون أراد بالشيطان هنا : النفس الأمارة ، أو الهوى لأن هذين يوافقان الشيطان على ما يريده ، وإذا اتجه ماقلناه ، واحتمل ما عليه حملناه . لم يبق للاعتراض به وجه .

وروى عبد الرزاق فى تفسيره . قال : أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله : « قال قرينه : ربنا ما أطغيته[1] » قال : « قرينه : الشيطان »

. . .

قال : « وفى سورة غافر يصف الملائكة حيث يقول : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين

== تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخى سليمان عليه الصلاة والسلام « رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى » .

(١) ق ٢٧

آمنوا (١) » .

قال ابن عطية فى التفسير : روى جابر بن عبد الله أن النبى قال : « أذن لى أن أحدث عن ملك من حملة العرش : من شحمة أذنه وعاتقه ، مسيرة سبعمائة سنة (٢) » .

قلت : إن كان إنكاره من هذا الإخبار بالعرش ، أو حملته ، أو لاستغفارهم المؤمنين ، فهذا من الأسرار الإلهية التى لا يستقل العقل بدركها ، كما سبق فى المقدمة ، فيجب تسلمها عن أهل الشرائع كما تلقيتم عن المسيح أنه بعد بعثه من الأموات صعد لجلس عن يمين أبيه (٣) . وأنه يأتى يوم القيامة فى مجد أبيه على السحاب ، وحوله الملائكة . وإن كان إنكاره لعظم خلقة هذا الملك المذكور فنقول له :

أولا : إن هذا حديث لم نعرفه إلا فى كتاب « العظمه » لأبى جعفر ابن حيان ، وليس مثله مما تصادم به الشريعه .

وثانيا : إن هذا أمر ممكن قد أضيف إلى قدرة الله ، وأخبر به الصادق ، فما ينكر من وقوعه ؟ ثم إن الجبال والبحار ، بل كرة الأرض ، بل كرة العالم جميعه بأفلاكه ونجومه خلق عظيم من خلق الله فلا فرق بينه وبين هذا الملك إلا الشكل والحياة .

على أن الفلاسفه يرون الأفلاك ونجومها أحياء ناطقة متحركة بالإرادة ،

---

(١) غافر ٧

(٢) هذا من الأحاديث التى كتبها القصاص والوعاظ .

(٣) انظر قانون إيمان النصارى .

فلا فرق إذن بينها وبين الملك المذكور ، وهذه مشاهدة لكل بصير مستبصر ، فما وجه إحالة مثل هذا حتى يقدح به فى كلام الأنبياء .

قال : « وفى سورة القصص : « كل شىء هالك إلا وجهه »(١) يعنى الله سبحانه — فجعل الفناء شاملا لما سوى الله تعالى من الملائكة والنفوس » .

قلت : كأن وجه إيراده : أن الملائكة والنفوس مجردات عن المادة لا يتصور فناؤها بناء على ماقدم من ذلك . وقد سبق جوابه ، وهو أن الهلاك ممكن فى الجميع ، ثم ينشئه الله تعالى — كما أخبر — ثانيا . أو نقول : ليس المراد بالهلاك العدم المحض ، بل هلاك هذه الهيئة التركيبية ، كما أن الوعاء من زجاج أو ذهب إذا انكسر فقد هلكت وعائيته ، لا زجاجيته وذهبيته ، وهذان قولان مشهوران للمتكلمين ، وهو أن الأجساد تعدم عدما محضا ، ونفياً صرفا أو تتفرق مع بقاء أجزائها المفردة . والمسئلة مبنية على مسئلة الجوهر الفرد ، وهو الجزء الذى لا يتجزأ ، وهى مشهورة بين الفلاسفة والمتكلمين .

* * *

قال : « وفى أول سورة فاطر « جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع » .

قلت : كأنه ينكر الأجنحة للملائكة لإستلزامها الجسمية بناء على ما سبق من تجردها عن المادة ، وقد سبق جوابه كافياً . وقد دفع الله سبحانه

---

(١) آخر القصص .

هذه الشبهة بقوله متصلا بالكلام المذكور : « يزيد فى الخلق ما يشاء » أى لا تستغربوا ملكا له جماعة أجنحة فإن لله التصرف والقدرة على ما يشاء .

* * *

قال : وفى سورة الزمر : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله »(١) وذكر قول ابن عطية عن السدى : « استثنى جبريل وميكائيل وملك الموت ، ثم أماتهم بعد » .

قال : « فصرح فى هذه المواضع : أن الملائكة مجسمة وأن لها أجنحة ، وهى كما يزعمن عند العلماء : عقول بسيطة مجردة . والموت عند مفارقة الروح الجسد ، ولا أجساد للملائكة » .

قلت : جواب هذا كله سبق عند أول مكان ادعى تجرد الملائكة والشياطين عن المادة .

وبينا أن ذلك لا مذهب الأنبياء ولا الفلاسفة .

ثم يقال له : التجرد عن المادة إن كان صفة نقص وجب تنزيه الملائكة عنها لأنهم أولى بالكمال فيلزم أن يكونوا ذوى مادة ، وإن كان صفة كمال فالله سبحانه إن لم يكن متجرداً عن المادة فقد جعلتم الملائكة أكمل منه ، وإن كان متجرداً عن المادة فقد جوزتم عليه التلبس بالمادة حيث إعتقدتم ثم إتحاد لاهوته بناسوت المسيح ، أو جعلتم الثلاثة واحداً .

وقد سبق جميع هذا . وإنما أعدناه بيانا .

* * *

(١) الزمر ٦٨ .

قال : « ومما روى عنه من أوصاف الله سبحانه » .

وذكر حديث « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا » وحديث جهنم « فيضع الرب قدمه فيها فتقول : قط » وحديث « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة » وحديث المعراج « فدنا رب العزة حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى » وحديث « رأيت ربي في أحسن صورة ، ووضع يده بين كتفي . حتى وجدت برد أنامله ... » وحديث أم الطفيل امرأة أبيّ بن كعب أنها سمعت النبي يذكر أنه رأى ربه في صورة شاب موفر ... على رأسه فراش من ذهب ، وفي رجليه نعلان من ذهب »

قال : « فتقرر بهذا كله : أن الله جسم ، وهذا مخالف للعقل ولصحف الأنبياء .

ويمتنع أن يكون الله سبحانه جسما لوجهين :

أحدهما : لو كان كان جملته معلولا لأجزائه ومفتقرة إليها ، وما علل بغيره جاز عدمه عند عدم علته ، وواجب الوجود هو ما لا يعدم لعدم غيره ، بل لعدم ذاته .

الثانية : أن الجسم مركب من الصورة والهيولى فينعدم بانعدام كل منهما . والواجب لاينعدم لإنعدام غيره ، كما سبق .

وأما بيان ذلك في كتب الأنبياء ، فإن في الإنجيل : « الله روح »[1].

قلت : هذا حاصل ماذكر في هذا السؤال ، وقدره . ولعمري إن هذا

---

(١) يوحنا ٤ : ٢٤ .

مما لا يقتضى منه العجب من هذا الشخص . فإن التوراة والإنجيل مملوءان من التجسيم .

فإن فى أول التوراة : « وكانت روح الله ترف على الماء » (١) والروح فيما نشاهده جسم . والحجج على جسميتها كثيرة ، لكن نكتفى منها بحجة طبيعية ذكرها الأطباء ، وهو اضطراب الصدر وحركته لها عند النزع .

فإن قال : إن روح الله ليست جسما ، وإن كانت روح غيره جسما .

قلنا : فقد أجبت عنا . كذلك كل ما حكى فى دين الإسلام من صفات الله تعالى ليست على المتعارف من صفات الآدميين ، ويسقط هذا التشنيع ، خصوصاً وقد ذكرت أنت فى بيان ضرورة النبوة عن «أرسطو» وغيره ما ذكرت من أن الحقائق الإلهية لا بد فيها من التوقيف الشرعى .

وفى التوراة : « قال الله : نخلق بشراً على صورتنا كشبهنا وأسلطه على سمك البحار وطير السماء » إلى أن قال : « وخلق الله آدم بصورته ، صورة الله خلقه . ذكراً وأنثى ، خلقهما الله وبارك عليهما » (٢) .

وفيها : أن آدم وامرأته « سمعا صوت الرب يمشى فى الفردوس فاستترا

---

(١) « وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه » وفى التوراة السامرية : « وريح الله »

(٢) « وقال الله : لنعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر ، وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض ، وعلى جميع الدبابات التى تدب على الأرض ، فخلق الله الإنسان على صورته . على صورة الله خلقه . ذكراً وأنثى خلقهم وباركهم الله » [تكوين ١ : ٢٦ — ٢٨] .

من بين يدى الرب بين شجر الفردوس ، وقال الله لآدم : أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك يمشى فى الفردوس ورأيت أنى عريان فاستترت . فقال الله الرب : ومن أراك أنك عريان ؟ لعلك أكلت من الشجرة التى نهيتك عنها »[١].

وهذا فيه تشانيع . منها : وصفه المشى حتى يسمع صوت مشيه فى الفردوس وهو من خواص الأجسام ، وأصعب من النزول المذكور فى السنة الإسلامية. ومنها : قوله « من أراك أنك عريان ؟ لعلك أكلت من الشجرة » فإن ذلك ظاهر فى أن الله سبحانه لم يعلم أين هو؟ ولا هل أكل من الشجرة أو لا حتى أعلمه آدم»

وفيها : « وأكمل الله أعماله فى اليوم السادس ، واستراح فى اليوم السابع »[٢].

والاستراحة من لواحق الأجسام . وهذا فى التوراة كثير .

وأما فى الإنجيل فقولكم : لما اعتمد المسيح من يوحنا المعمدان ، ثم صعد من الماء ، جاءه روح القدس فى جسد حمامة بين السماء والأرض ، وسمع قائلا يقول : « هذا إبنى الحبيب الذى به سررت »[٣].

ثم إنكم تقولون : « الآب والإبن وروح القدس : إله واحد » وهذا مستلزم للجسمية لوجهين :ـ[٤]

---

(١) الإصحاح الثالث من سفر التكوين .

(٢) « وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل ، فاستراح فى اليوم السابع » (تك ٢ : ٢) (٣) متى ٣ : ١٧ (٤) اقرأ الإيضاح كتاب الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام القرطبى .

أحدهما : أن الصوت لا يتصور عقلا وحساً إلا من جسم إذ هو عرض لا يقوم بنفسه .

والثاني : أن الآب والإبن والروح في هذه الحال ـ أعني صعود المسيح من السماء ـ بعضهم منفصل عن بعض حساً وحقيقة وإنكاره مكابرة . فإن كان ذلك بعد اتحاد الروح والمسيح بالله فقد انفصل عنه جسمان ، فيكون هو جسما لأن بعض الجسم جسم ، وإن كان قبل الاتحاد ، وأن إيجادهم حدث بعد ذلك ، فقد اتحد بذات الله جسمان : جسد الحمامة الذى هو الروح ، وجسد الإبن الذى هو المسيح ، ولا يتحد بالجسم إلا جسم . هذا على قول من يقول منكم : إن المسيح ابن الله .

أما من يقول : هو الله ، فالأمر فيه واضح!.

وقرر ذلك « ابن الأمثل » مطران « حمص » بأن قال : « إن الله لا يمكن ظهوره إلى العالم حتى يلابس ويتحد بهم ، وله مظاهر يظهر فيها ، كما ظهر فى حقيقة كبش فدى به ولده ، وليعقوب فى حقيقة رجل فصارعه ، فكذلك ظهر فى حقيقة المسيح » .

وفى الفصل الخامس من إنجيل متى : « لا تحلفوا بالسماء فإنها كرسى الله . ولا بالأرض فإنها موطىء قدميه »[1] .

وفى السادس والخمسين منه[2] : « من حلف بالسماء فهو يحلف بكرسى الله »

(١) متى : ٣٤ ـ ٣٥ .

(٢) فى التراجم الحديثة : الأصحاح الثالث والعشرون والآية المذكورة رقم إثنان وعشرون .

والجالس عليه ، فوصفه بالقدمين والوطء بهما ، وبالجلوس على الكرسى . وذلك من خواص الأجسام ، وإن لم يكن هذا تجسيما ، فما فى الوجود تجسيم أصلا . وإذا كان هذا مضمون كتبكم المعتمدة ، وتقرير أئمتكم وفضلائكم ، فكيف تنكرون علينا ماهو دونه فى ذلك بكثير . وعذرنا فيه أوسع من عذركم على ما سيأتى :

ولكن فى المثل : « رمتنى بدائها وانسلت »

وفى الشعر :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله　　عار عليك إذا فعلت عظيم

فابدأ بنفسك فانهها عن غيها　　فإذا انتهت عنه ، فأنت حكيم

وأما الأحاديث التى ذكرت فصحيحة ثابتة[1] إلا حديث أم الطفيل فإنه حديث موضوع لا أصل له . حكم بذلك أئمة الحديث . ثم لو صح لكان محمولا على رؤية المنام ، كحديث « رأيت ربى فى أحسن صورة » فإنه إن كان مناما باتفاق علماء المسلمين . صرح الترمذى وغيره بأنه كان مناما .

وأما حديث النزول والقدم والساق وغيرها من أحاديث الصفات[2] فلطوائف المسلمين فيها ثلاثة أقوال :—

---

(١) ثابتة عند المؤلف ، ولا يحتج بها على رأيه فى العقائد ، لأن العقائد لا تثبت بأحاديث الآحاد .

(٢) هذا الموضوع من باب المحكم والمتشابه . وبيانه هكذا : قول الله تعالى (ليس كمثله شىء) [الشورى ١١] محكم ، لأن له معنى واحداً وهو عدم المماثلة . وقول الله تعالى (الرحمن على العرش استوى) [طه ٥] متشابه ، لأن له معنيين : الجلوس على الكرسى ، أو الملك التام والسيطرة التامة على العالم . ＝

أحدها : اعتقاد مفهومها المشاهد منها . وهو قول المجسمة وهم عندنا في ذلك كالنصارى واليهود في ذلك .

والثاني : تأويلها على ما يصح في الشاهد ، ولو كان بعيداً ، كالنزول ، على نزول العلم أو الرحمة ، أو نزول ملك ينادي ، أو فعل من أفعال الله . والقدم على قوم يقدمهم إلى النار ، والساق على شدة الأمر وكرب الحشر ، ودنو الله سبحانه على تعطفه ، ورؤية بعيدة ونحو ذلك ، وهو مذهب الأشعرية والمعتزلة ونحوهم :

والثالث : اعتقاد ما يليق بجلال الله سبحانه منها ، مع القطع بتنزيه الله سبحانه عن مشابهة مخلوقاته أو بعضها ، بوجه من الوجوه ، اعتماداً على قوله تعالى : (ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير) فأول الآية تنزيه ، والثاني إثبات ، فهو أولى من الإثبات المفضي إلى التمثيل ، والتنزيه المفضي إلى التعطيل

= ولما كان له معنيين صار من المتشابه ، فلو أردنا معرفة مراد الله تعالى من المتشابه ننظر في الآية المحكمة ونعرف المعنى التي تدل عليه ثم ننظر في معنى المتشابه ، والمعنى الذي يكون من المتشابه متفقاً مع المحكم يكون هو مراد الله تعالى . والجلوس على الكرسي ليس هو مراد الله تعالى لأنه يستلزم المماثلة . والله ليس كمثله شيء . وعلماء السلف يقولون نحن نؤمن بالآيات المتشابهة ولا نفسرها ، ويقولون لله يد ليست كأيدينا ، فهم يثبتون وينفون في نفس واحد . وهم قد منعوا التأويل لأن الباطنية في زمانهم اتخذوا التأويل المبالغ فيه وسيلة للطعن في الدين . وأنا قد أجهدت نفسي لأحولها إلى مذهب السلف ، وما تيسر لي . لأن الأدلة على التأويل والتنزيه تمنع من الركون إلى كسل العقل وغفلته . وقد وضحنا ذلك في كتابنا الله وصفاته في اليهودية والنصرانية والإسلام وفي كتابنا أقانيم النصارى وذكرنا آيات التوراة والإنجيل التي تدل على نفي التجسيم وأقوال علماء اليهود والنصارى فيما يوهم التجسيم.

وهذا هو الذى أقول به ، ولى أن ألتزم القول قبله فى هذا المقام ، لأنى وهذا الخصم ، نبحث فى دينين متقابلين ، لا فى مذهبى دين واحد ، على أنى أى القولين التزمت لا يلزمنى من قبح التجسيم ما لزمك .

وأما ما ذكرت من الحجتين على نفى الجسمية فقد سبقك إليه الفلاسفة والمتكلمون .

وقد قرر المسلمون فى ذلك براهين كثيرة ، فلم تأت أنت بغريبة ولا بشىء نازعناك فيه ، بل نحن أحق به منك ، فأيا نحن يمكننا الجمع بينه وبين ما عندنا من آيات الصفات وأخبارها بما قدمناه من القولين المختارين . وأنت لا يمكنك الجمع بينه وبين أن المسيح هو الله ، أو القول بالثالوث إن كنت نصرانياً حقاً وإن كنت فيلسوفاً ، فمالك وللمذهب النصارى . تكلم فى رأى أرسطو ونحوه .

ودع عنك الشرائع لست منها ولو غبرت وجهك بالتراب

فإنك رجل مذبذب بين الرأيين كالشاة العائرة بين الغنمين .

وأما قوله : « إن هذا مخالف للعقل ، ولمصاحف الأنبياء » .

فإن أراد أن المخالف لذلك كون الله جسماً فهو صحيح ونحن نقول به . وإن أراد وصف الله سبحانه بنحو النزول والقدم والساق فباطل من الأنبياء . فإن فى أول الأصحاح الخامس عشر من كتاب أشعياء (١) :

« هذا اسم الرب جاء من بعيد ، يشتعل غضبه ، والحريق عظيم ، شفتاه

---

(١) هذا النص فى الأصحاح الثلاثين من سفر أشعياء ترجمة البروتستانية بمصر سنة ١٩٧٠ الآية السابعة والعشرين وما بعدها .

ممتلئتان غضباً، ولسانه كالنار المتقدة، ونفخته كنهر غامر يبلغ إلى الرقبة لغربلة الأمم بغربال السوء، وعلى فكوك الشعوب رسن مضل».

فإن قلت: هذه صفات اسم الرب، لا صفات الرب.

قلت: الإسم إن كان هو المسمى، فهذه صفات الرب بلا شك، وإن كان غيره فالإسم معلوم الحقيقة، وهو لا يتصف بهذه الصفات، ويجب رجوعها إلى الرب. ويكون ذكر الإسم صلة كقول القائل:—

إلى الحول، ثم اسم السلام عليكما

وقول الآخر:

تناديه باسم الماء، وهو كثير

وفي الأصحاح الثالث[1] والعشرين منه: «اسمع قولي يا يعقوب، وإسرائيل الذي دعوت. أنا الأول وأنا الآخر، ويدي أصلحت أساس الأرض، ويميني بسطت السماء».

وفي الأصحاح التاسع[2] عشر منه: «هذا الله الرب، يأتي بعزه، وذراعه بقوة، ثوابه معه، وعمله بين يديه، إلى أن قال: وشبّر السماء بشبره، وكال تراب الأرض بكفه، ووزن الجبال بالمثقال، والآكام بالميزان».

وهذا كثير في كتب الأنبياء، لو تتبعته لطال. وهذه صفات ظاهرها المتعارف التجسيم، فجوابك عنها هو جوابنا عما ذكرت من الأقاويل.

---

(١) هذا النص في الأصحاح الرابع والأربعين من سفر أشعياء.
(٢) هذا النص في الأصحاح الاربعين من سفر أشعياء.

قال : « ومن هذه الأوصاف الواردة فى حق الله تعالى منها ما جاء فى سورة البقرة : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم [١] » الآية .

وفى سورة النساء : « أتريدون أن تهدوا من أضل الله [٢] » الآية

وفى الإسراء : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس [٣] » .

وقال : « والله خلقكم وما تعملون [٤] » وقال : « كل من عند الله [٥] » والقرآن مصرح فى مواضع كثيرة غير هذه بأن أفعال الخلق خيرها وشرها هى بإرادة الله وخلقه ، لا بإرادة الخلق وفعلهم » .

ثم ذكر أحاديث القدر من الصحيحين ، وهى مشهورة . ثم قال : « فثبت بهذه الأحاديث ما ثبت بالآيات المذكورة آنفاً : من أن الله سبحانه خالق جميع أفعال العباد من الخير والشر ، كالقتل والكذب والربا وغير ذلك ، وهو الذى يعاقب ويثيب . وهذا مذهب أهل سنة الإسلام .

وحجتهم عليه : ما أوردناه من الآيات والأحاديث . وإذا تبين لهم فساد هذا المذهب وشناعته ، وأن هذا الذى يصفون به الله لا يوصف به إلا الشيطان لجأوا إلى التمسك بهذه الآية : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون [٦] » .

قال : « والدليل على فساد هذا المذهب الحجة : فمن وجهين :

---

(١) البقرة ٦ ، ٧ (٢) النساء ٨٨
(٣) الإسراء ٦٠ (٤) الصافات ٩٦
(٥) النساء ٧٨ (٦) الأنبياء ٢٣

أحدهما : ما تقرر فى المعقول من أن مريد الخير خير ، ومريد الشر شرير ومريد العدل عادل ، ومريد الظلم ظالم ، فلو كان الله سبحانه مريداً للشر والظلم لكان موصوفاً بالخيرية والشرية ، والعدل والظلم وذلك محال . وشنع فى حق الله تعالى .

الوجه الثانى : أن كل من أمر بشىء فهو مريد له ، فيستحيل من الله تعالى أن يامر عبده بالطاعة ثم لا يريدها . والجمع بين اقتضاء الطاعة وطلبها بالأمر بها ، وبين كراهة وقوعها جمع بين نقيضين . وذلك بمثابة الأمر بالشىء والنهى عنه فى حالة واحدة » .

هذا تلخيص حجته . ثم ذكر كلاماً بعده يرجع إليه .

وأما التنزيل : ـ وهو الوجه الثانى ـ فقول الله فى التوراة لقابيل : « إن أحسنت جوزيت ، وإن أسأت سيطلع على إساءتك لأنك مالك إرادتك ، وأنت مسلط عليها بالاختيار »[(١)] .

وقول داود النبى فى المزمور : « روحى فى يدى أبداً[(٢)] » يعنى بحسب قدرتى .

وقول سليمان : « إن الله صنع الإنسان مستقيماً[(٣)] » يعنى بإرادته المخصوصة . ثم ضرب مثلا ، وهو « من أوثق إنساناً ؟ شداً وكتافاً ، ثم ألقاه من جبل . وقال له فى حال هويه : إن لم تقف أو ترجع إلىّ ، وإلا فعلت بك وفعلت » فهذا سفه وحمق ، وتكليف ما لا يطاق .

---

(١) التكوين ٤ : ٧ (٢) مزمور (٣) أمثال ٤ : ١١

وحكى قول الزمخشرى فى الكشاف : « إن كان الله ينهى عن الذنب ، ثم يلجىء إليه ، ويعاقب عليه ، فأنا أول من يقول : إنه شيطان وليس بإله (١) » .

هذا تلخيص ما ذكره فى هذا السؤال من غير إخلال .

---

(١) يقول الزمخشرى — رحمه الله تعالى — فى تفسير (ختم الله على قلوبهم) فى الآية ٧ من سورة البقرة ما نصه :

« فإن قلت : فلم أسند الختم إلى الله تعالى ، وإسناده يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه ، وهو قبيح . والله يتعالى عن فعل القبيح علواً كبيراً ، لعلمه بقبحه وعلمه بغناه عنـــه . وقد نص على تنزيه ذاته بقوله : (وما أنا بظلام للعبيد) (وما ظلمناهم ولـكن كانوا هم الظالمين) (إن الله لا يأمر بالفحشاء) ونظائر ذلك مما نطق به التنزيل ؟

قلت :

(١) القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها . وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل ، فلينبه على أن هذه الصفة فى فرط تمكنها وثبات قدمها كالشىء الخلقى غير العرضى . ألا ترى إلى قولهم : فلان مجبول على كذا ومفطور عليه : يريدون أنه بليغ فى الثبات عليه . وكيف تتخيل ما خيل إليك ، وقد وردت الآية ناعية على الـكفار شناعة صفتهم وسماجة حالهم . ونيط بذلك الوعيد عذاب عظيم ؟

(٢) ويجوز أن تضرب الجملة كما هى ، وهى ختم الله على قلوبهم مثلا . كقولهم : سال به الوادى إذا هلك ، وطارت به العنقاء إذا طال الغيبة . وليس للوادى ولا للعنقاء عمل فى هلاكه ، ولا فى طول غيبته وإنما هو تمثيل . مثلت حاله فى هلاكه بحال من سال به الوادى ، وفى طول غيبته بحال من طارت به العنقاء ، فكذلك مثلت حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجافى عن الحق بحال قلوب ختم الله عليها ، نحو

والجواب من وجوه :ـ

أحدها : أن هذا الخصم بصدد القدح فى النبوة . وإيرادك هذا السؤال

= قلوب الأغنام التى هى فى خلوها من الفطن كقلوب البهائم ، أو بحال قلوب البهائم أنفسها ، أو بحال قلوب مقدر ختم الله عليها ، حتى لا تعى شيئاً ولا تفقه .

وليس له عز وجل فعل فى تجافيها عن الحق ، ونبوها عن قبوله . وهو متعال عن ذلك .

(٣) ويجوز أن يستعار الإسناد فى نفسه من غير الله : لله . فيكون الختم مسنداً إلى اسم الله على سبيل المجاز ، وهو لغيره حقيقة . تفسير هذا : أن الفعل ملابسات شتى . يلابس الفاعل والمفعول به ، والمصدر والزمان والمكان ، والمسبب له . فإسناده إلى الفاعل حقيقة ، وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة وذلك لمضاهاتها الفاعل فى ملابسة الفعل ، كما يضاهى الرجل الأسد فى جراءته فيستعار له اسمه . فيقال فى المفعول به : عيشة راضية وماء دافق ، وفى عكسه : سيل مفعم ، وفى المصدر شعر شاعر وذيل ذائل ، وفى الزمان : نهاره صائم وليله قائم ، وفى المكان : طريق سائر ونهر جار ، وأهل مكة يقولون : صلى المقام ، وفى المسبب : بنى الأمير المدينة ، وناقة ضبوث وحلوب . وقال : —

إذا رد عافى القدر من يستعيرها

فالشيطان هو الخاتم فى الحقيقة أو الكافر . إلا أن الله ـ سبحانه ـ لما كان هو الذى أقدره ومكنه أسند إليه الختم ، كما يسند الفعل إلى المسبب .

ووجه رابع : وهو أنهم لما كانوا على القطع والبت ممن لا يؤمن ولا تغنى عنهم الآيات والنذر ولا تجدى عليهم الألطاف المحصلة ولا المقربة إن أعطوها لم يبق بعد استحكام العلم بأنه لا طريق إلى أن يؤمنوا طوعاً واختياراً ، طريق إلى =

لا يحصل لك المقصود، لأنه ليس كل طوائف المسلمين يقولون بهذه المقالة. فلو نا ظرت في هذا معتزلياً(١) لخالفك في الإسلام ووافقك في القول بالقدر

إيمانهم إلا القسر والإلجاء، وإذا لم تبق طريق إلا أن يقسرهم الله ويلجئهم، ثم لم يقسرهم ولم يلجئهم لئلا ينتقض الغرض في التكليف، عبر عن ترك القسر والإلجاء بالختم، إشعاراً بأنهم الذين ترامى أمرهم في التصميم على الكفر والإصرار عليه إلى حد لا يتناهون عنه إلا بالقسر والإلجاء، وهي الغاية القصوى في وصف لجاجهم في الغي واستشرائهم في الضلال والبغي.

ووجه خامس: وهو أن يكون حكاية لما كان الكفرة يقولونه تهكما بهم، من قولهم: (قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب) ونظيره في الحكاية والتهكم قوله تعالى: (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) اهـ

ويقول الزمخشري في تفسير: (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) الآية ١٣ من سورة السجدة ما نصه: (لآتينا كل نفس هداها) على طريق الإلجاء والقسر، ولكننا بنينا الأمر على الاختيار دون الاضطرار، فاستحبوا العمى على الهدى فحقت كلمة العذاب على أهل العمى دون البصراء... إلخ.

(١) الخلاف بين المسلمين في «أفعال العباد» مرده إلى قول الله تعالى: (من عمل صالحا فلنفسه، ومن أساء فعليها) فهذا القول ومثله في القرآن كثير يثبت أن الإنسان حر في اختيار أفعاله. وإلى قول الله تعالى: (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) فهذا القول ومثله في القرآن كثير يثبت أن الإنسان يفعل ما قدره الله عليه في الأزل، ولا حرية له ولا اختيار، ومن الممكن حسم هذا الخلاف إذا تعين المحكم والمتشابه. والمحكم هو: (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) لأنه يدل على ثواب المحسن وعقاب المسيء، وإذا كان الإنسان مجبراً على أفعاله لا يكون لإرسال =

فانقطعت فى هذا المقام . وأنا الذى قد تصديت لمناقضتك لو التزمت مذهب القدرية فى هـذا ، لشاع لى فى حكم النظر ، لأن البحث بين مسلم ونصرانى ، لا بين قدرى وسنى .

= الرسل فائدة ، ولا للجنة والنار معنى ، ويكون من العبث ذم أصحاب الأهواء والشهوات . وفى عصر الإمام على رضى الله عنه ، سأله شيخ من أنصاره بعد رجوعه من صفين ، فقال له : أخبرنا عن مسيرنا إلى الشـام ، أكان بقضاء الله وقدره أم لا ؟ فقال له الإمام على : « والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئاً ولا هبطنا وادياً إلا بقضاء الله وقدره » فقال الشيـخ : عند الله أحتسب عنائى ، ما أرى لى من الأجر شيئاً .

ثم إن الإمام أوضح له المراد من القدر فقال : « أيها الشيخ لقد عظم الله أجركم فى مسيركم وأنتم سائرون ، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا فى شىء من أحوالكم مكرهين ولا مضطرين » فقال الشيخ : كيف والقضاء والقدر ساقانا . فقال : « ويحك لعلك ظننت قضاء لازماً وقدراً حتماً ، لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب والوعد والوعيد والأمر والنهى ولم تأت لائمة من الله لمذنب ولا محمدة لمحسن ، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسىء ، ولا المسىء أولى بالذم من المحسن .

ثم قال الإمام : « إن الله أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وكلف تيسيراً ، ولم يعص مغلوباً ، ولم يطع كارهاً ، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً . والقضاء والقدر هما الأمر من الله والحكم ، وأمر الله لا يوجب إلجاء العبد ، وسلب اختياره ، فالله سبحانه يأمر ويحكم وللعبد حريته وإرادته فى الإطاعة والعصيان » .

وأما المتشابه فقوله : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » فإنه يحتمل معنيين . الأول : سلب مشيئة الإنسان ، وهذا هو الجبر . والثانى : إثبات قدرة الله لا غير بدون سلب لمشيئة الإنسان ، لأنه يقول : « إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » يثبت للإنسان مشيئة . وتوضيح المراد من هذا المعنى ... : لما قال =

الوجه الثانى : أن هـذه مسئلة من فروع الشريعة تثبت بثبوت أصلها ، وتنتفى بانتفائها ، فهى تابع لا مقصود ، فيغنيك عنها القدح فى أصل الدين

= وفمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » وهذا القول يثبت مشيئة الإنسان . أراد الله لمنع توهم أن الإنسان قد يقدر على أن يعجز الله وأن يغلبه فى أحكامه . أراد لمنع توهم ذلك إثبات كامل القدرة له على كل شىء إذا أراد . ولبيان مراد الله تعالى من المتشابه نرده إلى المحكم ، وحيث المحكم يثبت أن الانسان مختار فى أفعاله إذن المراد من المتشابه هو إثبات قدرة الله لا غير .

ومن المتشابه قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها » فإنها تحتمل أن كل شىء مقدر فى اللوح المحفوظ ، والإنسان ينفذ المكتوب عليه فى هذا اللوح . وتحتمل معنى آخر وهو : أن الله تعالى كون السماء والأرض والانسان على نظم وقوانين محكمة لا تتغير ، وهذه النظم والقوانين ثابتة فى كتاب ، فما يقع فى الأرض وفى الناس من أثر النظم والقوانين هو من قدر الله أزلا فى تكوين السماء والأرض والانسان .

ومثال ذلك حدوث الصيف والشتاء ، فإنهما يحدثان بحسب تكوين الله الأزلى للأرض والسماء ، ولا يتغيران ، وما يترتب على الحر الشديد من ضرر للإنسان لم يستطع منه وقاية ، هذا الضرر هو المعبر عنه بالمصيبة المكتوبة من قبل أن تكون بحسب الأسباب المودعة فى الكون ؛ والمعنى الآخر هو مراد الله تعالى لاتفاقه مع المحكم ، ولأنه جاء بعده « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » فإن الأمر بقيام الناس بالقسط يدل على أن الناس ليسوا مجبورين على أفعالهم . ولأنه علل عدم الحزن والفرح بقوله : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم » ولولا أنهم قادرون على الحزن والفرح لما نهاهم عنهما .

وقد حكى فخر الدين الرازى رحمه الله فى تفسيره : أن الفلاسفة ربطوا حدوث الأفعال الانسانية بالتصورات الذهنية ، والتخيلات الحيوانية ، ثم ربطوا تلك =

ولا يثبت لله . وإنما ذكرت لمسألة القدر في هذا المقام كمن يقدح في دين النصرانية بفتح التعميد ، وبناء المذبح ، وتقريب القربان ، فإنك أنت كذلك تقول له : تكلم فيما هو فوق هذا . ثم أنزل إليه .

= التصورات والتخيلات بالأدوار الفلكية التى لها مناهج مقدرة ، ويمتنع وقوع ما يخالفها . وحكم عليهم غير الدين بأنهم جبرية ، وما هم بجبرية - فى نظرنا - لأنهم يحكون عن الواقع المألوف . فتصرف الناس أيام الحر والبرد مثلا يدور حول اتقاء ضررهما . ومن الممكن التنبؤ عما سيتخذه الناس إزاء الحر والبرد فى العام القادم قياساً على العام الحالى . لكن ليس معنى هذا سلب الاختيار عن الانسان لتأثره بالبيئة وعوامل الطبيعة . فإننا نشاهد من يخرج على سنن الطبيعة بمحض إرادته ، نشاهد كثيراً من الناس لا يتزوجون ، ونشاهد دعاة مصلحين نبذوا عادات الآباء والأجداد ، وهكذا مما يدل على أن للإنسان حرية على فعل الشيء وتركه .

هذا هو حكم الله العام فى خلقه . وقد شاءت إرادة الله أن يصطفى من البشر أنبياء ويربيهم بعنايته ويرسلهم إلى خلقه ، وهذا يدل على الجبر فى الظاهر لكنه فى الحقيقة سبق اصطفاء ، وشاء الله أن يقيم الأدلة على وجوده وقدرته بالمعجزات وببعض الحوادث التى تحدث للأمم والأفراد تنبيهاً على وجوده وقدرته لغرض تغيير عاداتهم وتقاليدهم إذا كانت سيئة . وانوضح ذلك بقولنا : إن الانسان لو نشأ على عادات معينة لا يصعب عليه أن يعلم ما يصيبه بسبب هذه العادات ، فإنه - مثلا - لو كان مجرماً فإن سلوكه يتحدد على عادته فى الاجرام ، وسيعلم ما يحدث له فى المستقبل لأنه سيحصل على جزاء . ولو أنه غير العادات لتغير سلوكه ، وأتت له نتيجة حسب العادات الجديدة التى يمارسها . وهذا من معنى قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

فقد بين أن مستقبلهم مرتهن بماضيهم فى العادات . وإذا غيروها غير لهم نظم الأفعال الإنسانية بالتصورات الذهنية ، والتخيلات الحيوانية ، ثم ربطوا تلك =

الوجه الثالث : أما الآيات والأحاديث فصحيحة . ونحن نقول بها على وجه نقرره ، وهو أن المسلمين أجمعوا على أن القرآن حق وصدق ، وأن بعضه

= وفى هذا أيضا قوله تعالى : « بل طبع الله عليها بكفرهم » فقد بين أنه طبع على قلوبهم لأنهم كفروا . وإن لم يكونوا كافرين لم يكن من الله طبع على القلوب .

وما يحدث من الرؤى والأحلام فإنه من نتيجة عادات الإنسان وتفكيره ، وإذا تحققت الرؤيا لا تدل على غير ما قلناه . فإن ساقى الملك والخباز فى سورة يوسف ، جاء تعبير رؤيا كلا منهما على حسب ماضيه ، ورؤيا الملك أيضا على حسب عادات المصريين آنذاك فى النفاق وإهمال العمل . ورؤيا يوسف على حسب سلوك إخوته معه ومع غيره ، وأنه سيكون مرضيا لله وعاملا على طاعته . وهكذا يكون التأمل فى آيات القرآن الكريم والعلم لله .

وفى التوراة وفى الإنجيل آيات للجبر وآيات للاختيار. ففى التوراة يقول تعالى « أنا الرب وليس آخر ، مصدر النور ، وخالق الظلمة ، صانع السلام وخالق الشر . أنا الرب صانع كل هذه » (أشعياء ٤٥ : ٦ - ٧) ويقول أشعياء : « اطلبوا الرب ما دام يوجد ، ادعوه وهو قريب ليترك الشرير طريقه ، ورجل الإثم أفكاره ، وليتب إلى الرب فيرحمه وإلى إلهنا لأنه يكثر الغفران » (أشعياء ٥٥ : ٦ - ٧) .

وفى الإنجيل يقول بولس فى رسالته إلى أهل رومية : « من أنت أيها الإنسان الذى تجاوب الله ؟ ألعل الجبلة تقول لجابلها : لماذا صنعتنى هكذا ؟ أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة وآخر للهوان ؟ ... إلخ » (رومية ٩ : ٢٠) ويقول بولس نفسه : « لا تجازوا أحداً عن شر بشر ، معتنين بأمور حسنة قدام جميع الناس ، إن كان ممكنا فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس ، لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء ... الخ » (رومية ١٢ : ١٧) أما عن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فمن أقواله الغراء : « إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس ، سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين » (متى ١٢ : ٣٦)

يوافق بعضاء فما أوهم منه التعارض تلطفوا للجمع بينه بما أمكن من الأسباب الجائزة . ثم إنهم رأوا الآيات المتضمنة لأفعال العباد موهمة للتعارض . تارة تضاف الأفعال فيها إلى الله ، نحو « والله خلقكم وما تعملون[1] » وقوله : « الله خالق كل شيء[2] » ـ « ومن يضلل الله فما له من هاد[3] » وأمثاله : الله على علم ونحوها .

وتارة تضاف إلى العباد نحو « فاقطعوا أيديهما . جزاء بما كسبا[4] » ـ « جزاء بما كانوا يعملون[5] » ـ « هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون[6] » ؟ ونحوها . وهي من الطرفين كثيرة . ففي هذا المقام انقسم المسلمون إلى ثلاث فرق ، فرقة قالت بمقتضى القسم الأول ، وألغت الثاني وهم الجبرية . زعموا أن الله موجد أفعال خلقه استقلالا ، والعباد في وقوعها على جوارحهم مضطرون إليها ، كاضطرار السعفة إلى الحركة في الريح العاصف ، وسلبوهم الاختيار .

وفرقة قالت بمقتضى القسم الثاني وهم القدرية : زعموا : أن العباد موجدون لأفعالهم استقلالا ، وأن الله لا تعلق له بها بخلق ولا إرادة . وفرقة توسطت الطرفين المنحرفين[7] ، وقالت بمقتضى القسمين . فنسبوا

---

(١) الصافات ٩٦ . (٢) الزمر ٦٢ . (٣) الرعد ٣٣
(٤) المائدة ٣٨ . (٥) الواقعة ٢٤ . (٦) المطففين ٣٦ .
(٧) المنحرفون هم الأشعرية القائلون بالكسب والكسب هو المذهب الأول مذهب الجبرية لأن القدرة القديمة وهي قدرة الله إذا اقترنت بالقدرة الحادثة وهي قدرة العبد فإن قدرة الله لابد غالبة ، وهذا هو مذهب الجبرية لكن بدون تصريح به . وإذا تساوت القدرتان وهو مستحيل صار الأشعرية شبيهين بالمجوس القائلين بإلهين . وإذا تغلبت قدرة العبد يكون الله عاجزاً ـ وحاشاه من ذلك ـ ولأنه قادر وعادل ترك العبد بمحض إرادته حرية كاملة في اختيار الفعل ولم تقترن القدرتان .

الأفعال إلى الله إرادة ولا خلقا ، وإلى العباد اجتراحا وكسبا ، وفسروا الكسب بأنه أثر القدرة القديمة فى محل القدرة الحادثة، وساعدهم على ذلك ظواهر نصوص الكتاب والسنة من الطرفين . وورد على كل واحدة من الفرقتين الأوليين ما قالت به الأخرى ، فاحتاجت إلى تأويله ، والتعسف فى تبطيله ، فلزم الجبرية التجوير ، والقدرية تعجيز القدير ، والإشراك معه فى آثار المقادير . ولهذا سموا مجوس الأمة ، تشبها بالمجوس القائلين بخالقين .

إذا عرفت هذا فنقول : إنا إذا اشتققنا اسم فاعل من فعل أو صفة نحو شرير وظالم وضارب وقاتل ، فتارة يراد به موجد ذلك الفعل وخالقه وعلة وجوده وتارة يراد به كاسبه وسببه . فقولك : لو كان الله مريداً للشر ، والظلم لكان شريراً ظالما إن عنيت بالشرير والظالم كاسب الشر ، ومسببه . فلا نسلم ، إنما ذاك الآدمى .

وإن عنيت خالقه فهو صحيح ، لكن يكون فى إطلاق الشرير عليه إساءة أدب . إذ لم ترد الشرائع بإطلاق مثل هذا عليه ؛

والأشهر عندنا : أن أسماء الله توقيفية لا قياسية وبهذا التفصيل يندفع ما ذكرته من المحال والتشنيع . .

وأما قولك : « كل من أمر بشيء فهو مريد له » فممنوع . فإن هذا محل وهم ، ومزلة قدم . وذلك لأن الإرادة تستعمل تارة بمعنى الطلب ، وتارة بمعنى رجوح وجود الممكن فى نفس المرجح . فالأول ترجيح طلبى بمعنى الأمر ، والثانى ترجيح وجودى ، وهو موضوع الإرادة فى الأصل . وأحد الأمرين يشتبه بالآخر ، لأن الأول أثر الثانى ، فإنه إنما يصدر الطلب غالبا بعد رجحان الوجود فى النفس . وحينئذ نقول : ما تعنى بقولك « كل من

أمر بشيء فهو مريد له ؟ ، الإرادة الطلبية أو الوجود به ؟ الأول مسلم . لكن هذا يصير كقولك كل من أمر بشيء فهو أمر به لأن الإنسان قد يقول لصاحبه أو لعبده : أطلب منك ، أو آمرك أن تفعل كذا . وأريد منك أن تفعل كذا بمعنى . والثاني ممنوع ، فلا يصلح قولك : كل من أمر بشيء فهو مريد له ، أي مرجح لوجوده .

وقد ضرب الأصوليون لهذا مثلا ، وهو : من أمر عبده بما لا يريده منه تمهيداً لعذره عند من لامه على ضربه . فإن هذا جائز عقلا . وفيه حكمة مقصودة ، لجاز أن يكون لله سبحانه في الأمر بالشيء ، وعدم إرادته حكمة ، وإن لم ندركها .

وقد ذكر « بقطينوس الحكيم » ـ وهو من فضلاء النصارى وعلمائهم ـ من شأن الله سبحانه مع ملائكته ما إن صح ، صلح أن يكون حكمة لهذا . وقد أشرتُ إليه في التعليق على الإنجيل . ولا يسهل على الآن ذكره .

وحينئذ لا يلزم التناقض بين اقتضاء الطاعة وطلبها وبين كراهة فعلها ، لأن اقتضاءها خطابي وكراهتها نفسية . وقد يوجد هذا من البخلاء كثيراً ، حيث يقول أحدهم لصاحبه : إذن فكل معي بحمده وهو يكره ذلك منه لثامة وبخلا ، وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين الأمر بالشيء والنهي عنه . لأن الأمر والنهي خطابان محلهما اللسان ، نحو افعل . لا تفعل . بخلاف الكراهة فإن محلها النفس ، فلا تناقض الأمر .

وأما ما ذكر من نصوص كتب الأنبياء فحق نقول به . وقد ورد به شرعنا . فإن الإنسان له قدرة واختيار يكتسب بهما ، لكنهما تابعان لقدرة الله واختياره ، فهما ناقصان نقص التبعية ، وكون الشيء ناقصا لا يقدح في وجود مسماه ، إنما يقدح في تمامه وكماله .

وأما المثل الذى شنع به من ربط الشخص وإلقائه من جبل . ثم يقال له: ارجع وإلا عاقبتك ، فليس نظير ما نحن فيه ، لأن هذا إلجاء محض ، وقسر صرف ، وصاحبه جائر قاسط ، وتعالى الله وحاشاه أن يفعل هذا ، وإنما الله سبحانه لطيف لما يشاء ، فتلطف على بلوغ مراده من شقاوة من أراد شقوته من خلقه على وجه لا يلجئهم إلى مراده ، ولا يمهلهم حتى يخرجوا من تحت قهره وقدرته ، وسلط على عبده نفساً أمارة ، وهوى داعياً ، وشيطاناً مزيناً للشهوات ، وفى مقابلة هذه روحا وعقلا ودينا ، فالقبيلان كجيشين متضادان على فعل الشر وتركه ، ويترجح أحدهما بالتوفيق أو الخذلان.

ثم قطع حجته بأن قال : « ألم نجعل له عينين ، ولساناً ، وشفتين ، وهديناه النجدين[1] » يعنى طريق الخير والشر ، ليجتلب ويجتنب فإذا أراد الله سبحانه شقاوة عبده ، خذله فيرجح جيش شيطانه ، وإذا أراد إسعاده وفقه فيرجح جيش عقله ، والتوفيق والخذلان للانسان فى مدة عمره ، كالخفير ، وقاطع الطريق فى مسافة سفره ، فكما أنك إذا استرشدك من لك به عناية عن طريق ، أريته جهته ، ثم سيرت معه غلامك ، أو سرت معه بنفسك ، تخفرته فيها من أن يضل عنها ، أو يطأ فيها مهلكا ، أو يقع فى مغارة ، حتى يقطعها إلى مقصده .

وإن لم يكن لك به عناية ، قلت له : هذا الطريق . ثم تركته بلا تخفير، فمر على عماه ، فوقع على سبع فافترسه ، أو لص فقتله ، أو مهلك فتلف فيه ، أو مفازة فمات عطشاً ، كذلك الله سبحانه إذا اعتنى بعبده جعل التوفيق له إلى الموت حليفه ، يمنعه من مفارقة الطاعات ، ومقارنة المعاصى ، وإذا غضب عليه لم يصحبه التوفيق ، وذلك هو خذلانه له ، فقارن المعاصى ، وفارق الطاعات ، فكان شقياً

---

(١) سورة البلد ٨ — ١٠

لحقيقة القدر إذا حققت وجدت عدمية ، وهى كون الله ـ سبحانه ـ لا يتفضل على عبده بالتوفيق العاصم من الهلاك ، وليس عليه - سبحانه - ذلك بناء على أصلنا فى أنه لا يجب عليه رعاية الأصلح لخلقه ، بل يتفضل به تفضلا ، فالله ـ سبحانه ـ لا يلجىء أحداً إلى شر ، لكن يخلى بينه وبين الشر .

وفرق بين أنك تترك تخفير رجل فى الطريق فيقتل وبين أن تقطع عليه الطريق فتقتله ، وبين أنك تراه يريد أن يلقى نفسه من جبل فلا تمنعه ، وبين أن تدفعه عنه فيقع . فإن الأول ترك يقع ، وهو عدم محض ، والثانى فعل ضرر محض ، ولهذا أجمع الفقهاء : على أن من أخذ شخصاً فغطه فى الماء حتى اختنق يقاد به ، وعلى أن من رأى إنساناً فى الماء قد كاد أن يغرق ، وقدر على تخليصه فلم يخلصه حتى غرق ، لا يقتل . لكن فى ضمانه له الدية ، بخلاف الأصح أيضاً الذى ، وما ذاك إلا لما ذكرنا من الفرق .

وأصل هذه المسألة إذا حققت رعاية الأصلح .

- وقد أشير فى نبوءة إرمياء إلى حقيقة القدر ، حيث يقول الرب ـ سبحانه ـ لعصاة بنى إسرائيل : « كما لا يقدر الهندى أن يغير سواد جلده ، والنمر تبقيعه ، كذلك أنتم لا تقدرون على الإحسان والخير ، لأنكم قد تعودتم الشر[1] » .

---

(١) النص فى ترجمة البروتستانت بمصر سنة ١٩٧٠ م هكذا : « وإن قلت فى قلبك : لماذا أصابتنى هذه ؟ لأجل عظمة إثمك ، هتك ذيلاك . وانكشف عنفاً عقباك . هل يغير الكوشى جلده ، أو النمر رقطه ؟ فأنتم أيضاً تقدرون أن تصنعوا خيراً أيها المتعلمون الشر » [إرمياء ١٣ : ٢٢ — ٢٣] وليس فى هذا النص جبر بل الاختيار واضح . ولاحظ أن نص المؤلف « لا تقدرون » .

وتقرير هذا : أن البارى ـ سبحانه ـ ركز فى طباع العالم وجبلاتهم ، الميل إلى أفعالهم من خير وشر ، كما ركز الإحراق فى طبيعة النار ، والإغراق فى طبيعة الماء ، وكما وضع السواد فى الجسم ، والتبقيع فى النمر والفهد والغراب الأبقع والسم فى الحية والظلم والاستيلاء فى طبع السبع ، لكنه أجرى فعل تلك الطبائع على كسب أهلها . فعلى الكسب يترتب الجزاء ، وعلى ركز الفعل فى الطبع ، وتحريك الداعى له ، وهو خلقه المنسوب إلى الله سبحانه يترتب التسليم ، والله بكل شىء عليم .

وقد استقصيت القول فى مسئلة « القدر » فى كتاب مفرد ، سميته : « درء القول القبيح بالتحسين والتقبيح » على وجه بليغ واضح ، لمن عقل الأسرار الإلهية . والله أعلم .

وأما ما حكى عن الزمخشرى ، فهو صحيح . لكنه أسرف فى تغليظ العبارة وإنا ننزه الله ـ تعالى ـ عن أن يعاقب على فعل ألجأ إليه ـ كما بينا .

ثم نقول : إن الزمخشرى رجل معتزلى غال فى الإعتزال ، حرف القرآن عن مواضعه[1] ، ليوافق مذهبه ، واضطره ذلك ـ فيما حكى عنه السخاوى ـ

---

(١) هذا عيب من المؤلف فإن أحداً لو حمل اللفظ العربى على المجاز ، وحمله آخر على الحقيقة ، لا يكون أحدهما محرفاً للكلم عن مواضعه إذا كان سياق الكلام يوجب ذلك . إن المؤلف لو فسر يد الله بمعنى اليد الحقيقية مع عدم التمثيل ، وفسر الزمخشرى — طيب الله ثراه — اليد بالقدرة ، هل أقول : إن الزمخشرى — طيب الله ثراه — حرف القرآن عن مواضعه ؟ لو قلنا بذلك ، فإن المؤلف قال به أيضاً فى مواضع ، وقال بالحقيقة فى شبهه فى مواضع من هذا الكتاب . إن الزمخشرى رجل عالى الهمة يحترم النص ويحكم العقل على الفهم . وليس مثل السلفيين يؤمنون بالنصوص ولا يحكمون العقل على فهمها . إن السلفيين بهذا يقتربون من العامة ، ويبتعدون عن الراسخين فى العلم .

حتى حمل قوله تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا[١] » على معنى : « أصبناه غافلا » كما يقال : أجبلت الرجل إذا وجدته كذلك » ونحو قوله : « واتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم[٢] » الآية ، ونظائرها » .

وها هنا إشكال إذا ضويق القدرية فزعوا إليه ، وهو : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا خلق الفعل ، فإما أن يمكن العبد تركه ، أو لا . والأول تعجيز للرب حيث لم يتم مراده ، والثانى إلجاء للعبد ، إذ لا يعنى بالإلجاء إلا اضطراره إلى الفعل على وجه لا يمكنه التخلص منه .

ونقول : إن الله ـ سبحانه ـ إنما يخلق أسباب الفعل ودواعيه الأولية ، ثم حقيقة الفعل توجد بكسب العبد مرتبة على تلك الأسباب . والإلجاء لا يعرفه إلا بالمباشرة كما مثلتم فيمن ربط شخصاً ، وألقاه من جبل ثم توعده على السقوط . أما حتم وقوع الأسباب والوسائط فلا نراه إلجاء . فإن سميتموه

---

(١) الكهف ٢٨ ونص عبارة الكشاف هى : « من أغفلنا قلبه » من جعلنا قلبه غافلا عن الذكر بالخذلان » أو وجدناه غافلا عنه ، كقولك : أجبنته وأفحمته وأبخلته ، إذا وجدته كذلك . أو من أغفل إبله ، إذا تركها بغير سمة . أى لم نسمه بالذكر ، ولم نجعلهم من الذين كتبنا فى قلوبهم الايمان . وقد أبطل الله توهم المجبرة بقوله : « واتبع هواه » وقرىء « أغفلنا قلبه » بإسناد الفعل إلى القلب ، على معنى حسبنا قلبه غافلين ، من أغفلته إذا وجدته غافلا » ا . هـ واعلم أن عبارة السخاوى غير واضحة القراءة فى المخطوطة .

(٢) الجاثية ٢٣ وفى تفسير الكشاف للزمخشرى ما نصه :

« وأضله الله على علم » وتركه عن الهداية واللطف وخذله على علم ، عالما بأن ذلك لا يجدى عليه ، وأنه ممن لا لطف له : أو مع علمه بوجوه الهداية ، وإحاطته بأنواع الألطاف المحصلة والمقربة « فمن يهديه من بعد » إضلال « الله » .

إلجاء فهو نزاع فى العبارة ، ثم يلزمكم أن لا يستحق على الطاعة ثواب لأن فاعلها ملجأ إليها ، والثواب إنما هو لمن أطاع اختياراً .

وذلك لأن الطاعات مترتبة بكسب الآدمى على أسبابها المخلوقة لله ، كما أن المعاصى كذلك .

والقدرية يجعلون ثواب الطاعة مستحقاً عليها ومعلولا لها .

ثم يقال لهم : هل يلزم من خلق الفعل والعقوبة عليه غير القبيح والتجوير؟ ثم هو لازم على قولكم فى خلق القدرة على الفعل ، فإن الله ـ سبحانه ـ يخلقها ، ويتسبب بها إلى إيقاع المعاصى من خلقه ، ولو لم يخلق لهم قدرة عليها لم تقع منهم .

وأجمع العقلاء على أن التسبب إلى القبيح قبيح ، وإذا لزم القبح على المذهبين لم يكن أحدهما أولى بالفساد من الآخر ، ثم يرجع إلى نصوص الشرع وهى فى طرفنا . والله أعلم .

القسم الثاني من شرط الصدق

ثانيًا : تكذيب النصارى لأحاديث نبوية

قال : « نبذ من صحيح الحديث تنضم إلى ما نحن فيه » - يعني من القدح في الصدق - ذكر منها قوله - عليه السلام - : « إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدموني ، وإن كانت غير صالحة قالت : يا ويلها ، أين تذهبون بي ؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعه لصعق » .

قال : « وهذا أبين من أن يتكلم على بطلانه ، إذ كيف يكون لميت صوت تسمعه البهائم والجمادات دون الإنسان ، ولأن شرط المسموع أن يكون صوتاً خارجاً ، يتموج به الهوى فيقرع صماخ الأذن ، فهل للبهائم والجمادات أسماع فضلا عن أن تكون أفضل من الإنسان ؟ »

هذا حاصل ما قرره في هذا السؤال ، مع تشنيع يسير ذكره .

قلت : الجواب العام (١) عن كل حديث ذكره في هذا الكتاب : أنه من أخبار الآحاد التي توجب العمل لا العلم ، فلا يثبت بها أصل ، ولا يقدح بها في أصل ، وإنما يقدح في الشرائع ما تثبت بمثله الشرائع ، وقد قرر هذا في المقدمات ، وفي آخر شرط الصدق بعد هذا .

---

(١) كلام المؤلف هذا يغنينا عن التعليق ، وكان عليه أن يكتفي به ، ولا يتبرع بأكثر منه .

ولكننا نتبرع بالجواب ، وجوابه من وجهين :

أحدهما : أن الكلام فى هذا وأمثاله من الحقائق الإلهية التى يقصر العقل عن إدراكها ، فرع على ثبوت النبوة وتابع لها ، كمسألة القدر ، فحق الكلام أن يكون فى مرتبة قبلها . وأنت قد قدمت من كلام « أرسطو » وغيره ، أن نسبة إدراكاتنا إلى المبادىء الأولى كنسبة الخفاش إلى ضوء الشمس ، ثم إنك فى الاعتراض على هذه الأخبار غير محق . فأنت هناك مشرع جامد ، وها هنا فيلسوف محاول ، وحالك لا ينضبط .

الثانى : أن العلماء نقلوا عن موسى ، أنه لما ناجاه ربه أمر الريح فأخذت على أسماع الناس ، ولولا ذلك لماتوا من صوت الله تعالى ، ونحن عندنا أن الكلام والإدراكات ليس من شرطها الأدوات ، بل يجوز أن يخلقها الله تعالى فى الجمادات ، كما قال الله سبحانه : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده [1] » .

وهو عند المحققين على حقيقته التى تليق بكل شىء بحسب قوته واستعداده وما يهيئه الله له ، فكذلك نجيز أن ينطق الله تعالى الميت ، كما أحيى الموتى لعيسى ، ويحجب صوته عن الإنسان لئلا يصير إيمانه بهذه الحقائق الغائبة ضرورياً ، فتبطل فائدة التكليف بالإيمان بالغيب ، ويسمع صوتها غير الإنسان على حسب ما يليق بالأشياء ، لأنها ليست مكلفة فلا محذور .

وإذا كان الله ـ سبحانه ـ هو خالق الذوات من حيوان ناطق وصامت وجماد ، فهو خالق صفاتها وإدراكاتها ، وكما أخرج تلك القوى والإدراكات من العدم إلى الوجود ، كذلك هو قادر على أن يقوى ضعيفها ويضعف قويها ، حتى يبلغ مراده ، وهو بالغ امره ، وكل ما ينسب إلى قدرة الله تعالى من

---

(١) الإسراء ٤٤ .

الممكنات لا ينبغى أن يصادم بالإنكار، خصوصاً إذا اقترن به إخبار أهل النواميس الدالة على صدق أصحابها، وليس فى هذا وأمثاله من الاستبعاد إلا كونه غير مدرك لنا، ولو أدركناه لزم الاستبعاد، كما أننا لو لم تثبت عندنا معجزات الأنبياء، كقلب العصا حية، وتفجير الماء من الحجر، وإخراج ناقة عظيمة من جبل، وإحياء الموتى ونحوه، لما صدقت به العقول لبادىء الرأى، إلا بعد نظر دقيق واستدلال.

وهكذا ما نحن فيه، لما نظرنا فيه قد اتجه إمكانه. وأما وقوعه فيعتمد خبر الصادق، وقد بينا صدقه، وسنبينه.

ويجوز أن يحمل قوله: «يسمع صوتها كل شىء إلا الإنسان» على السماع التقديرى، أى لو كانت هذه الأشياء مما يسمع لسمعته، ويكون فائدة ذلك: الإخبار بصياح الميت عن ولع وحرقة، تنبيها على أسفه وشدة ندمه ليتعظ به الأحياء، كما قال الشاعر فى صفة الفرس: —

وشكى إلى بعبرة وتحمحم

وقال فى صفة الحوض:

امتلأ الحوض وقال: قطنى مهلا رويداً، قد ملأت بطنى

أى لو كان ممن يتكلم لقال ذلك، وأنتم تستبعدون هذا التقدير، لأن لغتكم وأذهانكم غلفاً مثلكم، مقصورة على إرادة الحقائق، وليس فيها توسع فى المجاز، على أن المجازات فى كتب الأنبياء كأشعياء وغيره كثيرة جداً، وهو خفى بعيد حتى أنه فى بعض المواضع دون عقدتموه

• • •

ومنها قوله فى حديث ابن عمر « الميت يعذب ببكاء أهله عليه » وأنكرت ذلك عائشة وقالت : « إنما قال : إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه » قال : « وهذا باطل لأن الله تعالى لا يعذب أحداً بفعل غيره »

قلت : هذا اعتراض صحيح ، لكنه ليس على النبى ﷺ ، بل على الراوى الذى روى عنه . فإن هـذا الحكم على خلاف نص القرآن ، وهو قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى [1] » ومن المحال عادة أن من يقرر ناموساً وشريعة يخالف ما يدعى أنه أنزل عليه بما يقوله ، ونسبته فى ذلك إلى الغلط والوهم ممتنع عادة ، لأن هـذا مما لا يخفى عن عاقل ، فضلا عن ذى ناموس .

فالحاصل : أن راوى هذا الحديث ، وهم فى روايته ، وقد صح عن عائشة أنها قالت : « وهل أبو عبـد الرحمن — تعنى ابن عمر — ؟ إنما مر رسول الله ﷺ بقوم يبكون على يهودى ، أو يهودية ، فقال : « إنهم ليبكون عليها ، وإنها تعذب فى قبرها » .

فالبكاء والعذاب فى هذا الحديث ليس بينهما ارتباط سببى ، بل هو اتفاقى اتفق أن بكاءهم عليها صادف وقت تعذيبها . هذا على أن لحديث ابن عمر وجهاً صحيحاً فى التأويل ، وهو أنه محمول على من وصى أن يناح عليه ، أو علم من أهله أنهم ينوحون عليه فلم ينههم ، وكان ذلك عادة العرب ، وزجرهم عليها بهذا ، لأن النوح على الميت يدل على التسخط بقضاء الله — سبحانه — فيكون الميت والحالة هـذه متسبباً إلى إيقاعه لوصيته به وإقراره عليه ، والعذاب يترتب على المتسبب كما يترتب على المباشرة ، وقد قررت هـذا الحكم فى القواعد .

---

(١) فاطر ١٨ والنجم ٣٨ .

ومنها : حديث عائشة أن يهودية دخلت عليها ، فذكرت عذاب القبر ، فسألت عائشة النبي ﷺ عن عذاب القبر ، فقال لها : « عذاب القبر حق » قالت عائشة « فما رأيت النبي ﷺ صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر » .

وذكر حديث أنس فى عذاب القبر ، وسؤال الملكين الميت فيه إلى قوله فى الكافر « يضرب بمطرقة ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين » .

قال : فتأمل هذا الحديث المصرح بعذاب القبر ، وكيف ثبتت عليه هذه الأضحوكة من كلام اليهودية مع عائشة ؟ وكيف يسمع صياح الميت من يليه إلا الثقلين ؟ وكيف يسمع من لا يسمع ، ولا يسمع من يسمع ؟ ولا يحتاج من له أدنى مسكة من تمييز إلى أن يتبين له ما فى هذا من الافتراء .

قلت : هذان الحديثان صحيحان ، وأجمعت الأمة المحمدية على إثبات عذاب القبر إلا قليلا منهم ، وهم بعض المعتزلة الموافقين للنصارى فى ذلك وفى القدر — كما سبق — .

ويكفى أهل السنة من المسلمين فضيلة : إن كلام أعداء الإسلام إنما يتجه معهم ، وعلى رأيهم ، وأن أهل البدع لا يتجه عليهم لموافقتهم أعداء الدين فان هذا العلج لما قدح فى النبوة ، إنما وجه شبهه إلى أهل الحديث .

قلت : والجواب عن هذا من وجوه : —

إحداها : أنك لو ناظرت فى هذا معتزليا(١) لسلمه لك ، وخالفك فى

---

(١) الخلاف بين علماء المسلمين فى السؤال فى القبر ، والنعيم أو العذاب فيه . مرده إلى المحكم والمتشابه فى آيات القرآن الكريم ومن الآيات المحكمة قوله —

دعوى الإسلام ، فيكون قد أجابك بالقول الموجب فتنقطع فى هذا المقام . ولنا أن تلتزم مذهبه فى جدالك ، لأنه على كل حال من فرق الإسلام ، وإن كان مسلماً مجسماً ، كما أنك أنت نصرانى تجسمى ، لأنك تارة تثبت الشرائع وتارة توغل فى الفلسفة والتعطيل ، العائدة على النبوات والتبطيل .

الثانى : أن هذا الحكم من فروع الشريعة ، ولهذا يذكره الفقهاء فى كتب الفقه عند ذكر مشروعية التلقين ، فهو تبع لا مقصود .

= الله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة » فإن معناه : أن المرء يوفى جزاء عمله يوم القيامة . ومن الآيات المتشابهة قول الله تعالى عن قوم نوح : « أغرقوا فأدخلوا نارا » فإن له معنيين . الأول دخول النار بعد الغرق مباشرة ، والثانى : دخول النار بعد مكث طويل ، طول بقاء الدنيا . والمعنى الثانى هو المراد لاتفاقه مع المحكم . وعليه أيضا تحمل الآية : « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ، والملائكة باسطوا أيديهم ، أخرجوا أنفسكم . اليوم تجزون عذاب الهون » فإن كلمة « اليوم » لو لم تكن الآيات المحكمة هانت تدل على عذاب القبر ، لكن لوجود المحكم صارت متشابهة تحتمل إما اليوم الذى هو بعد الموت مباشرة ، وتحتمل يوم القيامة ، وكيف تحتمل يوم القيامة ، وما يزال بعيداً ؟ تحتمله لأن الإنسان إذا مات ، قامت قيامته ، كما ورد فى حديث نبوى صحيح فى نظر رواته ، وليس المراد القيامة الحقيقية ، بل المراد أن طول المدة من الموت إلى يوم القيامة كأنه يوم أو بعض يوم . فقوله « اليوم تجزون » يشير إلى القيامة باعتبار قصر المدة من الموت إلى القيامة . ويوضح هذا المعنى : أن أهل الكهف المؤمنين بربهم قاموا من الموت بعد الثمائة وتسع سنين ، ولم يحسوا بطول المدة ، وقالوا : « لبثنا يوما أو بعض يوم » ، وأن الكفار يوم يبعثون إلى لقاء الله يسألهم الله تعالى : « كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ » فيجيبون : « لبثنا يوماً أو بعض يوم » وهذا يدل على أن المؤمنين والكفار لم يحسوا بطول المدة ولم يحدث لهم نعيم ولا عذاب فيخبرون به . وكذلك الآية الكريمة « النار يعرضون عليها غدواً =

الثالث : أن جوابه التفصيلي هو جواب تكلم الجنازة بعينه . من حيث التوجيه ، ثم نجيب عن كلماته التي أساء بها أدبه .

قوله : « أثبت هذه الأضحوكة بكلام يهودية » قلنا : هذه أضحوكة عند عقلك . لأن الله ـ سبحانه ـ يريد ضلالك ، حتى يوقعك فيها ، وما ينفعك السيد المسيح . ثم إنه لم يثبتها بقول يهودية ، بل بالوحي الصادق النازل على سبب إخبار اليهودية . والقرآن والوحي كان ينزل على أسباب ووقائع تقتضيه .

ودليل عذاب القبر في القرآن نحو قوله تعالى : « فإن له معيشة ضنكا »[1]

ــــوعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » فإن كلمة « النار » قد تدل على نار جهنم ، وهذا قد يكون هو المراد لو لم تكن الآيات المحكمة ، التي تنفي العذاب في القبر . وقد تدل على عذاب الدنيا قبل غرق فرعون وآله ، وهذا هو المراد لاتفاقه مع المحكم ، فإن الله يقول : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات » وعذابهم بالجوع يسمى ناراً على طريق المجاز ، كما سمى الله الزروع والثمار جنات على طريق المجاز فقال تعالى على لسان نوح عليه السلام : واستغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً » فكما أن سعة الرزق جنة ، كذلك ضيق الرزق نار .

هذا هو أصل الخلاف والجدال فيه . ولم نشر إلى الأحاديث النبوية الواردة في السؤال في القبر وفي عذاب القبر ، أو نعيمه ، لأنها أحاديث آحاد وباتفاق العلماء لا تثبت بها عقيدة ، ولأنها ما دخلت في المحكم والمتشابه من باب التقوية ، ما دخلت إلا لتخويف العوام وزجر الفسقة .

(١) طه ١٢٤ . والمعيشة الضنك في الدنيا [راجع تفسير الطبري] .

« سنعذبهم مرتين(١) » : « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب (٢) » .

قوله : « كيف يسمع صياح الديك من يليه إلا الثقلين ؟» قلنا : كما وجهناه فيما سبق . قوله : « كيف يسمع من لا يسمع ؟ » قلنا : يخلق الله قوة السمع فيه . قوله : « وكيف لا يسمع من يسمع ؟ » قلنا : يخلق الحجاب المانع للسمع على سمعه ، كما سبق فى مناجاة موسى . قوله : « لا يحتاج من له أدنى تمييز إلى أن يتبين له أن هذا افتراء » قلنا : أما هذا فلا يشك عاقل أنه ممكن . وقد أخبر به الصادق .

وأما ما يدعيه من إلهية المسيح أو نبوته ، واتحاد الأقانيم ، ونحو ذلك فلا يشك عاقل أنه افتراء على الله ورسله ، وأول خصم يكون لك يوم القيامة : المسيح . على ذلك . وأنت شخص متحير متردد ، لا مسيحى ولا فيلسوف . بل كما قال القائل : —

حدى باسمك الحادى ، وناحت حمامة فلم أدر أى الداعيين أجيب ؟

* * *

ومنها : فى كتاب الزكاة .

حديث أبى هريرة : « ما من صاحب ذهب ، ولا فضة ، لا يؤدى منها

---

(١) التوبة ١٠١ والعذاب مرتين فى الدنيا قد يكون المراد به مرات مثل : « ثم ارجع البصر كرتين » (٢) غافر ٤٦ .

حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جنبه وجبينه » .

وفى الحديث الآخر : « من آتاه الله مالا ، فلم يؤد زكاته . مثل له يوم القيامة شجاعا يأخذ بلهزميته . ثم يقول له : أنا مالك . أنا كنزك . ثم تلا : « ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » الآية .

وفى حديث أبى ذر : « ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم ، لا يؤدى حقها إلا بطح لها يوم القيامة بقاع قرقر ، تطؤه بأخفافها ، وتنطحه بقرونها حتى يقضى بين الناس » وحديث أبى سعيد : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة ، يتكفأها الجبار بيده ، كما يتكفأ أحدكم خبزته فى فى السفر نزلا لأهل الجنة . فأتى رجل من اليهود . فقال : بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم . ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ؟ قال : بلى . تكون الأرض خبزة واحدة ، كما قال النبى ﷺ ، فنظر النبى ﷺ إلينا وضحك حتى بدت نواجذه . ثم ذكر أن إدامهم بالام ونون وهما .

وحديث : « يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، ويحشر النار ، تقيل معهم حيث قالوا ، وتمسى معهم حيث أمسوا » وفيه : « تقتص الشاة الجماء من القرناء ، والعود كم خدش العود ؟ » وحديث ابن عباس وعائشة « يحشر الناس حفاة عراة غرلا » وحديث أبى هريرة : إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا « فيقول هذا فداؤك من النار » » .

ثم قال : « فانظر إلى هذه الأحاديث ، وما تضمنته من الأخبار بأن مال الإنسان الذى يبخل به يصير صفائح من نار ، ويصير أيضاً شجاعا أقرع . وكيف أخبر عن حشر الحشرات والبهائم والعبدان ، وأن الله يقضى بينهن . وكيف تمشى الجمال والبقر على الناس ؟ وكيف يحشر الناس على الجمال ر؟با ؟ »

قلت : والجواب عن هذا من وجوه :

أحدها : أن كل هذا ممكن ، لا شك فى إمكانه ، وقد أخبر به الصادق ، فيجب قبوله .

الثانى : أنه ليس عندك فى إنكاره إلا كونه لم يذكر فى كتابك ونحوه .

وقد قدمنا : أن هذا استناد إلى الجهالة ، واعتماد على الضلالة ، ونحن عندنا أن محمداً ﷺ أكمل الأنبياء وأشرفهم ، فلا يمتنع أن يختص من العلم بما لم يعلموه ، على أن أصول دين الإسلام مشتركة بين سائر الأديان لقوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه [1] » .

ولكن ذلك بدل وغير فى كتبكم لتطاول العهد ، واعتوار اللغات والألسنة عليه .

الثالث : أن هذا من الأمور الإلهية التى اعترفت أنت وحكيت عن أرسطو : « أن قوتنا بالنسبة إلى إدراكها ، كإبصار الخفاش إلى الشمس » وأن فائدة النبوات تعريف مثل ذلك ، فليس لك أن تعترف بقصور عقلك عن أمر ثم تعود فتنكره ، بناء على أن عقلك لا يدركه ، بل إن اعترفت بأن الشرائع وردت بما يقصر عنه العقل البشرى ، لزمك تسليم مثل هذا إذا أخبر به صادق ، ولا يبقى لك نزاع إلا فى صحته وعلينا بيانه ، وإن أنكرت ذلك فلست من أهل الشرائع حتى نتكلم معك ، لأن أهل الشرائع أجمعوا على خلافك .

---

(١) الشورى ١٣ .

الرابع : أن العالم بأسره لما أنكر عليكم دعواكم : أن الله هو المسيح ، وأنه عبارة عن ثلاثة أقانيم : الآب والإبن والروح القدس ، إله واحد ، لجأتم إلى إمكان ذلك فى قدرة الله ، مع أن دعواكم إذا حققت كانت باطلة قطعاً عند كل عاقل ، وتمحلتم لإثباتها بتشبيهه بالشمس المتحدة فى نفسها ، المشتملة على جرم وضوء وشعاع ، وبالحديدة المحماة المشتملة مع وحدتها على حديد ونار وشرر ، وأشباه هذا من الأشياء التى لا حاصل لها ، واسترحتم إلى ذلك ، مع أنه مكابرة جيناء فنحن أولى أن نلجأ فى هذه الأمور الغائبة عنا ، الممكنة فى نفسها بلا خلاف إلى قدرة الله سبحانه .

الخامس : أن هذه الأحاديث ممكنة ، وفيها فوائد وحكم ، ومن أتى بشيء ممكن فيه حكمة وفائدة وجب قبوله منه ، نبياً كان أو غيره ، ما لم يقم دليل إلى بطلانه .

أما إمكانها فظاهر ، وأما فائدتها .

أما فى حديث الصفائح والشجاع الأقرع ، فتخويف الناس وحضهم على أداء حقوق الفقراء من أموالهم .

وفيها : حق الله ، وهو تعبدهم بإخراج المال المحبوب ، ووجه الجمع بينهما إما بأن يحمل على أن بعض الناس يكوى بماله ، وبعضهم يمثل له شجاعاً ، أو بأن مال الإنسان الواحد يكوى به تارة ، ويمثل له شجاعاً أخرى ، ومعنى تمثيله له شجاعاً أن الله ـ سبحانه ـ يرسل عليه حية يعاقبه بها على ترك الزكاة .

وقوله : « أنا مالك ، أنا كنزك » أى عقاب مالك ، وجزاء منع حق كنزك أو أن الله يخلق من الذهب والفضة شكل حية ، ثم ينفخ فيها الروح فتفعل ذلك ، كما أنه نفخ الروح فى عصا بيد موسى ، فصارت حية تلقف ما صنعوا .

وأما نطح صاحب الأنعام بها ، فظاهر الإمكان وفائدته : ما ذكر وأما حديث « تكون الأرض جبرة » فهو شيء قد أخبر به النبي ﷺ ووافقه عليه حبر من أحبار اليهود ، ولهذا فرح النبي - عليه السلام - بموافقته ، لئلا يستبعد ذلك منه جلفه مثلك ، وذلك يدل على أن اليهود يجدون ذلك في التوراة وهي حجة عليك .

فإن قلت : لم نجد هذا في التوراة عندنا الآن ، ثم يجوز أن اليهودي واطأه على ذلك ، أو خاف من مخالفته لئلا يقتله .

قلت : الجواب عن الأول :

أن التوراة حرفت عما كانت في ذلك العصر ، فلا يلزم من عدم وجدانكم له عدمه حينئذ .

وعن الثاني :

بأن اليهود كانوا يوردون عليه المسائل ويمتحنونه ، ويصدقونه في شيء ، ويكذبونه في أشياء ، وما نقل عنه : أنه قتل منهم على ذلك أحداً ، بل إنما كان يقتلهم في المحاربة ، ولو كان قاتلا أحداً منهم على شيء من ذلك لقتل « ابن صياد » لما قال له : « أتشهد أني رسول الله ؟ » قال : أنت رسول الأميين . ثم قال له ابن صياد : أتشهد أني رسول الله ؟ » فقال : « آمنت بالله ورسله » فقال له عمر ابن الخطاب : دعني أقتله يا رسول الله - وكانوا يرونه الدجال [1] - فقال :

(١) كثيرون من العلماء المستنيرين ينكرون ظهور الدجال في آخر الزمان ، وظهور المهدي المنتظر - وأنا منهم - لأن القرآن سكت عنهما . وعقيدة الدجال عقيدة نصرانية ، والدجال عندهم هو محمد ﷺ ، ويخافون من التصريح أمام المسلمين (أنظر الفتاوى للشيخ شلتوت)

« لا ، إنه إن يك هو فلن تسلط عليه ، وإن لم يكن هو فلا خير في قتله »

ولقتل « لبيد بن الأعصم » الذي سحره (١) حتى اضطرب حالة السحر ، ثم لما ظهر عليه عفى عنه ، وكم بلغه السب والشتم من اليهود وغيرهم ، فعفى عنهم عن قدرة .

وأما حشر الناس على الإبل والدواب ، واقتصاص بعضها من بعض فتحقيقاً لإقامة العدل ، في كل شيء من خلقه ، والآخرة لا تقلب الحقائق ، فكما يركب الناس الدواب الآن يركبونها هناك . وهذا يكون في الأرض ، لأن الله — سبحانه — يطوى السموات والأرض بيمينه ، ويبدل الأرض غير الأرض .

وأما حشر للناس حفاة غرلا ، فتحقيقاً لقوله تعالى : « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا (٢) » .

وأما كونه يدفع إلى كل مسلم يهودى أو نصرانى ، يكون فداه من النار ، فلأن اليهود قتلوا الأنبياء وكذبوهم ، وصلبوا الحكم المسيح بعد ظهور الخوارق على يده ، والنصارى ادعوا إلهيته وإنما هو نبى كريم . فأولئك فرطوا فيه ، وهؤلاء أفرطوا فيه ، وكفرتم جميعاً بمحمد ﷺ . بعد مجيئه بالبينات والهدى وما جزاء من يفعل ذلك إلا النار . وأنا أرجو أن تكون أيها العلج فداى من النار ، لما حصل بينى وبينك من النظر والجدال في الله ، فنحن خصمان اختصموا في ربهم ، إن شاء الله تعالى .

• • •

(١) حديث السحر موضوع . (٢) الأنبياء ١٠٤ .

ومنها: حديث: «الشهداء خمسة: المطعون والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد فى سبيل الله».

وفى سورة آل عمران: «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون»(١)، وذكر عن تفسير ابن عطية، حديث: «إن أرواح الشهداء على باب الجنة فى أجواف طير خضر، فى أشياء مما يتعلق بها».

قلت: وذلك مما لا إشكال فيه. فإن الأرواح عندنا أجسام لطيفة فلا يمتنع أن يكرم الله الشهداء بأن يعلقها بأشكال الطيور، ليدوم نعيمها حتى القيامة جزاء على جودهم بأنفسهم فى سبيل الله.

وأما بقية الشهداء، فهم شهداء التسمية: إما باعتبار أن لهم كأجر الشهداء فى سبيل الله تفضلا، أو لأن ملائكة شهداء المعركة تشهدهم، أو غير ذلك. لا حكما. بدليل أحكام شرعية افترق فيها القتيلان، كالغسل والصلاة ومغفرة الذنب بأول قطرة من دم، حتى الدين يعفى له عنه، على مقتضى حديث روى(٢) فى ذلك، دون بقية الشهداء.

• • •

ومنها: حديث المعراج والبراق، وما جرى فيه من العجائب، وخلاف الناس فى دخوله بيت المقدس أم لا؟ وأن المعراج هل كان بشخصه أم بروحه مناماً؟

---

(١) آل عمران ١٦٩.

(٢) هذا الحديث ذكره القرطبى فى تفسيره، وقال فى نهايته «إن الترمذى قال عنه: «هذا حديث حسن غريب».

قلت : حديث المعراج أجمع المسلمون على صحته(١) . والمعتمد عليه منهم على أنه كان بروحه مناما ، مرة ، ثم كان شخصه يقظة أخرى . وكانت الأولى تمهيداً للثانية ، وأنه عليه السلام دخل بيت المقدس .

وحديث المعراج ، وما جرى فيه مما يجب تسليمه عن صاحب الشريعة ، إذ لا طريق إليه إلا من جهته ، كما كان يخبر موسى بما جرى له مع ربه على الطور(٢) ، وكما أخبر المسيح أنه يصعد إلى أبيه فيكون عن يمينه ، وأنه فى آخر الزمان يأتى فى مجد أبيه ، والملائكة حوله(٣) .

ومنها : الآيات والأحاديث المتضمنة لذكر ما فى الجنة من مأكول ومشروب ومنكوح . وذكر من الأحاديث ما هو صحيح وباطل . وأنكر ذلك واستعظمه . بناء على شبه :

إحداهن : ما نقل عن الإنجيل : أن المسيح قال فى القيامة : « لا يتزوجون ولا يأكلون ولا يشربون ، ولكنهم مثل ملائكة الله فى السموات ، وذكر عن جماعة من الأنبياء أنهم سألوا الابتهاج بوجه الله ـ معنى فلا يكون بغيره .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره :

ذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ولم يفارق شخصه مضجعه ، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق ورؤيا الانبياء حق ، ذهب الى هذا معاوية وعائشة وحكى عن الحسن وابن إسحق ويقوى رأيهم هذا قول الرسول ﷺ : « بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان ، أى فى شبه رؤيا المنام . لا أن الإسراء بالروح والجسد

(٢) سفر الخروج .

(٣) هذا تفسير النصارى للآية الحادية والثلاثين من الأصحاح الخامس والعشرين من إنجيل متى وهو ليس بصحيح ، كما بينا فى فصل ابن الانسان فى كتابنا : « البشارة بنبى الإسلام فى التوراة والإنجيل » .

الثانية : أن الطعام والشراب فى الدنيا لضرورة بقاء الأبدان ، لأنها بدونهما تهلك ، وهناك يصيرون كالملائكة لا يخشى عليهم الهلاك ، لأنها دار السعادة الكاملة .

الثالثة : ما ذكره « أبو على بن سينا » فى « التنبيهات » حيث تكلم فى « البهجة والسعادة » وحاصله : أن اللذة ليست منحصرة فى الحياة ، بل الإنسان قد يترك الحياة لتحصيل لذة الغلبة ، ولو فى أمر ما ، خسيس ، كالشطرنج ، أو فى تحصيل ذكر جميل بعده ، يقتحم لأجله الأخطار ، وليس ذلك من اللذات العقلية ، فما ظنك بالعقلية ؟

هذا حاصل ما ذكره فى هذا السؤال ، وإن كان قد انتهب فيه وأطال .

والجواب : أما اللذات الحسية من مأكل ومشرب ومنكح ، وكل ما يشتهيه الإنسان من اللذات الممكنة التى لا تقذى فيها ، فهو مجمع على حصوله فى الآخرة بين المسلمين .

وأما شبه هذا الخصم على بطلان ذلك :

أما الأولى : فلا شك أنهم نقلوا فى الإنجيل عن المسيح : أن الصدوقين المنكرين للقيامة سألوه عن سبعة أخوة تزوجوا امرأة واحداً بعد واحد ، ويموتون عنها ، فلمن تكون فى الآخرة ؟ فأجابهم بما ذكر ها هنا ، وهو : أن الناس فى الآخرة كالملائكة لا يأكلون ولا يتزوجون (١) ، لكن هذا ينافيه ما فى الفصل التاسع والعشرين (٢) من إنجيل مرقس : أن المسيح قال لرجل : « بع كل مالك واعطه المساكين واكنزه فى السماء (٣) » فصعب على الرجل ،

---

(١) متى ٢٢ : ٢٣ الخ (٢) فى التراجم الحديثة : الإصحاح العاشر
(٣) مرقس ١٠ : ٢١

فقال له بطرس : ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك ، فقال يسوع : « الحق أقول لكم : إنه ليس أحد ترك بيوتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو بنين أو حقلا لأجلي ، ولأجل البشارة إلا وهو يأخذ مائة ضعف الآن في هذا الزمان منازل وإخوة وأخوات وأمهات ، وبنين وحقولا ، مع اضطهادات . وفي الدهر الآتي الحياة المؤبدة ، ولكن أولون كثيرون يكونون آخرين ، وآخرون أولين [1] » .

قلت : فهذا نص في أن الناس في نعيمهم في الآخرة ، كهم في الدنيا ، وصرح بذكر المرأة . وفائدتها : النكاح ، والحقل . فائدته : الأكل ، وكذا قال في آخر الفصل التاسع والعشرين من إنجيل مرقس : « من ترك شيئاً لي أخذ أضعافه في الحياة الدائمة [2] » .

وهو عام في كل ما ترك من الدنيا ، فيتناول المطعم والمشرب والمنكح . فهذا نص المسيح ، على خلاف ما ذكرتم عنه في جواب الصدوقيين ، فأحد النصين كذب قطعاً ، وحينئذ يسقط الوثوق بالإنجيل لوقوع الكذب فيه .

وأما جوابه للصدوقيين بما ذكرتم ، فإن صح فهو محمول على قيامة الموت [3] لأن قيامة كل أحد موته ، لأنه أول منازل القيامة مكانه . يقول : إذا مات الشخص تجرد روحه من بدنه ، فكان كالملائكة ، حتى يبعث جسده يوم القيامة فيعطى أضعاف ما ترك لأجلي في الدنيا ، جمعاً بين نصيه ، وإلا فالحكاية موضوعة مختلفة ، ويدل على ذلك : أن سؤال الصدوقيين له ، إنما هو على جهة الإيراد على دينه ، والإلزام له على ما أشار إليه سياق الإنجيل

---

(١) مرقس ١٠ : ٢٨ - ٣١ (٢) النص في متى ١٩ : ٢٩ وفي لوقا ١٨ : ٣٠ وفي مرقس ١٠ : ٣

(٣) لم لم يقل المؤلف هذا التعليل في سؤال القبر ؟

ولا يتم لهم ذلك إلا بعد علمهم بأن من دين موسى والمسيح ثبوت النعيم الحسى فى الآخرة ، فجوابه لهم بما ذكرتم عنه يكون موافقة ومساعدة لهم .

وقد استوفيت الكلام على ذلك فى « التعليق على الإنجيل » .

وأما سؤال الأنبياء الابتهاج بوجه الله — سبحانه — فلا يبق ما يدعيه لجواز أن تكون البهجة بالأمرين ، أعنى النظر إلى وجه الله ، والتمتع باللذات الحسية ، وهذا عين ما نقوله . وقد سأل النبى ﷺ فى دعائه التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم ، وأجمع على جوازه ووجوبه المسلمون .

وفى القرآن الكريم: «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة[1]» ، وأجمع المفسرون على أن المراد بالزيادة : النظر إلى وجه الله — سبحانه —

وأما الثانية : فمبنية على التى قبلها وقد بطلت ، ثم لا نسلم : أن الطعام والشراب فى الدنيا لضرورة بقاء الأبدان على الإطلاق ، لأن ذلك إنما تصح دعواه فيما يقيم الرمق ويحفظ البنية ، فما قولك فيما زاد على ذلك كأنواع المآكل

---

(١) يونس ٢٦ وتفسير الزيادة برؤية الله تعالى بالأبصار فى الآخرة تفسير مردود ، ليس من المعتزلة وحدهم ، بل من كثيرين من الصحابة والتابعين . ففى تفسير القرطبى : قال مجاهد : الحسنى حسنة مثل حسنة ، والزيادة مغفرة من الله ورضوان . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحسنى الجنة ، والزيادة ما أعطاهم الله فى الدنيا من فضله لا يحاسبهم به يوم القيامة .

وموضوع رؤية الله تعالى من المحكم والمتشابه ، والمحكم قوله تعالى : « لا تدركه الأبصار » فهو نص فى نفى الرؤية ، ولا يحتمل غير هذا فى نظر المستنيرين من العلماء . والمتشابه قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » فإنه يحتمل معنيين الأول النظر إلى ذات الله تعالى ، والثانى النظر إلى نعم الله وفضله وكرمه =

والمشارب من اللحوم والحلاوات وأنواع الأشربة . ولهذا من يترهب من النصارى والمسلمين يقتصر على البلغة ، ويدع ما سواها مما يتناول التنعم : وإذا كانت الدنيا مع أنها دار فناء ونفاد ، فيها هذا النعيم ، فالدار الآخرة الباقية الدائمة المأمونة الزوال أولى بذلك . ثم هب أن المأكول والمشروب لضرورة بقاء البدن ، فما تقول فى النكاح مع أن البدن يبقى بدونه ؟ فهو من باب النعيم لا محالة .

وأما الثالثة : فهى مبنية على رأى « أبى على » فى أن المعاد لا يكون إلا روحانياً ، فلا يتصور اللذات الحسية . إذ شرط إدراكها تعلق النفس بالبدن وحجته على ذلك ، على ما حكاه الإمام فخر الدين . فى المباحث المشرقية : « إن البدن لو أعيد ، لكان إما أن يعاد فى زمن ابتدائه ، أو فى غيره . فإن أعيد فى زمن ابتدائه ، لزم اتحاد الزمنين ، مع ما بينهما من الفواصل الكثيرة

= والمتشابه يرد إلى المحكم ، والنظر إلى نعم الله هو المتفق مع المحكم فيكون هو المراد . وكذلك يقال فى قوله تعالى عن الكافرين : « إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » والمفهوم منها : أن المؤمنين يرون ربهم . وهذا القول متشابه يحتمل إما نفى رؤية الذات وإما نفى رؤية النعيم والخيرات ، وإذا نفى رؤية النعيم والخيرات عن الكافرين أثبتها المؤمنين . وهذا المعنى هو الذى يتفق مع المحكم .

وفى تفسير القرطبى فى تفسير « إلى ربها ناظرة » ، وقيل إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب . وروى عن ابن عمر ومجاهد . وقال عكرمة : تنتظر أمر ربها . وفى تفسير القرطبى عند « إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » .

قال مجاهد فى قوله تعالى : « لمحجوبون » : أى عن كرامته ورحمته ممنوعون . وقال قتادة : هو أن الله تعالى لا ينظر اليهم برحمته ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .

والأزمنة المتعددة ، وهو محال. وإن أعيد في غيره لم يكن المعاد هو عين المبتدأ ».

قلت : وهذا وهم قبيح من مثل ذلك الفاضل العلامة . لأنه كان يوهم أن الزمان داخل في حقيقة البدن ، أو أن اتحاد الزمن شرط في صحة الإعادة . وليس كذلك ، ولا دليل عليه .

ومذهب المسلمين قاطبة : القول بالمعاد البدني ، وإدراك اللذات الحسية والعقلية . ولذلك مناسبة حسنة ، وهي : أن العالم على ثلاثة أضرب . عقل محض كالملائكة ، وشهوة محضة كالبهائم ، ومركب من الأمرين ، وهما الثقلان . فالطرفان لا مشقة عليهم . أما الملائكة فلعدم الشهوة المعارضة لعقولهم ، وأما البهائم فلعدم التكليف . والثقلان واسطة عليهما المشقة لتنازع العقل والشهوة في مراديهما . فيبعث الإنسان بينهما كالخاص بين متخاصمين . فلا جرم أن الملائكة لما عبدوا الله بالعقل المجرد الخالي عن معارضة الشهوة كانت لهم اللذة العقلية ، والبهجة الروحانية . والبهائم لما خلت عن عقل تعبد الله به تمتعت باللذات الحسية الشهوانية مدة بقائها في استعمال المكلفين لها ثم يوم القيامة ، تصير ترابا بعد أن يقتص لبعضها من بعض ، لأنه لا عبادة لها تستحق بها يوم القيامة لذة عقلية ولا حسية .

وعند مصيرها ترابا يقول الكافر : « يا ليتني كنت ترابا[1] » ، وبنو آدم لما تعبدوا فيما بين العقل والشهوة وجب بمقتضى هذه المناسبة أن يجمع لهم في الآخرة بين اللذتين العقلية بمقتضى العقل الذي عبدوا الله وعرفوه به ، والحسية بمقتضى الشهوة التي صبروا على خلافها في طاعة الله ـ سبحانه ـ

---

(١) آخر النبأ .

ولو فى التوحيد وهذا معنى قوله تعالى : « وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا »(١) أى بما صبروا على الطاعات وعن الشهوات .

هذا آخر الجواب مما يستحق ، أى يجاب عنه من هذا السؤال من الآيات والأخبار الصحيحة فأما ما ذكره من ضعيف الأخبار . وكلام « أبى حامد » وغيره ، فلا يلزمنا الجواب عنه ، ولا هو ممن يستحق ذلك(٢) .

قال : وفى سورة الأعراف : « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش(٣) » .

وقال فى سورة فصلت : « قل : أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين » إلى قوله : « فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها(٤) » .

فبمقتضى هذه الآية الثانية أن السموات والأرض خلقتا فى ثمانية أيام ألا ترى أنك لو قلت :

بنيت بيتاً وأسسته فى يومين ، وأقمت حيطانه فى أربعة أيام ، وسقفته فى يومين ، لم يشك عاقل ، يسمع قولك فى أن مدة إقامتك البيت بجملته ثمانية أيام . ولهذا يلزم محمداً — ﷺ — إن كان صادق الإخبار فى الأولى ،

---

(١) الإنسان ١٢ . (٢) فى تحقيقنا لكتاب نفخ الروح والتسوية لأبى حامد الغزالى وضعنا تقديماً عن البعث بالروح وبالجسد عند اليهود والنصارى والمسلمين ، وكذلك فى تقديمنا لكتاب يقظة أولى الاعتبار لصديق حسن خان .

(٣) الأعراف ٥٤ (٤) فصلت ٩ — ١٢

فالثانية بالضرورة كاذبة . وبالعكس وذلك مطلوبنا .

قلت : الجواب عن هذا : أن الآيتين لا تناقض فيهما ، ولكن هذا الشخص لم تكن له معرفة بالقرآن ولا لغة العرب وتنزيل الألفاظ منازلها وجدير بمن يتكلم ، فيما لا يعلم ، أن يخطىء ويتلعثم . وبيان ذلك :

أن القرآن مصرح في أكثر من ستة مواضع بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام . فهذه نصوص لا تحتمل التأويل . وهذه الآيات التي في سورة فصلت . فيها نوع إجمال . والمراد بها ما في تلك النصوص ، ولا يبين ذلك إلا بالتأويل ، والتوفيق بين الكل ، ومن قواعد الأصوليين ، حمل المجمل على المبين ، والظاهر على النص ، والمطلق على المقيد ، والعام على الخاص ، فهذا مجمل ، أو محتمل نحمله على ذلك النص الصريح . وبيانه :

أن اليومين المذكورين في قوله : « أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين » ؟ داخلان في الأربعة المذكورة في قوله : « وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين » والدليل على ذلك من وجوه :

أحدها : أن الله سبحانه – يقول في سجدة « الم » وغيرها : « الله الذي خلق السموات والأرض ، وما بينهما في ستة أيام[1] » ثم ثبت بهذه الآية المتنازع فيها أن خلق السموات في يومين ، فتعين أنه خلق الأرض بما فيها من الجبال والشجر والبحار والأقوات وغيرها في أربعة أيام ، لأن هذه الأشياء إما من حقيقة الأرض ، أو مما بينها وبين السماء . فتعين بما ذكرناه

---

(١) سورة السجدة ٤ .

أنها داخلة فيما خلق فى أربعة الأيام التى منها اليومان الأولان .

الوجه الثانى : إن قوله : « فى أربعة أيام » إما أن نعلقه بتقدير الأوقات فقط ، أو به وبما قبله من خلق الأرض وجبالها ، والبركة فيها . والأول باطل . لأنه يلزم أن يكون فعل ما قبل ذلك ، لا فى زمان ، وهو محال . فتعين الثانى ، وهو أن أربعة الأيام متعلقة بجميع ما تقدم ، من قوله « خلق الأرض » إلى قوله « أقواتها » وعلى هذا اعتراض لا يخفى .

الوجه الثالث : أن محمداً — عليه السلام — لم يشك أحد فى حكمته وفصاحته ، ولهذا نسبه الأعداء إلى أنه إنما أقام ناموسه بالحكمة والسيف . ومن يكون من الحكمة فى هذه الرتبة لا يناقض ما صرح به فى ستة مواضع بما يقوله فى موضع ، ولا يخفى عليه ذلك . فدل هذا على أنه أراد بما فى هذه الآية ما فى تلك الآيات . وذلك إنما يصح بجعل اليومين الأولين داخلين فى الأربعة الثانية ويصير هذا كما لو قلت : سرت من « القاهرة » إلى « بيت المقدس » فى عشرة أيام ، وإلى « دمشق » فى عشرين . فى أن العشرة داخلة فى العشرين .

أما ما ذكرته من أن قول القائل : بنيت بيتاً فأسسته فى يومين ، وأقمت حيطانه فى أربعة أيام ، وسقفته فى يومين : يفيد أن الجملة ثمانية أيام . فجوابه أن فرضك لهذه الصورة مع تقدير تقدم النص من القائل بأنه أقام جملة البيت فى ستة أيام ، أو مع عدم تقدير ذلك . فإن قلت : تقدير تقدم النص المذكور كان كمسئلتنا . فلا نسلم استفادة ثمانية أيام من القول المذكور ، بل ستة ، كالمنصوص . ويكون ذلك النص قرينة فى هذا التأويل ، أعنى حمل الثمانية الظاهرة على الستة المنصوصة . وإن قلت : مع عدم النص ، فليس ذلك مثل مسئلتنا ، إذ لا نص معنا يكون قرينة نحمل بها الظاهر عليه ، وحينئذ لا يلزم ما ذكره من كذب إحدى الآيتين ، ولا يحصل له مطلوب .

* * *

ومنها : ما رواه مالك في « موطأه » بسنده إلى أبي بكر في كتاب « الجنائز » قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ : « ما دفن نبي قط إلا في مكانه الذي توفي فيه »[1] غفر له فيه .

قال : « وهذا افتراء وقول باطل . فإن « يعقوب » توفي بمصر ، وحمل إلى مقبرة أبيه « إبراهيم » فدفن فيها ، وكذلك « إبراهيم » و « إسحق » دفنا هناك ، ولم يدفنا في مكانهما من داريهما ، وكذلك « داود » و « سليمان » إلى غيرهما من الأنبياء ماتوا بأماكنهم ، ودفنوا في غيرها .

وبالجملة : ما دفن نبي من الأنبياء في مكانه الذي توفي فيه ، فضلا أن يكونوا أجمعون دفنوا حيث ماتوا » .

قلت : الجواب عن هذا من وجوه :

أحدها : أن ما ذكره من دفن يعقوب في غير موضع موته ، مأثور عن التوراة ، والتوراة فيها من التحريف والتهافت والتناقض ما يمنع الوثوق بها ـ كما سبق .

---

(١) ظهر لبعض العلماء : أن علماء اليهود والنصارى الذين دخلوا في الاسلام للكيد له . ألفوا أحاديث ونسبوها الى النبي ﷺ عالمين أنه بعد مدة من الزمان ستكون لهذه الأحاديث مكانة بين المسلمين ، وإذا عزموا على ردها . يختلفون فيها ويتقاتلون . وإذا لم يستطيعوا ردها وبقيت فيهم . يطعنون بها في دين الاسلام . وواجب العلماء إزاء هذه الأحاديث : ردها بعبارات صريحة لا لبس فيها ولا غموض . وقد أحسن المؤلف في رده لهذا الحديث . وليس معنى رد الحديث تكذيب النبي ﷺ ، بل الرد لتكذيب الرواة .

الثاني : ذكر في التوراة أن يعقوب بقي بمصر يبكي عليه سبعين يوماً (١) ؛ ولو بقي ذلك القدر غير مدفون لأنتن وأراح إذ هو بشر على كل حال . وذلك إهانة للميت .

ولهذا جاء في شرعنا : أن من إكرام الميت أن يبادر بدفنه ، فدل على أنهم دفنوه حتى انقضت مناحتهم ، ثم استخرجوه فنقلوه إلى آبائه . وحينئذ لا يكون نقله منافياً لدفنه حيث مات .

فإن قيل : لعلهم صبروه حتى مكث تلك المدة ، ولم يحتج إلى دفن .

قلنا : هذا لم ينقل في التوراة ولا غيرها ومجرد احتماله لا يكفي في التصديق به . وما ذكر فيها من تحنيطه لا يدل على تصبيره ، إذ كل الموتى يحنطون عند الإمكان .

الثالث : أنك ناف ، ونحن مثبتون ، والإثبات مقـــدم على النفي ، إذ استوى المخبران ، فكيف والمخبر بالإثبات ذو ناموس عظيم . وأنت فيلسوف علج .

الرابع : — وهو المختار عندي في الجواب — منع صحة الحديث ، فإني كشفت عنه في كتاب « الجنائز » من « الموطأ » فلم أجده ، ولم أعلم أحداً رواه إلا « أحمد » قال : حدثنا عبد الرزاق قال : حدثنا ابن جريج ، قال : أخبرني

---

(١) نص التوراة : « وأمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه ، فحنط الأطباء إسرائيل ، وكمل له أربعون يوماً ، لأنه هكذا تكمل أيام المحنطين ، وبكى عليه المصريون سبعين يوماً » (التكوين ٥٠ : ١ - ٣).

أبى : أن أصحاب النبى ﷺ لم يدروا أين يقبروه ؟ حتى قال أبو بكر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لم يقبر نبى إلا حيث يموت » فأخروا فراشه وحفروا له تحته .

قلت : وفى هذا الحديث جهالة وإرسال ، لأن أبا ابن جريج لا يعلم حاله فى الرواية ، وقد أرسله عن الصحابة ، فلا نعلم هل سمعه منهم أو من غيرهم عنهم ؟

ورواه ابن هشام فى السيرة من وجه لا يسكن إليه أيضاً . وروى الترمذى من حديث عائشة قالت : لما قبض رسول الله — ﷺ — اختلفوا فى دفنه . فقال أبو بكر سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً ما نسيته ، قال : « ما قبض الله نبياً إلا فى الموضع الذى يحب أن يدفن فيه » ادفنوه فى موضع فراشه ، وهو حديث غريب . وفى إسناده عبد الرحمن بن أبى بكر المليكى ، وهو يضعف . كيف وقد روى ابن مكة فى « أماليه » والسهيلى فى « الروض » : أن النبى ﷺ لما مات قالوا له : كيف نصلى عليك ؟ قال : « إذا وضعتمونى على شفير قبرى فى بيتى فاخرجوا عنى ، فإن الملائكة تصلى على أولا » وساق الحديث . فمع هـذا النص كيف يكون الخلاف فى موضع دفنه ؟ فهذا مما يدل على ضعف ذلك الحديث .

• • •

قال : ومن هـذا القبيل من الإخبار عما يستقبل ما أخرجه مسلم عن أبى سعيد عنه قال : « لا تأتى مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة » وهذا باطل للعيان ، فها نحن على وجه الأرض أكثر من العالم فى ذلك الزمان . وقد أتت المائة سنة التى ذكرها ، وبعدها مئون » .

قلت : هـذا جهل بمراد هذا الحديث . وإنما المراد به ما تبين فى حديث أبى سفيان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما على الأرض نفس منفوسة — يعنى اليوم — يأتى عليها مائة سنة » رواه مسلم والترمذى .

وعن ابن عمر قال : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء فى آخر حياته فلما سلم قال : « أرأيتم ليلتكم هذه ؟ على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد (١) » .

قال ابن عمر : فوهم الناس فى ذلك فيما يتحدثونه من هذه الأحاديث عن مائة سنة ، وإنما قال رسول الله : « لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد (٢) » يريد أن ينخرم ذلك القرن . . أخرجاه فى الصحيحين ، ورواه أبو داود والنسائى والترمذى . وقال حديث حسن صحيح . لحديث أبى سعيد إن لم يكن فيه هذا التأييد فهو محمول عليه بهذين النصين .

قال العـــلماء : وفائدة إخبارهم بذلك : أن يبادروا بالعمل ويغتنموا مدة المهل .

ولعمرى أن هذا النصرانى معذور فى سوء فهمه لهذا الحديث ، إذ كان بعض الصحابة وهم فيه . ثم العجب ممن يفهم من هذا الحديث غير ما ذكرناه ، مع أنه عليه السلام وعد بأشياء تكون عند اقتراب الساعة كالدجال(٣) ويأجوج

(١ و ٢) تنص التوراة على أن الإنسان لا يزيد عمره عن مائة وعشرين سنة [تكوين ٦ : ٤] والواقع يكذب التوراة .

(٣) أحاديث الدجال والمهدى من الخرافات . أنظر الفتاوى للشيخ شلتوت .

ونحوها من نفخ الصعق ، والقواطع الدالة على بقاء العالم ، لكن الوهم لم يسقط عن أحد . والله أعلم .

• • •

قال : وفى كتاب « الطلاق » من البخارى عن سهل بن سعد الساعدى قال: قال رسول الله : « بعثت أنا والساعة كهاتين » مشيراً بالسبابة والوسطى . ومن باب قرب الساعة من البخارى ومسلم عن عائشة : أن رجالا من الأعراب كانوا يأتون النبى ﷺ فيسألونه عن الساعة فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول : « إن يعش هذا لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم » .

قلت : أما الحديث الأول فصحيح المعنى ، إذ معناه أنه بعث قريباً من قيام الساعة ، لكن البعد والقرب إضافيان ، فقد يكون الشىء قريباً بالنسبة إلى أبعد منه ، بعيداً بالنسبة إلى أقرب منه ، والتفاوت بين الوسطى والسبابة نحو سبعها تقريباً ، ومنذ بعث آدم إلى حينئذ نحو سبعة آلاف سنة ـ على خلاف فى ذلك ـ (١) .

ومن عهد النبوة إلى الآن قريب من ألف سنة ، فهذا تقريب صحيح . ووقت القدح فى هذا الحديث لم يأت بعد (٢) . فإن تمادى العالم نحو ألف أو ألفى سنة أخرى قد يتجه للقادح أن يقدح أو يجيب بجواب آخر .

وأما الحديث الآخر فصحيح أيضاً ، والمراد بقيام ساعتهم فيه : موتهم ، لأن من مات فقد قامت قيامته ، لأنه يصير إلى أوائل أوقات القيامة ،

---

(١) أنظر التواريخ فى كتاب إظهار الحق .

(٢) لم لم يقتصر المؤلف على البعد والقرب الاضافيان ؟

إذ القبر أول منازل الآخرة . ثم هـذا معارض بما فى آخر الفصل الرابع والعشرين من إنجيل مرقس . والتاسع والعشرين من إنجيل لوقا حيث يقول المسيح : « إن ها هنا قوماً من القيام لا يموتون حتى يعاينوا ملكوت الله»[1]

ومراده بملكوت الله : القيامة ، كما فى سائر المواضع من الإنجيل ، ولا يصح حمل ملكوت الله ها هنا على الآيات والمعجزات ، لأنهم كانوا قد عاينوها.

• • •

قال : وفى تفسير ابن عطية لسورة القمر ، قال أنس « خطب رسول الله وقد كادت الشمس تغيب فقال : « ما بقى من الدنيا فيما مضى إلا كمثل ما بقى من هذا اليوم فيما مضى» وقال : « إنى لأرجو أن يؤخر الله أمتى نصف يوم»

قلت : هذا حديث له أصل فى الرواية لكن لا نحقق صحته كغيره ، لكن رواه النسائى وابن ماجة والترمذى وحسنه ، فلا يلزمنا الجواب عنه ، بل الأحاديث الثابتة فى الرواية كأحاديث البخارى ومسلم لا يلزمنا الجواب عنها فى هذا المقام ، لأنها آحاد ، والآحاد غايتها أن تثبت بها أحكام الفروع لا أن تورد نقضاً على أصول الشرائع . ولهذا قال أكثر طوائف المسلمين : « لا تثبت بأخبار الآحاد صفة الله ، لأن مسائل الأصول القطعية لا تثبت إلا بقاطع » وإنما نحن تبرعنا بالجواب عن تفاصيل هذه الأحاديث تبرعاً .

وهـذه قاعدة نافعة فى هذا الباب ـ وقد سبقت فى أول الكتاب ـ ثم إن تبرعنا بالجواب عن هذا كما تبرعنا به عن غيره . فمعنى قوله « ما بقى من الدنيا

---

(١) مرقس ١٣ : ٣٠ لوقا ٢١ : ٣١-٣٢ وليس المراد بملكوت الله القيامة . انظر البشارة بنبى الاسلام .

فيما مضى إلا كمثل ما بقى من هـذا اليوم فيما مضى ، هو قريب من قوله : « بعثت أنا والساعة كهاتين » .

والمعنى الجامع بين الحديثين بقليل ما بقى من الدنيا بالإضافة إلى ما مضى منها ، وهذا صحيح ، فإنه عليه السلام أخبر بجملة من أشراط الساعة (١) . وقد ظهر كثير منها ، فما عادت تتأخر ، ولو عاش هذا الخصم لا يضر .

وأما قوله : « إنى لأرجو أن يؤخر الله أمتى نصف يوم » فالمراد باليوم يوم من أيام الآخرة ، وهو ألف سنة لقوله تعالى : « وإن يوماً عنـد ربك كألف سنة مما تعـدون (٢) » ولا شك أن علم وقت الساعة من كنوز الغيب الذى استبد الله بعلمه لقوله : « إن الله عنده علم الساعة (٣) وقوله : « قل علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو (٤) » .

فالنبى - ﷺ - ما كان يعلم عين وقت السـاعة ، لأنا لم نعتقده إلهاً ، كما اعتقدتم إلهية المسيح ، بل هو رسول كريم يعلم ما علمه الله - سبحانه - كما قال « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول (٥) » فكان يعلم أمارات الساعة وقد أخبر بها ووقع بعضها ونحن المنتظر الباقى لا عين وقتها ولذلك قال : « إنى لأرجو أن يؤخر الله أمتى نصف يوم » يعنى خمسمائة سنة وها قد أعطاه الله رجاءه وزيادة . فهذا اليوم سبعمائة سنة وسبع سنين (٦) » . وفى الزمان تراخى .

---

(١) كيف يعترف المؤلف بأشراط الساعة . وفى القرآن الكريم . لا تأتيكم إلا بغتة » ؟

(٢) الحج ٤٧ والسجدة ٥

(٣) لقمان ٣٤

(٤) الأعراف ١٨٧

(٥) الجن : ٢٦ و ٢٧

(٦) يشير المؤلف إلى عصره والحديث يدخل فى الآحاد ، ولا داعى لتبرعه

قال : « وفى كتاب « الطب » من البخارى عن عائشة قالت : سمعت النبى يقول : « إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام » .

قلت : هذا الحديث صحيح متفق عليه ، وفى لفظ البخارى عن ابن أبى عتيق قال : « عليكم بهذه الحبة السوداء ، خذوا منها خمساً أو سبعاً فاسحقوها ، ثم اقطروها فى أنفه ـ يعنى المريض ـ بقطرات زيت فى هذا الجانب فإن عائشة حدثتنى أنها سمعت النبى ﷺ يقول . الحديث

• • •

وعن قتادة قال : حدثت أن أبا هريرة قال : « الشونيز دواء من كل داء إلا السام » قال قتادة : يأخذ كل يوم إحدى وعشرين حبة ، فيجعلهن فى خرقة ، فلينقعه ، فليستعطيه كل يوم فى منخره . الأيمن قطرتين ، وفى الأيسر قطرة ، والثانى فى الأيسر قطرتين وفى الأيمن قطرة . والثالث فى الأيمن قطرتين وفى الأيسر قطرة .

قلت : فالظاهر أن هذا عن توقف فلا ينبغى أن يقدح فى هذا الخبر حتى يجرب على هـذه الصفة ، فإن صح فقد حصل المقصود ، وإلا أمكن الجواب من وجوه :

أحدها : أن أثر الشىء قد يتخلف لمانع ، فربما تخلف أثر الشونيز لعدم معرفة المستشفى به فى تلقى خبر الشارع ، ولا شك أن الشارع لم يبعث طباً ولا طبيباً ، وإنما يصف ما يصف من هـذا على جهة التبرك باختياره ، فيصير كالأدعية التى أمر بها ، وقد صح عنه أنه قال : إذا دعيتم الله فادعوه وأنتم

موقنون بالإجابة ، فإن الله لا يسمع دعاء من قلب غافل لاهى (١) أو لغير ذلك من الموانع .

الثاني : حمل الخبر على التقييد بما إذا كان المعالج به النبى ﷺ كرامة له وإعجـــازاً .

الثالث : تقييـده بما إذا ركب مع أدوية خاصة تركيباً خاصاً أو فى زمن خاص أو فى مزاج خاص . وليس هذا بأول لفظ قيد من ألفاظ الأنبياء ، فإن الإطلاقات فى كلامهم كثيرة والعلماء يقيدونها . ثم ماذا ينكر من الخبر . وقد ذكر الأطباء للشونيز منافع كثيرة ؟

قال « ابن جزلة » فى « المنهاج » :

« الشونيز » حار يابس فى الثالثة مقطع البلغم ، جلا محلل للرياح والنفخ ، ويقطع الثاليل والخيلان والبهق والبرص والجرب ، وينفع من الزكام البارد ، وخصوصاً مقلواً مجموعاً على خرقة كتان ويطلى به جبهة من به صـداع بارد ويفتح السدد والسعوط به ، ينفع ابتداء الماء ، وشربه ينفع من انتصاب النفس ويقتل الديدان ، ولو طلى على البيرة وبذر الحيض وبالماء والعسل للحصاة ، ويحل الحيـات البلغمية والسوداوية ، ودخانه مطرد الهوام ، وهو ينفع من لسع الزنبار ، وقدر ما يؤخذ منه إلى درهم » .

وذكر غيره له غير ذلك من المنافع . ثم إنه إذا كان حاراً يابساً فى الثالثة

---

(١) لا يقبل الله الدعاء من أى إنسان إلا إذا عمل الانسان الأسباب التى تؤدى إلى النتائج التى يرجوها ويدعو لها ، فإن النبى ﷺ قد جيش الجيوش وأعد العدة للحرب ثم دعا الله أن ينصره ، فاستجاب دعاءه .

فاتجاه مضمون الحديث منه معقول . وذلك لأنه متمكن فى طبع الحياة وهو الحرارة . فهذا أصل يبنى عليه ، ثم المرض ينقسم بانقسام العناصر الأربعة فى كيفياته ، وهى معروفة .

وتقرر أن العلاج قمع الشيء بضده ، فإن كان المرض بارداً رطباً ، فالشونيز مضاد له فيصلح دواء له . وإن كان بارداً يابساً فقد تضادا فى الحرارة واشتركا كما فى اليبوسة يعدل بالمرطبات ، وكذلك إن كان المرض حاراً رطباً أو يابساً تضادا فى الحرارة . وما اشتركا فيه يعدل على ما شرحته الصناعة .

وبهذا التقرير يصح أن فيه دواء من كل داء .

بقى أن يقال : فعلى هذا تبطل فائدة التخصيص بالشونيز ، لأن هذا متجه فى كل حار يابس أو رطب فيقال : يجوز أنه خصه بالذكر لما اختص به من خواص لا يشاركه فيها ، وأنه كان أعم وجوداً عندهم أو أن هذا مفهوم لقب فلا يكون حجة على انتفاء الحد فى غيره .

الشرط الثانى

الطهارة

قال : « وإذ قد فرغنا من امتحان الشرط الأول وهو الصدق . وحصلنا من ذلك على ما اتضح وظهر . فلندخل إلى امتحان الشرط الثانى وهو الطهارة فلنتأمل ما صح عنه من ذلك » .

قلت . قوله : « وحصلنا من ذلك على ما اتضح وظهر » يوهم أنه حصل على مطلوب ولم يحصل بما أجبنا به على شىء فليجمع خاطره .

. . .

قال : « فمن ذلك حديث البخارى عن أنس قال : كان النبى يدور على نسائه فى الساعة الواحدة من الليل والنهار - وهن إحدى عشرة - قيل له : وكان يطيقه . قال : كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين »

ثم ساق أحاديث عشرة النبى - عليه السلام - لنسائه واستمتاعه بهن ، نحو ما روت عائشة أن رسول الله كان يقبلها وهو صائم ويمص لسانها، وقولها: « خالط ريقى ريقه فى آخر أيام الدنيا ، وكان يأمرنى وأنا حائض فأتزر ويباشرنى » وقصة تزوجه زينب . وقوله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها (١)

وقول عائشة حين نزلت « ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء (٢) » .

---

(١) الأحزاب ٣٧ (٢) الأحزاب ٥١ .

ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . وما ذكره المسلمون من أن من خصائصه أنه كان إذا وقع بصره على امرأة ورغب فيها وجب على الزوج طلاقها ، وأنه لما رأى زينب حاسرة قال : « سبحان الله مقلب القلوب » وأن صفية صارت لدحية فوصفت لرسول الله ـ ﷺ ـ فبعث إلى دحية فأعطاه ما أراد ثم أخذها فقال لأم أنس : « أصلحيها » .

وذكر السبب فى قوله تعالى (لم تحرم ما أحل الله لك ؟ تبتغى مرضاة أزواجك ؟[1]) وأشباه هذا . ولم يذكر فى هذا الشرط تشنيعاً بناء على ما تقدم فى أول الكتاب من كلام موسى بن عبيد الله وغيره : إن حاسة النكاح عار فهذه مقدمة . ثم أثبت هنا أن محمداً كان مولعاً بحاسة النكاح فانتظم له الدليل فصار فى التقدير تقريره هكذا :

محمد كان مولعاً بحاسة النكاح ، وحاسة النكاح عار ، فمحمد كان مولعاً بالعار ومن كان مولعاً بالعار لا يكون طاهراً . والنبى من شرطه أن يكون طاهراً ، فمحمد ليس بطاهر فلا يصلح أن يكون نبياً .

والجواب عن هذا قد سبق أول الكتاب تاماً كاملا ، لكن نبين هنا وجه بطلان شبهته ، وذلك بمنع أن حاسة النكاح عار ، بل هو من أحسن الأفعال ، وجيد القرب ، لأن فيه مصلحتين عظيمتين .

إحداهما : وجودية . وهى إقامة النوع الإنسانى بتكثير العباد والعباد

والثانية : عدمية ، وهى إعدام الزنا بالاكتفاء بالحلال ، ولهذا قال النبى ﷺ لأصحابه : « فى فعل كذا صدقة ، وفى كذا صدقة ، وفى بضع أحدكم

---

(١) أول التحريم .

صدقة، قالوا يارسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ثم يثاب ؟ قال: « أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان يعاقب ؟ قالوا نعم . قال فكذلك » .

ثم يقال : إن كان هذا عاراً فالأنبياء المتقدمون أولى به ، فقد كان لسليمان ألف من بين زوجة وسرية (١) وطاف فى ليلة واحدة على سبعين امرأة ، فكانت له امرأة يحبها فعبدت صورة إبيها فى داره بغير علمه ، فعاقبه الله على ذلك بأن نزع عنه الملك أربعين يوماً .

وكان لداود تسع وتسعون امرأة (٢) ، ثم صعد يوماً السطح فرأى امرأة

---

(١) أول الإصحاح الحادى عشر من سفر الملوك الأول

(٢) تقص التوراة نبأ زواج داود عليه السلام من امرأة أوريا الحثى فى الاصحاح الحادى عشر من سفر صموئيل الثانى . وخلاصتها أن داود رأى امرأة أوريا وهى تستحم ، كانت المرأة جميلة المنظر جداً ، فأرسل زوجها إلى (يوآب) قائد جنده ليجعله فى وجه الحرب الشديدة ليموت ، ولما مات أوريا ووصل الخبر إلى امرأته ندبت بعلها (ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته ، وصارت له امرأة وولدت له إبناً)

وفى الاصحاح الثانى عشر : أن الله تعالى أرسل (ناثان) إلى داود ليخبره عن سخطه عليه ، فجاء إليه وقال له : كان رجلان فى مدينة واحدة ، واحد منهما غنى والآخر فقير ، وكان للغنى غنم وبقر كثيرة جداً . وأما الفقير فلم يكن له شىء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها وكبرت معه ومع بنيه جميعاً . تأكل من لقمته وتشرب من كأسه وتنام فى حضنه ، وكانت له كإبنه . فجاء ضيف إلى الرجل الغنى فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيىء الضيف الذى جاء إليه فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيأ للرجل الذى جاء إليه فحمى غضب داود على الرجل جداً . وقال لناثان حى هو الرب . إنه يقتل الرجل الفاعل ذلك ، ويرد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمر ، ولأنه لم يشفق » .

أوريا الحثي تغتسل ، وكان من فرسانه وقواده فأرسل فشدد عليه في الجهاد حتى قتل ثم تزوج امرأته فكانت هي أم سليمان ، وكانت تلك خطيئته . ومحمد عليه السلام إنما أخذ امرأة من زوجها باختياره بإذن الله .

وفي التوراة أن « إبمالخ » أشرف يوماً على « إسحق » وهو يلاعب امرأته « رفقة » [1] وأن « لوطاً » أسكرته ابنتاه حتى أحبلهما [2] وأن « رويل » ابن « يعقوب » وطىء سرية أبيه ونجس فراشه [3] ، وأن « يهوذا ابن يعقوب » زنا بكنته على الطريق ورهنها عمامته وخاتمه وقضيبه على جدي يعطيها إياه [4] .

فأي العارين أشد ؟ من ينكح النساء حلالا أم من ينكحون زنا ؟

على أننا لا نصدق هذا في الأنبياء ، بل هو عندنا محرف مبدل ، لكنه لازم لكم لأنه في التوراة . وأنتم تحتجون علينا بها .

ثم إنا نقول لهذا النصراني : إن أول من نكح النساء « آدم » ثم تتابع بنوه في النكاح ، الأنبياء والأولياء والصالحون والطالحون . فكيف يكون هذا عاراً في حق بعضهم دون بعض ؟ وهل هذا إلا عناد ؟

= فقال ناثان لداود : أنت هو الرجل ... قد قتلت أوريا الحثي بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة وإياه قتلت بسيف بني عمون »

وفي نفس الاصحاح أن الولد الأول لداود من « بثشبع » امرأة « أوريا » قد مات عقوبة لداود ، وولدت بعده « سليمان » عليه السلام .

هذا ما في التوراة عن فتنة داود عليه السلام .

(١) التكوين ٢٦ - ٨ (٢) التكوين ١٩ - ٣٠ - ٣٨
(٣) « ٣٥ - ٢٢ (٤) « ٣٨ - ١٨

ولأجل هذا السؤال الفاسد أنزل الله على نبيه ـ عليه السلام ـ : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية[١])

ولعلك حيث أن المسيح لم ينكح النساء يلزم العار جميع الأنبياء . وذلك لا يلزم ، فإن المسيح ـ على رأيك ـ كان هو الله ، أو ابن الله ، فلا يجوز عليه النكاح .

وعلى رأينا : أن ذلك كان منه زهـــداً وعزوفاً عن الدنيا ، ولو تزوج وأولد لكان أكمل له ، وعلى رأى بعض الناس: أنه كان حصـ [illegible] يحيى بن زكريا ، لا يقدر على إتيان النساء . وعلى رأى آخر [illegible] ذلك كان آية ، كان وجوده لا من بشر آية . فإلزامك على طريق المسيح ما يعود بالقدح على النوع الإنسانى على الإطلاق لا يجوز ولا يسمع[٣] .

---

(١) الرعد ٣٨

(٢) الصحيح أنه كان حصوراً ، أى منذوراً لله من الصغر ، والمنذور فى شريعة بنى إسرائيل لا يتزوج .

(٣) المؤلف لم يرد على الاتهام رداً مباشراً ، وسنرد على الآيات . أما قوله (فلما قضى زيد منها وطراً ... إلخ) فيفهم من الآيات أن الرسول ﷺ أراد أن يتزوج « زيد » وهو عبد عتيق من « زينب » وهى حرة ذات حسب ونسب . ولم يوفق هـذا الزواج لأن الكفاءة فى النسب من أسباب دوام النكاح . ويفهم منها أن عادة كانت شائعة فى الجاهلية وهى اعتبار الإبن المتبنى بمنزلة الإبن من الصلب وقد أراد الرسول ــ عن أمر من الله تعالى ــ الزواج من « زينب » بعد طلاقها من « زيد » ليبين أن الإبن المتبنى غير ابن الصلب ، ولا يفهم أن الرسول راغت عينه على زينب ، فهذا من افتراء المفترين .

وأما آية (لم تحرم ما أحل الله لك ؟) ففيها أقوال كثيرة ذكرها القرطبى فى تفسيره .

= وأما آية (ترجى من تشاء .. الخ ، فتفسيرها مرتبط بما قبلها من الكلام وهو : (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن . الخ) والخطاب ليس للنبي صلى الله عليه وسلم وحده ، بل لأتباعه معه والمعنى : يحل لكل إنسان أن يتزوج المرأة بمهر وأن يتمتع بالجوارى بالمال الذى يدفعه فى شرائهن ويحل لكل إنسان أن يتزوج من أقربائه من بنات العم وبنات العمة . الخ ويحل له أن يتزوج من الغرباء . وإذا رغبت امرأة أن تتنازل عن مهرها لرجل يتزوجها ، فالزواج جائز ويأخذ حكم (الهبة) .

ثم بين الله تعالى أن للرجل النظر إلى النساء فى الزواج فيؤوى إليه من يشاء بالزواج فى الحال ـ فالإيواء فى الآية بمعنى الزواج ـ وقد يتمنى الرجل الزواج من امرأة فيؤخر العقد عليها إلى حين ـ وهذا معنى الإرجاء ـ أى أن النساء أمام الرجل كالسلع فى الاسواق ، يأخذ السلعة التى يرغب فيها الآن ويقدر على شرائها ويترك السلعة التى يرغب فيها أيضاً لحين القدرة على شرائها وإذا ابتغى الرجل زوجة كان قد عزلها أى طلقها ، يصح له أن يتزوجها إلا إذا طلقها ثلاثا فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره .

ثم بين الله تعالى أن هذا تشريع منه ولا يصح للرسول ﷺ ولا لأحد من أتباعه أن يتزوج امرأة حرة كافرة ولو كانت حسناء إلا الجوارى فله أن يتمتع باليهودية والنصرانية والكافرة بملك اليمين . وهذا معنى قوله تعالى : (لا يحل لك النساء من بعد) أى من بعد تشريعنا هذا .

ومن الواضح أن الآيات لا يقيدن عدد النساء الحرائر ، ولا الجوارى ، فللرجل أن يتزوج أى عدد من النساء بشرط القدرة عليهن فى الصحة والمال وقد حرم الله على الضعفاء والفقراء الزواج حتى تتحسن أحوالهم فقد قال تعالى : (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) .

ولو كان هذا المعنى واضحاً للعلماء لما اختلفوا فى قوله تعالى : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) على أقوال منها :

١ ـ قال بعضهم لا يزيد الرجل عن أربعة وإذا رغب فى خامسة فليطلق واحدة من الأربعة أو ينتظر حتى تموت منهن واحدة .

٢ ـ وقال بعضهم : يصح للرجل أن يتزوج تسعة ، يسكن جميعاً على ذمته إذا أراد ، لأن إثنين زائد ثلاثة زائد أربعة يكونون تسعة .

٣ ـ وقال بعضهم : يصح للرجل أن يتزوج ثمانى عشرة امرأة ويسكن جميعا على ذمته إذا أراد ، لأن مثنى إثنين إثنين ، وثلاث : ثلاث ثلاث ، ورباع : أربعة أربعة فالمجموع ثمان عشرة امرأة . .

٤ ـ وقال بعضهم للرجل أن يتزوج أى عدد من النساء بدون تحديد لأن العدد فى الآية لا يراد به التقييد ، بل هو للاطلاق ورأى البعض هذا هو الموافق لآيات سورة الأحزاب .

وقد فهم البعض قوله تعالى : (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) بأن المرأة التى تهب نفسها لرجل متنازلة عن مهرها لا تصح لغير النبى وهذا فهم خاطىء لأن عقد البيع شبيه بعقد النكاح وكما للبائع الحق فى التنازل عن ثمن سلعته برضاه ، يجوز للمرأة التنازل عن صداقها برضاها وقوله (خالصة لك من دون المؤمنين) ، معناه أن زوجات الرسول ﷺ نزل فيهن من القرآن (ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) فالمرأة التى وهبت نفسها للنبى صارت له خالصة من دون المؤمنين لأن زوجات الرسول وهى منهن ـ خالصات له من دون المؤمنين .

الشرط الثالث

الإعجاز

قال : (الشرط الثالث) الإعجاز ولم يأت محمد بمعجز ، ولا خارق من خوارق العادة .

قال : والدليل على ذلك : ما جاء فى كتب « السير » أن أشراف قريش اجتمعوا عند الكعبة . فقالوا : يا محمد ما أدخل أحد على قومه ما أدخلت علينا لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسببت الآلهة فإن كنت تريد السيادة سودناك ، أو المال أغنيناك أو كان بك جنون بذلنا أموالنا وأبرأناك فقال : « لا شىء من ذلك كله ، بل الله أرسلنى إليكم بشيراً ونذيراً » قالوا : « فإن كنت غير قابل ما عرضناه عليك ، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق نكدا منا ، ولا أشد عيشا فسل ربك - إن كنت نبياً - فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليخرق فيها أنهاراً ، كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فى من مضى منهم « قصى بن كلاب » فإن كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول ، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك ، وعرفنا لك منزلتك من الله . وأنك رسوله .

فقال لهم : « ما بهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من الله الذى بعثنى به » قالوا : فسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك فيما تقول ، ويراجعنا عنك وسله فليجعل لك جنانا وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى بالأسواق وتلتمس المعايش ، كما نلتمسها .

قال : « ماأنا بفاعل . ولاأسأل ربى هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً » .

قالوا : فأسقط السماء علينا كسفا . وقالوا كثيراً حتى انتهى مقالهم إلى أن قالوا : أما علم ربك أنا سنسألك عنه فيعلمك بما تراجعنا به ، ويخبرك بما هو صانع ، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به .

قد بلغنا : أنه إنما يعلمك رجل باليمامة يقال له : الرحمن وإنا ـ والله ـ لانؤمن بالرحمن أبداً .

ثم انصرف محمد حزيناً إلى أهله » .

قال : « أفلا ترى كيف سألوه عن جملة معجزات ، فلم يأت بواحدة ، فظهر أنه إنه كان يعلمه القرآن : الرحمن . الذى ذكروه ، لا غير » .

قلت : أما قوله : إن محمداً لم يأت بمعجز فعندنا من معجزاته مايكتفى ببعضه العاقل(١) وأما ماذكر من أنه لم يجب قريشاً إلى ماسألوه من المعجزات فجوابه من أربعة أوجه :

---

(١) إن الذى يدل على صدق محمد ﷺ فى دعوى النبوة هو (القرآن الكريم) لا غيره ، لأنه كتاب يعجز الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، وقدكان هو أميا لا يقرأ ولا يكتب ، أما المعجزات الحسية مثل إنشقاق القمر وحديث الضب وحنين الجذع فقد اعترف بها قوم وأنكرها آخرون . وحجة المنكرين : أن المعجزات الحسية لم تكن سبب هداية الأمم السابقة ، وعلى ذلك لا داعى لظهورها على يد نبى جديد فقد قال تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) ويرد المعترفون بها على المنكرين بأن الآيات الممنوعة هى الآيات التى اقترحتها قريش مثل قلب جبل الصفا ذهبا . والحق أن المعجزات الحسية لم تحدث سواء

أحدها : أنه علم أنهم معاندون ، وأنه لو أتاهم بذلك لم يؤمنوا . والدليل على ذلك فى كلامهم . فانهم قالوا له : أزل عنا هذه الجبال ، واخرق لنا الانهار فى أرضنا ، وأوسعها علينا، وابعث لنا آباءنا مع « قصى » فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك .

فعلقوا تصديقهم له على شرطين: إزالة الجبال ونحوها، وتصديق الموتى له ، ولم يكتفوا بأحد الشرطين . ولا شك أن من له نية فى متابعة الحق يكتفى ببعض ذلك . فإن بعد تصديق الموتى له فى ذلك لا يبقى إلا العناد . فلما علم عنادهم لم يجبهم إلى ذلك . ولهذا أوحى الله إليه : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله » .

وكذلك كان . فانه لم يؤمن من قريش إلا يسير ، أول الأمر .

الوجه الثانى : أنه علم باستقراء أحوال الأمم الخالية مع أنبيائهم أنه إن عاجلهم بإظهار الآيات مع ما علمه منهم من العناد ، أنهم يهلكون ، كما هلك قوم فرعون بعد إظهار موسى آياته وعاد وثمود وغيرهم ، وكما مسخ قوم من من قوم المسيح : خنازير ، لما لم يؤمنوا بعد نزول المائدة ، ونحو ذلك ، فأراد التمادى بهم رجاء أن يفيئوا إلى الحق .

وقد جاء فى الحديث . أنه عليه السلام قال : « خيرت بين أن يجعل الله لى الصفا ذهبا ثم إن لم يؤمنوا هلكوا ، وبين أن ينظروا حتى أدعوهم إلى

= المقترحة أو التى زعموا حدوثها من غير اقتراح ؛ لأن القرآن صريح فى نفيها ، لتكذيب الأولين بها ، ولأن الإعجاز كما هو للمعاصرين للنبى ﷺ هو أيضاً لكل مسلم إلى يوم القيامة ، ولا يشاهد الآن أحد معجزات حسية .

الإسلام ، فاخترت أن ينظروا ، معنى الحديث هذا ، وهو عليه السلام كان حريصاً على إسلامهم ، لا على تعجيل هلاكهم ، ولهذا قال الله ، سبحانه — : «وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . وآتينا ثمود الناقة مبصرة ، فظلموا بها . وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً (١) » .

أى إلا أن كذب بها الأولون فأهلكناهم ، وأنت استأنيت بقومك فأجبناك إلى ذلك . ولهذا لما اتاهم بعد ذلك بالخوارق كانشقاق القمر ، وتسليم الشجر وعجزوا عن معارضة القرآن ، ولم يؤمنوا جاءهم العذاب ، فاستؤصلوا بالسيف يوم بدر وغيره .

الوجه الثالث : أنهم سألوه ما يسقط فائدة التكليف بالإيمان بالغيب وبيانه أنهم سألوه إحياء الموتى . فلو بعثهم لهم لأخبروهم بصحة ما وعدهم ، وأوعدهم من ثواب وعقاب ، وجنة ونار ، فكان يحصل لهم بذلك العلم الضرورى بما هناك فيصير إيمانهم كإيمان فرعون ، لما عاين الملك ليقبض روحه . قال : «آمنت» ، «فلم يك ينفعهم إيمانهم ، لما رأوا بأسنا »(٢) .

والمقصود : إنما هو الإيمان الاختيارى ، لا الضرورى . وما يفضى الى سقوط فائدة التكليف لا تجوز الإجابة اليه . وكذلك إنزال الملك عليهم يسقط فائدة التكليف .

الرابع : المعارضه بما فى الفصل الحادى والعشرين من إنجيل متى : انهم سألوا المسيح آية ، فلم يأت(٣) بها . والجواب مشترك .

---

(١) الإسراء ٥٩ (٢) آخر غافر (٣) متى ١٦ : ٤ ولوقا ٢٣ : ٨
ولاحظ : أن ارقام الفصول فى الترجمة التى كانت زمن المؤلف تختلف عن الترجمة التى فى زماننا .

وبما يدل على جهلهم وعنادهم فى سؤالهم له : أنهم أنكروا عليه فقره ، وابتغاءه الرزق بالأسواق . وقالو : قل لربك يجعل لك خياما وقصوراً وكنوزا من ذهب يغنيك عن ذلك .

وهل فى إبتغاء الرزق عيب عند أحد من العقلاء ؟ وقد كان الأنبياء يبتغونه برعاية الغنم وغيرها وهل علم من حال أحد من الأنبياء أن الله جعل له خياما وقصوراً وكنوزاً من ذهب . إنما فعل ذلك بالفراعنة ليطغيهم كقارون وفرعون وهامان ونظرائهم . ولذلك عاب الله عليهم قولهم حيث قال « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا » الآيات الى قوله : « قل سبحان ربى . هل كنت إلا بشراً رسولا »[1] ثم قال : « تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصوراً . بل كذبوا بالساعة[2] » وأما قولهم : أما علم ربك أنا سنسألك عما سألناك ، فيخبرك بما تراجعنا به ، وبما يفعل بنا إذا لم نقبل منك ؟ فإنا نقول تحذيره الذى راجعهم به ، هو الذى أمر به ، إذ كان لا ينطق عن الهوى . « أن هو إلا وحى يوحى[3] » وقد كان يتوعدهم بما سيجرى لهم كقوله : « ولتعلمن نبأه بعد حين[4] » وقوله : « إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد[5] » ونحو ذلك كثير .

وقولهم وقوله : إنما يخبره بذاك ويعلمه رحمن اليمامة . الجواب عنه من وجوه :

أحدها : أنه لم يصح لنا عن محمد ﷺ أنه دخل اليمامة ليجتمع بترجمانها ولا جالس أحداً من علماء الأولين ، ولا الكهان بمكة ولا غيرها . فهذا كذب

(١) الإسراء ٩١ - ٩٣ (٢) الفرقان ١٠ - ١١ (٣) النجم ٤
(٤) آخر ص (٥) سبأ ٤٦

منهم وافتراء وانما هذا منهم كان على جهة الاستهزاء ، لما قال لهم : « اسجدوا للرحمن[1] » يعنى : الله قالوا : لا رحمن إلا رحمن اليمامة . أنسجد له ؟

كما أنه لما توعدهم بالزقوم ، قال لهم « أبو جهل » : أتدرون ما الزقوم الذى يتوعدكم به محمد ؟ إنما هو الزبد بالعسل . أما والله لئن رأيناه لنزقمناه تزقما .
ولذلك يقول الله له : « وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا درست »[2]
وقال : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون[3] » .

الثانى : أن محمداً ﷺ كان أمياً لا يكتب ، يتيما لا أب له ، مستضعفاً بين قريش وجبابرتها ، فكيف يختصه رحمن اليمامة بالتعليم دون غيره من أصحاب الكتابة والقوة ؟ .

الثالث : أن الذى نسبه إلى التعلم من رحمن اليمامة إنما هم نفر يسير من قريش ، من جبابرتها وجهالها ، على ما ظهر من جبروتهم وجهلهم فى سؤالهم فكيف اختص هؤلاء بعلم ذلك دون بقية سادات العرب الذين اتبعوه من سائر القبائل كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى غيرهم ؟ .

مع أن المسيح يقول فى الإنجيل : « ما من خفى الا سيظهر ، ولا مكتوم الا سيعلن[4] » فلو علم بقية العرب ذلك ، وصح عندهم لما تابعوه ، ولكان مع الذين خالفوه وهذا وفى هذا ما تتوفر الدواعى على نقله وظهوره ، فاختصاص نفر يسير به ، دون سائر العرب محال عادة .

الرابع : أن علماء العرب وعقلاءهم كانوا يصدقونه فى دعواه ، كورقة ابن نوفل وأبى طالب حيث يقول :

وعرضت ديناً، لا محالة أنه ... من خير أديان البرية دينا
إلى أن قال : ... ولقد صدقت وكنت قدماً أمينا

---

(١) الفرقان ٦٠ (٢) الأنعام ١٠٥
(٣) العنكبوت ٤٨ (٤) متى ١٠ : ٢٦

ورأى إبنه «علياً» يصلى مع رسول الله فقال : يا بنى ما هذا ؟ قال : علمنيه محمد ، فقال : يا بنى تابع ابن عمك ، فإنه لا يرشدك إلا إلى خير .

وإنما منع أبا طالب من الإسلام ، ما ذكره فى شعره ، حيث يقول :

لولا الملامة ، أو حذارى سبّة   لوجدتنى سمحاً بذاك مبينــــا

وكزيد بن عمرو بن نفيل .

ومن الكهان الذين بشروا بنبوته : «سطيح» و «شق» و «خطر» كاهن ذكره الديار بكرى فى تفسير قوله : «إلا من استرق السمع» (١) وذكر له حكايات عجيبة .

ومن الرهبان : «بحيرا» و «سلمان» وأصحابه وغير هؤلاء كثير .

الخامس : إن رحمن اليمامة إن كان قد كان عالما بمثل هذا العلم الغزير ، كيف لم يدع به النبوة ، ويستغنى عن واسطة غيره ؟ مع أن مثل منصب النبوة مما لا يؤثر به أحداً غيره ، ويجتهد أن لا يدعه يستقر لغيره ، لما علم من حب النفوس للرياسة .

وقد كان أمية بن الصلت يطمع فى النبوة ، فلما لم تحصل له مات غيظا وحسداً ، ولم يتابع محمداً ، على أن المعروف أن رحمن اليمامة هو «مسيلمة» وقد أظهر الله فضيحته يوم اليمامة فقتل ، ولما رهقته السيوف قال له أصحابه : ما أوحى إليك ربك ؟ فقال : قاتلوا عن أحسابكم وحريمكم ، واعترف بالكذب على الله .

السادس : إن هذا السؤال ألزم للنصارى منه للمسلمين ، لأن محمداً كان

---

(١) الحجر ١٨ .

أمياً ، لا يختلف فى ذلك إثنان . فإتيانه بمثل هذا العلم والناموس ، إن سلمتم أنه لم يستفده من بشر غيره فهو معجز فى نفسه ، وإن اتهمتموه بأنه يعلمه من غيره ، فالمسيح أولى بالتهمة ، لأنه يعلم الكتابة صغيراً ، وجالس العلماء وسمع منهم وكانوا يتعجبون من فرط ذكائه وإدراكه فى « هيكل أورشليم » وغيره ، كما ذكر فى الإنجيل .

وحينئذ يتسع لقائل أن يقول : إن حكمة المسيح كانت من العلماء والكتب ومعجزاته كانت شعبذة وتخييلا ، كما نسبه إلى ذلك اليهود . فأنتم فى الطعن على محمد كاليهود فى الطعن على المسيح ، فإن صدقوا صدقتم . وإن كذبوا كذبتم ، والفرق عليكم متعذر غير يسير .

* * *

قال : ومن الأدلة على كونه لم يظهر معجزة : ما قال فى سورة الإسراء : (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) إلى قوله (سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا)[1] أو قوله : (وما منعنا أن نرسل بالآيات ، إلا أن كذب بها الأولون [2]) وحسبك شهادة أنه لم يرسل بالآيات .

قلت : لقد أبان هذا السائل فى هذا السؤال عن بلادة عظيمة وسوء فهم ، مع أنه متفلسف ، والمعهود من الفلاسفة جودة الذهن وحسن الفهم .

أما قوله : (قل : سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا ؟) فليس فيه ما يدل على أنه لم يأت بمعجز ، بل فيه اعتراف بالبشرية والرسالة والعبودية بين يدى ربه عز وجل .

(١ و ٢) الإسراء ٩٠ — ٩٣ — ٥٩

والحسن يقول : « إن المعجز يخلقه الله على يدى أنبيـــائه ، لا أنهم هم يخلقونه على أيديهم » .

وقد روى « وثيمة » فى القصص قال : قال سعيد عن قتادة عن الحسن : أن موسى لما غشيه فرعون تقدم إلى البحر فقال له : إن الله أمرنى أن أسلك فيك طريقاً ، وضرب بعصاه البحر من غير أن يوحى إليه ، فأنطق الله البحر فقال له يا موسى أنا أعظم منك سلطانا وأشد منك قوة . وأنا أول منك خلقا وكان على عرش ربنا وأنا لا أدرى قعرى ، ولا أترك أحداً يمر على إلا بإذن ربى وأنا عبد مأمور ولم يوح إلى فيك شيء . ولم ينفرق له حتى أوحى الله إليه بذلك (١) .

وذكر أيضاً قال : قال خارجة بن مصعب عن أبى إلياس عن وهب : أن موسى كان يضرب الحجر بالعصى فتنفجر الأنهار لبنى إسرائيل ، فقالوا يوماً : لو ضاعت العصى أو الحجر متنا عطشا . فأراد الله أن يريهم قدرته وسوء ظنهم فأوحى إلى موسى فأخبره بذلك وقال : الآن لا تضرب الحجر بالعصا ولكن كلمة واعزم عليه باسمى فإنه يطيعك ، فغضب موسى من كلام بنى إسرائيل ، ونسى ما قال له ربه ، فضرب الحجر بالعصا فلم تنفجر الأنهار على عادتها . فذكر عهد ربه فأقسم على الحجر باسمه فأجاب وقال : أما تستحى يا موسى أن تنسى عهد ربك ؟ هلا كان هذا قبل الآن ؟ ثم تفجرت منه الأنهار (٢) .

فالأنبياء بشر وليسوا — كما اعتقدتم — فى المسيح أنه إله يفعل الأشياء بنفسه ، فمعنى قوله : (هل كنت إلا بشراً رسولا) : أى لا آتى بالمعجز إلا أن يأذن فيه ربى ، وأنه لم يأذن له فى ذلك الوقت ، للوجوه التى بيناها قبل .

---

(١) هذا الخبر من الاسرائيليات (٢) هذا الخبر من الاسرائيليات .

وهذا أيضا معنى قوله تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل إنما الآيات عند الله) (١) أى أن إظهارها متوقف على إرادته .

وأما قوله : (وما منعنا أن نرسل بالآيات) فليس إخباراً بنفى الإرسال فى عموم الأوقات ، حتى انقضى عهد النبوة ، بل ينفيه فى وقت خاص وهو فى أول الأمر ثم أرسل بها بعد ذلك بدليل قوله : (اقتربت الساعة (٢) وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) إلى قوله : (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر ؟)

* * *

قال : « ولما أسرف عليهم فى طلب اعترافهم له بالنبوة ، وألحوا عليه فى طلب الآيات ، وهو لا يظهر منه غير تلاوة القرآن عليهم ، عظم ضجرهم حتى ضجوا منه واستغاثوا ، فقالوا فى ضياحهم : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم (٣))

قال : فلم يأتهم بآية ولا لحقهم ضرر ، فلما رأى ذلك اعتذر بأن تلى عليهم : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم (٤)) الآية

قلت : وهم فى هذه الحكاية ، وهى حجة عليه .

---

(١) الأنعام ١٠٩ (٢) أول سورة القمر (٣) الأنفال ٣٢ .

(٤) الأنفال ٣٣ ومعنى (وأنت فيهم) أى مسلمون عاملون بالقرآن الكريم ، ومستغفرون من ذنوبهم ، وهذا معنى عام يشمل المعاصرين للنبى ﷺ وجميع الناس من بعده ، فإن القرآن نائب عن النبى ﷺ (أنظر القرطبى) .

والصواب فيها : أن قريشاً والنبي ﷺ لما التقوا يوم بدر ، استفتح عليه المشركون أبو جهل والنضر بن الحارث وغيرهما . فقالوا : اللهم إنا لا نعرف ما جاء به محمد ، فافتح بيننا وبينه . وقال أبو جهل : اللهم انصر أحب الطائفتين إليك اللهم[1] أقطعنا للرحم . وأظلمنا لصاحبه ، فانصره عليه . فقتل أبو جهل والنضر في سبعين قتيلا، وأسر مثل ذلك في ذلك اليوم ، فكان هذا استفتاحهم عليهم .

ثم لو سلمنا من أنهم قالوا ذلك لضجرهم منه ، لكن قد أتاهم العذاب الأليم يوم بدر وغيره وأي عذاب يكون أشد من أن يقتل الشخص ذليلا حقيراً ، ثم يصير إلى العذاب الأليم ؟

وأما قوله : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، قال الكلبي : معناه : لو أراد أن يعذبهم أخرجك من بينهم .

قلت : لأن الأنبياء رحمة ، لا عذاب . فلا يعذب من هم فيه . ألا ترى أن لوطا لم يعذب قومه ، حتى خرج عنهم ، ونوح وصالح وموسى وغيرهم من الأنبياء وكذلك . فهكذا محمد لم يعذب أهل مكة حتى خرج منها .

وقوله : « وما كان الله معذبهم ، وهم يستغفرون » فيه قولان :

أحدهما : وفي أصلابهم من سبق في علم الله ، أنه سيوجد ، فيكون من المؤمنين المستغفرين .

والثاني : وبين أظهرهم مؤمنون مستخفون يستغفرون ، فلما خرجوا من بينهم غلبوا بفتح مكة ، وقيل : بيوم بدر .

---

(١) راجع القرطبي في الآية ١٩ من الأنفال .

قال : « فإذا كان أعداؤه المكذبون له لا يعذبون وهو فيهم . فكيف عذب أصحابه يوم « أحد » وهزموا . وقتل منهم جماعة »

والجواب : أن ما جرى لهم يوم « أحد » ليس عذابا ، بل شهادة . بدليل قوله تعالى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين[1] » وقوله : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون[2] » وهى فى شهداء أحد ولئن كان قتل المؤمنين فى سبيل الله عذاباً فليكن قتل يحيى[3] وزكريا وصلب المسيح (على زعمكم) عذاباً . ونعم الله سبحانه ـ على خلقه تارة تكون بأسباب سهلة كالأكل والشرب والنكاح . وتارة بأسباب شاقة كالشهادة والعبادات والرياضات . كما أن صحة البدن تارة تكون بتناول الأغذية والأشربة المستلذة ، وتارة بتناول الأدوية المستكرهة كالصبر ونحوه .

* * *

قال : وجاء فى السير : أن زينب بنت الحرث أهدت لمحمد شاه وأكثرت من السم فى الذراع ، لأنه كان يحبها ، فلاك منها مضغة فلم يسغها ، ومعه بشر ابن البراء بن معرور فأساغ منها لقمة فهلك . ولفظ محمد اللقمة . وقال : « إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم » وساق القصة (يريد نفى المعجزات الحسية)

قال : « وقد كان[4] (محمد يقول : « ما من نبى إلا وقد أوتى) من الآيات ما آمن على مثله البشر . وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى الله إلى وأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

---

(١) آل عمران ١٤٠ (٢) آل عمران ١٦٩

(٣) قلنا فى تعليق سابق : أن يحيى مات ولم يقتل .

(٤) هنا ورقة ضائعة وقد وصلنا الكلام .

قال : « فمن حاول التعصب له ، ورام الانتصار بدعوة نفسه بالتمسك بنقل الآحاد للمعجزات المردودة عند علماء المسلمين فقال : إن فعل وصنع شيئاً من المعجزات ، فهو مكذب لقرآنه ، وحديثه الصحيح ، (وقد بينا بنص القرآن أنه لم يأت بمعجز) .

قال : « وقوله فى هذا الحديث : « إنى لأرجو أن كون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » مسلم له . فإن جميع أهل الباطل والكذب متبعوه إلى يوم القيامة . وأهل الحق الذين هم قليلون بالنسبة إلى هؤلاء — يتبعون سيدنا المسيح إلى الحياة الدائمة » .

قلت : قوله : « قد بينا بنص القرآن أنه لم يأت بمعجز » قد بينا نحن أنه لم يبين شيئاً من ذلك . وإنما مادة كلامه أمران : هوى وقصر باع فى العلم وسوء فهم .

وأما قوله فى حديث مسلم : « وإنما كان الذى أوتيته وحياً » فجوابه من وجهين :

أحدهما : أنه يجوز أن هــذا الحديث قاله فى أول الإسلام قبل تكامل معجزاته .

الثانى : أن الأصوليين اختلفوا فى « إنما » هل تقتضى الحصر أم لا ؟ .

بل الإثبات المؤكد وهو الذى يدل عليه الدليل ، وحينئذ لا يفيد هذا الحديث انحصار معجزة فى القرآن على أنه لو أفاد لكان فيه كفاية ، كما سنبين .

فتقدير الكلام إذن وإن الذى أوتيته كان وحياً ، وإنما خصه بالذكر

لأنه أول ما ظهر على يديه ورأى بسببه الملائكة وهو قديم[1] على أصل أهل السنة ، وسائر معجزات الأنبياء مخلوقة ، وهو المتواتر اللفظى ، فلهذه الخصائص خصه بالذكر .

---

(١) يشير المؤلف إلى الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة فى القرآن الكريم هل هو قديم على رأى أهل السنة أم مخلوق حادث على رأى المعتزلة والشيعة ؟ إن أصل هذه المسألة يرجع إلى أفعال العباد ، هل الله قدرها على العبد من قبل ولادته ، وما يفعله العبد ماهو إلا صورة المقدر عليه أزلا ومكتوب عليه فى اللوح المحفوظ ؟ إن كان هو المعتقد الصحيح ، وما هو بصحيح ، فالقرآن قديم باعتبار أنه كلام الله وصفة الكلام فيها خلاف نذكره بعد ـ وباعتبار أنه مكتوب فى اللوح المحفوظ من قبل نزوله على محمد ﷺ بزمان طويل . وإن كانت أفعال العباد مخلوقة لهم والله لم يقدر ما عليهم سلفاً ـ وهذا المعتقد صحيح . فإن القرآن حادث . باعتبار أنه تحدث عن أمور هى فى الزمان قد حصلت من قبل الحديث كغزوة بدر الكبرى فإنها حصلت ثم بعد حصولها نزل فى شأنها قرآن فلو كان القرآن قديما لكانت غزوة بدر مقدورة على المسلمين والكفار من قبل أن يخلقوا . وكيف يحاسبون على شىء يقدر عليهم من قبل ولادتهم ولا حيلة لهم فيه ؟ هذا هو أصل الخلاف .

وقد عقد الأشاعرة صفات الله تعالى تعقيداً لا يليق بجلاله ، ذلك لأنهم زعموا أنها (زائدة) على ذاته تعالى وفى الوقت نفسه (غير منفكة) عنها كيف تكون زائدة وغير منفكة ؟ إن هذا تعبير يناقض بعضه بعضا ككلام النصارى يقول الكاثوليك منهم بثلاثة أقانيم ، أى آلهة ، ثم يقولون ومع الثلاثة هم واحد كيف يكونون ثلاثة وكيف مع الثلاثة هو واحد ؟ إن هذا القول عجيب . ولا يقولون بخلق القرآن ، بل يقولون بقدمه ، لأنه كلام الله وصفة الكلام غير منفكة عن الذات . والحق فى هذه المسألة ، أن الله تعالى إله واحد وهو الأول الذى ليس قبله شىء ، وصفاته فى ذاته . هو قادر على الكلام مثلا وقبلما يتكلم نقول : إنه واحد وفيه صفات الجمال والكمال ، فإذا تكلم نقول إنه متكلم ، وإذا تكلم بعد مئات السنين نقول =

وقوله « فمن حاول التعصب له ورام الانتصار بشهوة نفسه بالتمسك بنقل الآحاد للمعجزات المردودة عند علماء المسلمين فقال : إنه فعل وصنع شيئاً من المعجزات فهو مكذب القرآن وحديثه الصحيح »

فجوابه : أنا قد بينا أن القرآن والحديث الصحيح لايدلان على أنه لم يأت بمعجز » .

وأما قوله : « بنقل الآحاد للمعجزات المردودة عند علماء المسلمين » فهذا عدم علم بأصول المسلمين واصطلاحهم فى دينهم ، فيحتاج أن نشرح ذلك ببيان ، لنعرفه من وقف عليه ممن لم يعرفه فنقول : أعلم أن الخبر إما متواتر ، أو آحاد والمتواتر لفظى أو معنوى .

= إنه متكلم ، ولا نسوى كلامه قبل مئات السنين بكلامه بعد مئات السنين فى الزمن لاختلاف الأزمان . وإنما نقول هو متكلم وقادر على الكلام اليوم وغدا ومن قبل ومن بعد . ولا نقول إنه أنشأ كلماته كلها ووضعها فى اللوح المحفوظ ، ثم سكت عن الكلام بذاته وما فى اللوح هو الذى يخرج إلى الوجود ، لأننا بهذا القول نثبت له العجز من حيث نثبت له القدرة وإنما نقول : هو قادر على إنشاء الكلام كما يريد فالتوراة التى أنزلها على موسى أنشأها إبتداء فى زمان موسى عليه السلام . وبعدها بمئات السنين أنشأ كلاما أنزله على عيسى عليه السلام ، وبعده بمئات السنين أنشأ القرآن وأنزله على محمد ﷺ و (كل يوم هو فى شأن) ولكل شأن كلام وإذا قلنا : إن الله تعالى برأ الأكوان بكلمته ، فمعنى ذلك : أن الله إذا أراد شيئاً قال له (كن) فيكون . لا أن الكلمة هى الخالقة . وقد ادعى النصارى أن الله خالق كل شىء بكلمته ، وكلمته قديمة وتجسدت فى جسد المسيح ابن مريم ؛ فالمسيح إله قديم ونحن لا نقر بذلك فإن كلام الله كثير وهو قادر عليه ، وينشأه إنشاء يقولون فى بدء إنجيل يوحنا : (فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله . وكان الكلمة الله . والكلمة صار جسداً وحل بيننا » (يو ١ : ١ و ١٤) .

فالمتواتر هو الخبر الذى ينقله عدد لا يتواطأ مثلهم على الكذب لكثرتهم عن مثلهم عن مثلهم إلى محل صدوره ، يستوى طرفاه ، ووسطه فى ذلك ، ويستند فى أصله إلى حس ، لا إلى نظر واللفظى منه : ما كان الاتفاق فيه على قضية واحدة معينة « يخبر بها هؤلاء القوم بالشرط المذكور ، كطوفان نوح ، واعتراف فرعون . وقلب عصا موسى حية ، وإحياء المسيح الموتى ، وقول محمد : إنى رسول الله ، وتحديه العرب بالقرآن ، ونحو ذلك .

والمعنوى : ما كان إخبار المخبرين فيه عن عدة قضايا جزئية تشترك فى

= وفى القرآن الكريم أدلة على كون الكلام حادثا منها قوله تعالى (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ، وقوله : (ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث) وقوله إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له . كن . فيكون) وكلمة « كن » عبارة عن جملة كلامه المتأخر عن إرادته وقوله . « وإذ قال ربك للملائكة » « وإذ » من ظروف الزمان ، والواقع فى هذا الظرف لابد وأن يكون زمانياً حادثاً .

ويرى المعتزلة والشيعة الإمامية رأينا هذا ، فقد ذهبوا إلى أن كلام الله هو الألفاظ والحروف الموجودة فى التوراة والإنجيل من قبل التحريف ـ وفى القرآن وقد خلقه فى أذهان الأنبياء والملائكة المبلغين ، وصفة التكلم من الصفات الإضافية التى يوصف بها بعد وجود منشئها كالخلق والرزق، فإنه يقال خالق ورازق بعد حدوث الخلق والرزق وإن كان هو فى الأزل قادراً على كل شىء .

والعجب من المتكلمين أصحاب الحديث : أنهم يعكسون الكلام فى الرؤية والكلام ، فيثبتون أن الله تعالى يرى مع أن القرآن ينص على نفى الرؤية فى قوله « لا تدركه الأبصار » وينفون الكلام الذى حدث فى زمانه ، مع أن القرآن يثبته فى قوله « وكلم الله موسى تكليما » وموسى فى الزمن من بعد ما خلق الله السموات والأرض بكلمته .

كلي واحد ، كسخاء حاتم ، وشجاعة علي . فإنه التواتر لم يوجد في قضية واحدة من مكارم حاتم ، ولا من شجاعة علي ، بل نقل قوم : أن حاتماً وهب يوما فرساً ويوما قطيع إبل ، ويوما قطيع غنم ، ويوما باع نفسه ببعيرين ، نحوهما لضيفه .

في قضايا كثيرة حصل التواتر بمجموعها لا بواحدة واحدة منها ، وكذلك في شجاعة « علي » ما صح عنه ـ أنه كان يوم بدر ، أول مبارز . ويوم أحد أول مقاتل ، ويوم الخندق بارز عمرواً ، وقد نكل عنه الناس : ويوم خيبر خصه النبي ﷺ بالراية ، بعد رجوع الشيخين بها ، لم يصح عليهما ، فقتل مرحباً في جماعة ، واليهود وكان الفتح على يده : وفي يوم حنين قتل ذا الخمار مراراً . وفر الناس عن النبي ﷺ فلم يبق معه إلا وهو سابع سبعة ، وأنه لم يرجع عن مقبل ، ولا تبع مدبراً ونحو ذلك مما حصل بمجموعة العلم بشجاعته

وإن شئت فسم الأول تواتر منفرداً ، والثاني تواتراً مركبا ، أعني من مجموع قضـــايا . وإن شئت سم الأول كلياً ، والثاني جزئيا لا حجر في شيء من ذلك .

وأما الآحاد : فما رواه العدل الضابط عن مثله إلى محل صدوره ، ثم ينقسم إلى مستفيض وغيره ، فالمستفيض أعلى من الآحاد ، ودون التواتر .

فإذا عرفت هذا .

فمعجزات النبي ﷺ متواترة .

لـكن القرآن تواتره لفظي : وما عداه منهـا تواتره معنوي ، على ما بينا وسنبين ، بضرب المثال وحينئذ يتبين أن قوله : « إن ما عدا القرآن

من معجزاته آحاد مردودة ، عند علماء المسلمين ، كلام شخص غير محصل ، وإنما المردود عندهم هو إخبار الواحد عن الواحد أو الإثنين فى قضية واحدة فهذا يوجب العمل ، ولا يفيد العلم ، ولا يثبت به أصل من أصول الشريعة ولا يرد به عليها قدح . وقد بينا ـ فيما سبق ـ : أن جميع ما أورده هذا الخصم من جميع الآحاد التى زعمها قادحة فى الشريعه لا ترد علينا ولا يلزمنا الجواب عنها ، وإنما أجبنا عنها فى أماكنها تبرعا .

إذا عرفت هذا . فالقرآن معجز ثابت بالتواتر اللفظى ، كما سنبين . وباقى المعجزات بالتواتر المعنوى . وقد صنف الناس فيها كتبا ضخمة . كـ « الشفاء » للقاضى « عياض » و (الوفا بفضائل المصطفى) لـ (أبى الفرج ابن الجوزى) و (دلائل النبوة) لـ (البيهقى) و (البشر بخير البشر) لـ (ابن ظفر) .

ورأيت لبعض المغاربة (دلائل النبوة ومعجزاتها) عشر مجلدات ، وغير ذلك مما لم أقف عليه كثير .

وإنما أذكر منها هنا جملة ، منبهة على غيرها .

فمنها : ما أخرجاه فى الصحيحين من حديث ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين حتى نظروا إليه فقال رسول الله اشهدوا .

والروايات بانشقاق القمر فى الصحيح ، عن ابن عمر ، وابن عباس وأنس

ومنها : ما روى جابر ابن سمرة . قال : قال رسول الله ﷺ « إن بمكة حجراً كان يسلم على ليالى بعثت إنى لا أعرفه الآن . رواه مسلم والترمذى . وقال : حسن غريب .

ومنها : ما روى علي بن أبي طالب قال : (كنت مع النبي ﷺ بمكة ، فخرجنا في بعض نواحيها ، فما استقبله جبل ولا شجر ، إلا وهو يقول : « السلام عليك يا رسول الله » رواه الترمذي . وقال حديث غريب .

ومنها : ماروى أنس أن رسول الله ﷺ خطب إلى لزق جذع ، واتخذوا له منبرا ، فخطب عليه ، فحن الجذع حنين الناقة ، فنزل النبي ﷺ ، فسكن . رواه الترمذي ، وقال : حسن صحيح ورواه أحمد والبخاري بألفاظ متعددة .

ومنها : ما روى ابن عباس ، قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال بم أعرف أنك نبي ؟ قال : « إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة ، تشهد أني رسول الله » فدعى رسول الله ، فجعل ينزل من النخلة ، حتى سقط إلى النبي ﷺ ، ثم قال له : « ارجع » فعاد . فأسلم الأعرابي . رواه الترمذي . وقال حسن صحيح . والعذق : شمراخ النخل الذي فيه الرطب .

ومنها : ما روى « يعلى بن مرة » قال : خرجت مع النبي ﷺ ذات يوم إلى الجبانة ، حتى إذا أبرزنا ، قال : « أنظر ويحك هل ترى من شيء يواريني » قلت : ما أرى شيئاً يواريك إلا شجرة ، ما أراها تواريك . قال : « فما قربها » قلت : شجرة مثلها ، أو قريب منها قال : « فاذهب إليها فقل : إن رسول الله يأمركما أن تجتمعا بإذن الله » قال : فاجتمعتا ، فبرز لحاجته ثم رجع فقال : « إذهب إليهما فقل لهما » : إن رسول الله يأمركما أن ترجع كل واحدة منكما إلى مكانها فرجعتا .

قال : وكنت معه ذات يوما جالسا إذ جاء جمل يخب ، حتى برك بين يديه ثم ذرفت عيناه فقال « ويحك أنظر لمن هذا الجمل إن له لسانا » قال : فسألت فوجدته لرجل من الأنصار فدعوته إليه فقال : « ما شأن جملك هذا؟ قال لا أدري عملنا عليه ، ونضحنا ، حتى عجز عن السقاية ، فائتمرنا البارحة

أن ننحره ونقتسم لحمه قال « فلا تفعل هبه لى ، أو بعنيه ، قال : بل هو لك يا رسول الله . قال فوسمه بسمة الصدقة ثم بعث به .

ومنها : أنه صح أن « قتادة بن النعمان » قلعت عينه فى حرب ، فقال : يا رسول الله إن لى امرأة وأنا أحبها ، وأخاف أن تبغضنى لعورى ، أو كما قال ، وكانت قد سالت على خده . فأعادها النبى ﷺ إلى مكانها ، فكانت أحسن عينيه بعد .

وروى « البكرى » فى سيرته : أن جابر بن عبد الله الأنصارى دعا النبى ﷺ إلى بيته فى حفر الخندق « وقد ذبح له شاة وطبخها ، وكان له إبنان صغيران ، فقال أحدهما للآخر : قم حتى أفعل بك ، كما فعل أبونا بالشاه ، فذبحه ثم جاز ليجعله فى التنور ، وهو مسجور ، فوقع الآخر على رأسه فيه فاحترق ، فوقع الصراخ فى دار جابر . فأخبر النبى بذلك فدعا بهما ، فشملهما بكساء أو نحوه ، ثم توضأ وصلى ودعا الله ، فقاما حيين .

إلا أن هذا لم يثبت ثبوت غيره من الخوارق .

ومنها : أنه عليه السلام يوم حنين لما ولى أصحابه نزل عن البغلة ، ثم قبض قبضة من تراب الأرض ، ثم استقبل به وجوههم فقال « شاهت الوجوه » فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة ، فولوا مدبرين فهزمهم الله . وقسم رسول الله غنائمهم بين المسلمين ـ رواه مسلم .

وفى بعض الروايات أنه قال لبغلته : ألصقى بالأرض فلصقت ، فأخذ تراباً ثم قامت . وهذا لا ينافى قوله فى رواية مسلم : نزل عن البغلة ، لأنها لما لصقت بالأرض صار كالنازل عنها بالأرض ، فهو على الرأى فانه نزولا حقيقياً

خصوصاً فى ذلك الوقت الذى تشتبه الحقائق فيه على الإذهان لاشتغاله بالحرب والقتال .

ومنها : قوله لأصحابه : « إنى لأراكم من وراء ظهرى » .

ومنها : ما تواتر عنه من نبع الماء من بين أصابعه كالعيون فى مرات كثيرة يطول - علىّ - ذكرها .

ومنها : ما أخرج مسلم فى إفراده من حديث أبى هريرة قال : كنا مع النبى ﷺ فى مسير ، فنفدت أزواد القوم ، حتى هموا بنحر بعض جمالهم . فقال عمر : يارسول الله ، لو جمعت ما بقى من أزواد القوم فدعوت الله عليها ففعل قال فجاء ذو البر ببره وذو التمر بتمره ، فدعى عليها حتى ملأ القوم أزودتهم . فقال عند ذلك : « أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . لا يلقى الله بهما عبد ، غير شاك فيهما ، إلا دخل الجنة » .

وفى إفراده أيضا : من حديث سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع رسول الله فى غزاة فأصابنا جهد ، حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا ، فأمرنى الله فجمعنا مزوادنا فبسطنا له نطعاً فاجتمع زاد القوم فإذا هو كربضة العنز ونحن أربع عشرة مائة . قال : فأكلنا حتى شبعنا جميعاً .

قلت : وهاتان قضيتان لوجهين :

أحدهما : أن الحديث الأول كان بإشارة عمر ، وهذا كان ابتداء من النبى ﷺ على ظاهر الحديث .

الثانى : أنه يبين فى غير هذا الطريق بأن إشارة عمر كانت فى غزاة تبوك ،

وكان عسكرهم فيها فوق ثلاثين ألفاً ، وهذا الحديث أخبر أنهم كانوا أربع عشرة مائة .

إلى قضايا كثيرة غير هذه ، حصل لنا من مجموعها العلم الجازم بظهور الخارق المطلق على يديه ، وإن لم يحصل العلم بوجود كل واحدة واحدة من هذه القضايا الجزئية بعينها ، فهذا هو التواتر المعنوى . وهذا المذكور فى إطعام الخلق الكثير من زاد قليل ، أعظم مما حكاه النصارى فى الإنجيل عن المسيح أنه أطعم خمسة آلاف رجل وامرأة من خمس خبزات وحوتين ، وفضل إثنتى عشرة سلة [1] ، لأن العسكر كان فى « تبوك » فوق ثلاثين ألفاً .

فإن قيل : هذا إنما تواتر عند المسلمين ، ولم يتواتر عندنا .

قلنا : لا يخلوا إما أن تشترطوا فى التواتر ما اشترطه اليهود من أن المخبرين به لا يجمعهم دين واحد أو لا تشترطوا ذلك ، فإن اشترطتموه لئلا يلزمكم تواتر هذه الخوارق لمحمد ، لزمكم مثله لليهود ، فإنهم يقولون : ما تواترت عندنا خوارق المسيح . والنصارى متهمون . وإن لم تشترطوه فهذه خوارق قد تواترت عند المسلمين فى شرق الأرض وغربها ، فيلزمكم التصديق بها .

ثم نفرض الكلام معكم فى هذا الخارق الخاص : هو إطعام الخلق الكثير من الطعام اليسير .

فنقول : كما لم يتواتر ذلك عندكم عن محمد ، كذلك لم يتواتر عندنا عن المسيح ، بل فى إنجيلكم رأيناه ، فإن سلمتم سلمنا ، وإن منعتم منعنا .

فإن قلتم : نمنع وتمنعون ، ثم نرجع إلى ما سلمتموه من إحياء الموتى ونحوه فأنتم إلى ماذا ترجعون ؟

---

(١) أنظر الإصحاح السادس من إنجيل يوحنا .

قلنا :

أما أولا : فنحن ما سلمنا معجزات المسيح المطلق الذى تعتقدونه أنتم: إلهاً أو ابن إله . وتعتقده اليهود : ابن يوسف النجار ، أو لغيه (١) ، وإنما سلمنا معجزات المسيح ، الذى بشر بمحمد وشهد له بالرسالة ، وأمر من أدركه منكم باتباعه . أما مسيحكم الذى تعنونه فلا نسلم أنه كان له وجود ، فضلا عن أنه بمعجز أو غيره .

ولو سلمنا ذلك لكم للزمنا أن نعتقد إلهيته كما اعتقدتم . وذلك خروج عن دين الإسلام والسلام .

وأما ثانياً : فإنا نرجع إلى القرآن ، وسنبين وجه كونه معجزاً .

وقوله : « إن أهل الباطل والكذب متبعوه إلى جهنم يوم القيامة »

قلنا : هذا سوء أدب لا يليق على عامة الناس ، بل أشرافهم ، وفضلا عن الأنبياء أرباب الأديان العامة والنواميس المشهورة . ولكن هذا النصرانى قد يعذر طبعاً فى هذا السفه ، فإنه قد عاش فى أرض الإسلام عمره ذليلا مهاناً عليه الجزية ، ملتزماً أحكام الملة ، لم يقدر على شفاء غيظ ، ولا إزالة فيض ، فشفا غيظه بالسفه خفية ، كما قال بعضهم :

أوسعتهم سباً ، وراحوا بالإبل

وكما قالت العامة فى المثل : ألستم فى الهوى ، والصفع فى القفا ؟

---

(١) يزعم بعض اليهود : أن المسيح ابن « باندارا » وهو عسكرى رومانى اختلى بمريم ــ وهذا من كذب اليهود فى التلمود .

قوله : « وأهل الحق القليلون بالنسبة إلى هؤلاء يتبعون سيدنا المسيح إلى الحياة الدائمة » .

قلنا : هذا مستدرك من وجهين :

أحدهما : قولك : إنكم قليلون بالنسبة إلى المسلمين . إن عنيت فى دار الإسلام فهو صحيح . لكن مرادك خلافه بمقتضى كلامك يتبعون سيدنا المسيح . فإن هذا يعم — بزعمك — كل نصرانى ينتحل دين المسيح ، فيكون التهافت على هذا التقدير بين لفظك ومرادك . وإن عنيت مطلقاً ، فالنصارى أكثر الأمم ، فإنهم استقلوا بالبلاد الشامية ، وأطراف السواحل ، وهم أهل الحبشة وملا كها ، وبهم وبيأجوج ومأجوج تمتلىء جهنم إن شاء الله .

الوجه الثانى : قولك : « سيدنا المسيح

من سيدك المسيح ؟ لعمرى إنه مع التحقيق سيدك المسيح ضاع . لأن المسلمين قالوا : ما قتل ولا صلب ، بل رفعه الله إليه . وأنتم تقولون : قتل وصلب ودفن وقام بعد ثلاث من الأموات ، واليهود وافقوكم على صلبه ، وخالفوكم فى قيامه . فعلى قولهم سيدكم المسيح قد صار رميما ، ثم إذا كان يوم القيامة كان لكم أشد الناس خصما لتكذيبكم وافترائكم عليه واتخاذه إلها ، ومخالفتكم لوصاياه من بعده .

ثم يلزمه من هذا الكلام تناقض آخر : وهو أنه قد سبق منه إنكار النعيم الحسى فى الآخرة من الأكل والشرب والنكاح .

ثم قد أثبت هاهنا جهنم ، وذكرت فى الإنجيل فى مواضع كثيرة ، تارة بلفظه ، وتارة بمعناه ، فتقول : « هنالك تكون الظلمة ، وصرير

الأسنان »(١) وهذا عذاب حسى . فالحكمة تقتضى إتحاد جنس الثواب والعذاب فاما أن يكونا حسيين ، وهو نقض لما سبق منه من إنكار النعيم الحسى ، وإما عقليين ، كما احتج عليه فى طرف النعيم بقول « ابن سينا » فى « الإشارات » فيلزمه أن يكون العذاب عقليا ، كما قرره الفلاسفه . وفى ذلك ترك ماصرح به الإنجيل من العذاب الحسى .

* * *

قال : « وإذ فرغنا من الكلام فى أنه لم يتحل بمعجزة قدمها بين يدى دعواه ، ولا أظهرها بعد ذلك ، فلا متمسك لمنازع إلا أن يقول : القرآن معجزة لفصاحته » .

قال : « ولا حجة فى ذلك ، لأن الفصاحة هى التقرب من البغية ، والتباعد من حشو الكلام . وقيل : دلالة اللفظ على المعنى بشرط إيضاح وجه المعنى ونظامه ، وقلة الألفاظ واختصارها ، وإذا تأملت جميع القرآن وجدت أكثر عباراته لا توضح وجه المعنى ، ولا تتأتى معانيه على نظام ، والدليل على ذلك : أن المفسرين مع كثرة عددهم يفنون أعمارهم فى الإختلاف فى تأويله ، ويصنفون فيه التصانيف الطويلة ، ويقع بينهم الشر والخلافات ، ولا ينفصلون عن معارك النزاع والتضاد فى تفسيره ، ويتفرقوا فرقا ما فيه . كالعلوية والبكرية ، والمعتزلة والأشعرية وغيرهم من طوائف عديدة ، يكفر بعضهم بعضا ويفضح قوم مذهب قوم ولا يقفون على تفسير يتفق أهل الملة بجملتهم عليه ولا شطرها ويكفيك فى ذلك شهادة القرآن لما قلناه . حيث يقول : « وما يعلم تأويله إلا الله »(٢) .

---

(١) متى ٢٥ : ٣٠
(٢) آل عمران ٧

قلت : قد بينا : أن محمداً ﷺ تحلى بالمعجزات ، وأما القرآن فهو معجز عظيم لفصاحته ، وإشتماله على الإخبار بالغيوب ، وإفحامه العرب العاربة ، أهل الفصاحة .

وأما ماذكره من حد الفصاحة أولا ، فهو جيد ، وهو موجود فى القرآن فإن معانيه إلى الفهم تسبق ألفاظه إلى السمع .

وأما ما ذكره ثانيا ففاسد . لأنه لا خلاف عند أحد من (أهل) العالم : أن العرب كانوا فصحاء فى نثرهم ونظمهم . مع أن فى كلامهم الفصيح ما هو مجمل ،لا يتضح فيه وجه المعنى .

ثم إنك أنت نصرانى علج ، أقلف اللسان ، مالك وللفصاحة، والبلاغة ولهما قوم تكلموا فيهما .

فقالوا : الفصاحة : خلوص اللفظ من التعقيد ، الموجب لقرب فهمه ، ولذاذة استماعه . وذلك باشتماله على صفات ذكرت فى مواضعها ، والبلاغة : كون الكلام الفصيح موصلا للمتكلم إلى أقصى مراده ، وقال أمير المؤمنين على — عليه السلام — : والبلاغة : مارضيته الخاصة ، وفهمته العامة » .

وقالوا فى لفظ آخر : البلاغة : أن تقول فلاتبطىء ، وتصيب فلاتخطىء. وهذا كله موجود فى القرآن .

وقوله : «عبارة القرآن لاتوضح وجه المعنى ، ولاتأتى على نظام مناسب» سوء فهم وقصور فى اللفظ ، ويكفى فى بطلان قوله : إن عامة الناس وخاصتهم، يفهمونه إذا سمعوه .

وأما اختلاف المفسرين (١) فى بعضه فليس لما ذكر، بل تارة الخلاف فى أسبابه، وتارة لاختلاف مذاهبهم، فيطابون تأويله عليها، وتارة لإجمال فى ألفاظه. وذلك من وجوه إعجازه حيث كان فصيحاً، بالنسبة إلى كل قوم يفهمون منه ما يدعونه، وليس من شرط الفصاحة النصوصية على المراد. ألا ترى إلى شعر امرىء القيس ونحوه من الشعراء الجاهليين، لا خلاف فى فصاحته مع كثرة احتمالاته وإجمالاته.

وأما تكفير بعض الطوائف فليس سببه اشتباه القرآن، بل ذلك لمواد عقلية وفلسفية دخيلة على الإسلام، كما عرف من مذهب المعتزلة ونحوهم.

وأما قوله: «لم يتفقوا على تفسير شىء منه» فباطل. بل قد اتفقوا على كثير منه، والخلاف فيما اختلفوا فيه منه، ليس الأمر عائد إلى لفظه ولا بد. بل وإلى أمور خارجة.

وبالجملة: فإن توقف الأمر معك على ثبوت فصاحة القرآن، استرحنا لأن الفصاحة يرجع فيها إلى أهلها. وقد اتفقوا على فصاحته.

وقوله: (وما يعلم تأويله إلا الله) ليس فى جميع القرآن. كيف؟ وقد ادعى أن الناس صنفوا فى تأويله التصانيف الكثيرة. وهل يصنف أحدهما ما لا يعلمه؟ وإنما ذلك فى ما تشابه منه حيث قال الله سبحانه: (وهو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم).

---

(٢) لقد قرأتم تفاسير النصارى الإنجيل كتباً كثيرة، ورأيت فيها من الخلافات حول العبارة الواحدة الشىء الكثير، وهذا هو سبب تعدد طوائفهم.

يعنى تأويل المتشابه اتفق العلماء على أن هذا مراده .

ثم إن ما ذكره فى القرآن والمسلمين لازم عليه فى الإنجيل والنصارى . فإن فى الإنجيل إجمالات كثيرة تتوجه إليها الاحتمالات ، ولذلك اختلفت النصارى حتى كانوا يعقوبية ، وملكانية ، ونسطورية . وغير ذلك ، يكفر بعضهم بعضا .

. . .

قال : « وجدت أيضاً ألفاظه قليلة الاختصار ، كثيرة التكرار فى إيراده القصص وغير ذلك كسورة (قل ياأيها الكافرون) وسورة (الرحمن) فإنك تجد فيها ما يغنيك ، وتقمع به معاديك »

قلت : هذا كلام من لا يعلم ، وهو جدير أن يتعلم ثم يتكلم .

أما تكرار القصص فله فائدتان :

إحداهما : أن القرآن كان ينزل شيئاً فشيئا ، ويحتاج أن يحمل إلى أقطار الأرض لينتفع الناس بما فيه من أمر ونهى ، ووعد ووعيد ، ووعظ وأخبار ونحوه ، وكان المهم دعاءهم إلى الإسلام ، وذلك بترهيبهم عما جرى للمخالفين من الأمم قبلهم وترغيبهم فيما فاز به المؤمنون ، فكررت القصص وكانت مختلفة الألفاظ ليتفرق فى البلاد كذلك ، فيسمعه الناس فى الأقطار وتكون باختلاف ألفاظها أدعى إلى القبول ، لأن النفوس مشغوفة بمعاداة المعادات ، كما قد أنكرت أنت التكرار .

الفائدة الثانية : إن إعادة القصة الطويلة فى مواضع مع اتحاد معناها ، واختلاف لفظها طولا وقصراً ، أدل على الإعجاز وقدرة المتكلم على الكلام .

وأما ما ذكر من التكرار فى بقية السور ، فالقول المفصل فيه قد ذكرته فى (الإكسير) مستوفى ، وذكره الناس كثيراً ، فلا يخفى على ذكره هنا .

ولكن أذكر فيه قولا مجملا ، وهو أن التكرار كما يستغنى عنه فى بعض المواطن قد يحتاج إليه فى بعضها للتأكيد والتقرير والتنبيه على الاهتمام بالأمر، فيكون بركة ، والله أعلم .

• • •

قال : « ونجده أيضاً غير خارج على نظام متناسب لقوله فى سورة النساء (وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) (1) .

قال : « ولا مناسبة بين العدل فى اليتامى ، وبين نكاح النساء . ولهذا وغيره يتبين أنه كلام منثور ، لا نظام له ، ولا تأليف » .

قلت : هذا الخصم معذور فى استشكاله هذا الكلام ، لأنه من المشكلات التى تخفى على كثير من علماء الإسلام ، لكنه ملوم فى إيراده طعناً على القرآن قبل أن يبحث هل له محمل على الصواب أم لا ؟ ولا شك أن العلماء ذكروا لارتباط بعض هذا الكلام ببعض وجوهاً صحيحة مناسبة :

أحدها : ما روى عن عائشة أنها قالت : نزلت هذه الآية فى اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى مالها وجمالها فينكحها بدون صداق مثلها ، فنهوا أن ينكحوهن حتى تقسطوا فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا من شاءوا من النساء غيرهن .

---

(1) النساء ٣ .

الثانى : ماروى عن ابن عباس قال : كان الرجل فى الجاهلية يتزوج العشر من النساء فما زاد ، فإذا أعدم مال على مال اليتيم فأنفقه ، فأمروا بالاقتصار على العدد الخاص لئلا يحتاجوا إلى الميل على مال اليتيم .

الثالث : ما روى عن سعيد بن جبير أنه قال : كانوا يخافون ألا يقسطوا فى اليتامى ، ويتحرجون من ذلك ، فنزلت الآية ومعناها : خافوا من عدم القسط فى النساء ما خفتم منه فى اليتامى .

قلت : وهو من باب قوله :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله

أن لا تتحرجوا من الجور على اليتامى ، وتجورون على النساء ، فهو كما تقول لصاحبك : إن كنت تخشى الله فى ظلم زيد ، فلا تظلم عمرواً . وإن تحرجت من أخذ أموال الناس ، فلا تأخذ أعراضهم . كذلك هذا .

الرابع : ما ذكره الحسن البصرى ، وهو أن معنى الكلام : إن تحرجتم من الميل على اليتامى فتحرجوا من الزنا بنكاح ما أحل الله لكم من امرأة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع ، لتقمعوا داعية الزنا الحرام بالنكاح الحلال .

قلت : والمعنى ، لا تتحرجوا عن معصية ، وتواقعوا أخرى ، فتكونوا كالذى تسامح فى الزنا ، وتحرج من العزل ، أو ترك الغسل .

فهذه أربعة أوجه محتملة احتمالا ظاهراً [ومناسبة] مناسبة صحيحة معقولة فالمبادهة بإنكار ماله هذا التوجيه ، قبل استيفاء النظر فيه ، إما جهل أو عناد ، والله أعلم .

وقد استقريت الأناجيل الأربعة ، وأوردت عليها من الأسئلة مالا أظن أن على وجه الأرض نصرانيا يقدر على أن يجيب عن شيء منها بمثل هذه الأجوبة عن آية النساء ، فضلا عن أوضح منها . فإن لزم بذلك الطعن على القرآن فهو على الإنجيل ألزم .

• • •

قال : « ثم هو متناقض . ينقض بعضه بعضا ، ولكن مع وقوفك على هذا الإلمام .

تقول : أبو جهل أعظم من جهل . لمن ادعى أن إعجاز هذا الكتاب فى لاثبات النبوة كانقلاب الجماد حيوانا ، والبحر يبسا ، والحجر الصلد عينا لموسى وكإحياء الموتى وإبراز الأكمه والأبرص للمسيح . إن هذا الجاهل مائق » .

قلت : أما دعواه التناقض فى القرآن ، فوهم ، وقد أورد الزنادقة صوراً كثيرة ظنوها تناقضا ، فأجيبوا عنها .

صنف فى ذلك الإمام أحمد وغيره . فمن جملتها :

قوله : « إن الله يحب المقسطين »(١) مع قوله : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا »(٢) .

قالوا : هذا تناقض ، وذلك جهل منهم لأنه يقال فى لغة العرب : أقسط فهو مقسط إذا عدل ، وقسط فهو قاسط إذا جار ، وهذا يكفى فى السخرية بهم .

---

(١) الحجرات ٩

(٢) الجن ١٥

وأما هذا الخصم فما أورد شيئا من التناقض حتى نجيب عليه .

وأما قوله : « إن إعجاز هذا الكتاب لا يساوى إعجاز بقية المعجزات لموسى وعيسى » .

فنقول له : قد بينا لك أول الكتاب : أن المعجز هو الأمر الممكن الخارق للعادة ، المقرون بالتحدى ، الخالى عن المعارضة ، والقرآن يشارك جميع المعجزات فى هذا ، لأنه كما عجز فرعون عن قلب عصا حية حتى عدل إلى تجييش الجيوش ، وإيقاد الحرب ، كذلك العرب عجزت عن معارضة القرآن بعد أن تحداهم بمثله ، ثم خفف عنهم فتحداهم بعشر سور مثله ، ثم خفف عنهم فقال بسورة مثله ، ونزل معهم هذا النزول ، فعدلت إلى الحرب ، والتحام الطعن ، والضرب ، وزاد القرآن على ما ذكرتم من المعجزات بوجهين :

أحدهما : أنه صفة قديمة من صفات الله تعالى ، وتلك المعجزات محدثة ، بلا خلاف ولو لم يكن إلا وقوع الخلاف فى قدم القرآن وحدوثه بين المسلمين لكان له مزية على سائر المعجزات .

الثانى : أنه كلام برىء من أن ينسب إلى أنه سحر ، لأننا لم نعلم أن السحر كلام قط . نعم يكون بالكلام ، فلا يلتبس عليك ، وإنما عرفنا السحر أفعالا محسوسة ، فتطرق نسبة السحر إلى ما أتى به موسى وعيسى أقرب من تطرقها إلى ما أتى به محمد ، ولهذا قال فرعون : « إن هذا لساحر عليم »[1] وفى موضع : « إن هذان لساحران » وفى موضع : « قالوا : سحران تظاهرا »[2]

---

(١) الأعراف ١٠٩

(٢) القصص ٤٨

يعنى موسى وهرون ، وقالوا للسحرة حين اعترفوا بالغلبة : « إنه لكبيركم الذى علمكم السحر »(١) ، وكان أكثر السحرة من بنى إسرائيل فنسبوهم إلى مواطأته ، لكونه منهم ، وإنما يظهر الفرق بين القرآن وغيره من حيث أنه مسموع وهى مبصرة على حسب التفاوت بين المسموعات والمبصرات ، وذلك لاتأثير له فى حقيقة الإعجاز .

والسبب الموجب لهذا التفاوت : هو أن الله - سبحانه - أرسل كلا من رسله ، بما كان غالبا على قومه تحقيقا لإعجازهم ، فبعث موسى إلى قوم مهروا فى السحر ، وأعجزهم بالعصا ونحوها ، والمسيح إلى قوم أهل كهانة وطب وحكمة فأعجزهم بما أيده به(٢) ، وصالحا إلى قوم أهل إبل فأعجزهم بناقة خرجت من جبل . فكذلك لما أرسل محمدا إلى قوم أهل فصاحة يعدون الفصاحة والخطابة من أكثر مآثرهم ، ويتنافسون فيها ، وكانت الفصاحة بعيدة عن نسبة السحر ، بعثه بالقرآن الفصيح ، ويكفى الطاعن فى فصاحة القرآن بعد عجز العرب عن معارضته : أن « الوليد بن المغيرة » حكيم قريش وفيلسوفها لما سمعه أنصت له ثم استعاده فأعيد عليه .

ثم قال : والله ماهو بسحر ، ولا شعر ، ولا كهانة ، ولقد سمعنا ذلك كله ، وما هو بشىء منه ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وما هو بقول بشر ، ثم قال له الكفار : فما ترى أن تقول فيه ؟ قال : قولوا : إنه ساحر .

---

(١) طه ٧١

(٢) سبب معجزات عيسى غير هذا ، وقد ذكرناه بإيضاح فى غير هذا الكتاب . وباختصار كان علماء اليهود يوهمون المرضى بالشفاء بواسطة التمائم والأحجبة والتفل فى الماء . وكان المسيح يشفى بمجرد الطلب من الله ، فعلموا أنه نبى لمخالفته عادات العلماء .

فأنزل الله — سبحانه — : « ذرنى ومن خلقت وحيدا » إلى قوله : « إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر »(١) .

. . .

قال : « وإن بقى التباس فى هذا على مسكين ناقص الفطرة . قلنا له : تعالى نفرض أن القرآن فصيح . لاتكرار فيه ولا تناقض ، وأنه جار على نظام واحد فى معانيه ، ونحمل ذلك إعجاز له . أليس من شرط المعجز أن يكون من غير جنس الأفعال المعتادة ؟ إذ هو كلام لا يفضل جميع الكلام ، وإنما يختلف بالأقل والأكثر ، وتقع فيه المماثلة والمفاضلة فهو جنس واحد ، وبحسب التفاضل بينه وبين كلام سائر الخطباء والبلغاء من العرب والمجيدين تتوزع النبوة على كل فصيح بليغ بمرتبة من الفصاحة فينال من النبوة ما استوجبه فصاحته » .

قلت : الجواب على هذا .

أما أولا : فإنه ناقض فى كلامه . لأنه طلب شرط الإعجاز على تقدير ثبوت الإعجاز ، والمشروط لايثبت إلا بعد تكامل شروطه . فمن هذه الحيثية يلزم وجود شرطه ، ومن حيث طلب شرطه . يلزم أن شرطه لم يوجد ، وذلك تناقض ولا محالة .

لكن لا يستبعد مثل هذا ممن يقول : إن الله هو المسيح ، وأنه فى السماء حالة كونه فى الأرض .

---

(١) سورة المدثر ١١

وأما ثانيا : فقوله : « شرط المعجزات أن تكون من غير جنس الأفعال المعتادة » فجوابه من وجهين :

أحدهما : أنا نقول : من شرط هذا الشرط ؟ ومن سلمه لك ؟ أنت شرطته وبحثته مع نفسك تقريرا لعنادك وهواك ، وفساد دعواك . ونحن قد بينا آنفا وفي مقدمة الكتاب ، حيث ذكرت أن الذى اتفق عليه المحققون فى المعجز : أنه الأمر الممكن الخارق للعادة المقرون بالتحدى ، الخالى من المعارض . وبينا مافيه من القيود والإحترازات وبينا أنه موجود فى القرآن .

الثانى : أن الإعجاز بالمعتاد أبلغ من الإعجاز بغير المعتاد بالضرورة . لأنه إذا عجز عما هو من عادته ، وهو متدرب فيه عارف بأصوله وقواعده ، فهو عما لا علم له به أعجز ، وذلك كما إذا قيل للنجار : اعمل مثل هذا الباب . فلم يقدر . فإنا نعلم بالضرورة أنه عن صناعة الزركش ، وخياطة الثياب الرفيعة ، ونسخ الخط المحرر ، إذا لم يكن ذلك من صناعته أعجز ، وأعجز .

ولهذا لما تحداهم بسورة منه فعجزوا . دل على أنهم عن معارضة سورتين فأكثر أعجز .

وأما ثالثا : فقوله : « هو كلام لا يفضل جميع الكلام فهو جنس واحد » .

قلنا : الجواب من وجهين :

أحدهما : لا نسلم أنه لا يفضل جميع الكلام ، بل يفضله بخصيصة الإعجاز ، كما بينا وذلك مدرك بالحس والإستدلال . أما الحس فإن كل من سمعه يحس من نفسه إدراك أنه ليس بكلام آدمى ، وأما الإستدلال فبعجز العرب عن معارضته .

الوجه الثانى : إن سلمنا أنه مع الكلام جنس واحد . فكذلك قلب العصا ، وإحياء الموتى مع جنس الفعل جنس واحد ، وإنما إختصصنا عليه بخصيصة الإعجاز لذلك القرآن . والله أعلم .

وأما رابعا : فقوله : « تتوزع النبوة على كل فصيح بليغ بمرتبته من الفصاحة فينال من النبوة مايستوجبه » .

جوابه من وجوه :

أحدها : أنا لا نسلم إيجاد الجنس فى القرآن وسائر الكلام لأن هذا صفة للإله القديم وذاك صفة المخلوق المحدث ، وإنما يطلق عليهما كلام ، وكلام . كما يطلق على البارى ـ سبحانه ـ وما سواه موجود وموجود ، وحينئذ لا يلزم التماثل فلا يلزم التوزيع .

الثانى : أن المسيح عندكم إله ، أو ابن الإله ، وأجمعنا على أن الأنبياء سألوه فى جنس الخارق فلزمكم هذا المساق أن توزعوا الإلهية أو النبوة عليهم فيحصل لكل نبى قسط من الإلهية ، أو بنوة الإله فى مقابلة قسط من ظهور الخارق على يديه .

الثالث : أن آدم شارك المسيح فى أنه ليس من بشر ذكر ، وسائر بنى آدم شاركوه فى أنهم من أم . فيجب أن توزع الإلهية أو النبوة بينهم ، فيحصل لكل من بنى آدم منها بحسب ما شاركه فيه .

الرابع : أن إعجاز القرآن ليس بمجموع مفهوم الفصاحة ، ولا بالقدر المشترك منها بينه وبين سائر الكلام وإنما إعجازه بفصاحته

الخاصة به[1] ، وهى القدر الزائد على نهاية فصاحة البشر ، وذلك ليس مشتركا بينه وبين غيره حتى يتجه التوزيع فى النبوة بحسبه ، وهذا كما تقولون أنتم : إن خصوصية المسيح على سائر الأنبياء هو اتحاد كلمة الله به أوظهور اللاهوت فى ناسوته ، وليس ذلك لأحد غيره .

* * *

قال : « فإن قلت : إعجازه من جهة أنه لم يعارضه أحد من الناس ولم يأت بسورة من مثله . قلنا : إن محمدا لم يقل للناس فى قرآنه : « قل : لئن اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لايأتون بمثله »[2] . وقوله : « فأتوا بسورة من مثله »[3] إلا بعد أن تأسست رياسته ؛ وظهر سلطانه . فمن كان يقدم على معارضته وأسيافه تقطر دما » لذلك لما شرع النضر بن الحرث فى معارضته أنهض إليه على بن أبى طالب فعجل قتله .

وأما بعد موته فالجزية عنه عظيمة تسرق ملوك المسلمين لا يقدم أحد منها على ذلك ، وقد عارضه أبو العلاء المعرى ، والعبسى بعد موته عارضه ، ومن معارضته له : « إنا أعطيناك الجواهر ، فصل لربك وهاجر ، ولا تطع كل كافر وساحر » ولأجل ذلك صلب على العود . وقيل له ، وهو فى الصلب : « إنا أعطيناك العمود ، فصل لربك على العود ، وأنا ضامن عنك أن لاتعود » .

قلت : الجواب عن هذا .

---

(١) بفصاحته ومعانيه معا

(٢) الإسراء ٨٨ .

(٣) البقرة ٢٣ .

أما قوله : « إن محمداً لم يتحدى الناس بالقرآن إلا بعد تأسيس رياسته ، فلم يقدم أحد على معارضته » فهو كذب وافتراء ، بل هذه سورة البقرة من أوائل ما نزل من القرآن ، وفي أولها : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » إلى قوله : « فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا » وتلا « حم » سجدة على « عتبة بن ربيعة » حتى بلغ قوله : « فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فقال له : حسبك يا ابن أخي . نشدتك الله والرحم إلا سكت ، ثم رجع الى أصحابه ، وكانوا بعثوه إليه . ليستنزله عما يقول . فقالوا : نقسم بالله . لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي فارقكم به ، وكان ذلك انبهاراً منه بالقرآن ، وخشية أن تأخذه الصاعقة .

وسمعه الوليد بن المغيرة يقرأ : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان »(١) الآية . فقال فيه ماقدمنا ذكره . وقال : وماهو قول بشر ، وكلهم كانوا يعرفون عجزهم عن مثله . وهو بينهم وحيد مستضعف ، حتى أنهم أخرجوه إلى الطائف ، ثم عاد فاستجار بـ « المطعم بن عدي » حتى بلغ القرآن ، وكان يقول : « من يمنعني من قريش . فإنهم قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » ؟

فلو أمكنهم معارضته ما كان لهم منه مانع ثم سلمنا أنه لم يتحد به إلا بعد ظهور سلطانه . فقد كانت طوائف العرب كثيرة ، وأكاسرة الفرس ، وقياصرة الروم موجودين فقد كان لمن له قوة المعارضة أن يأوى إلى منعه منهم ، ثم يعارضه فإذا أتى بمثله بطل كونه معجزا ، ثم كان من تابعه يتخلى عنه ، ومن خالفه يشتد عليه حتى يؤول أمره إلى الإضمحلال والاضمحلال ، كما آل أمر «مسيلمة الكذاب» و « الأسود العنسي » و « طليحة الأسدي » والأنبياء الكذبة من

---

(١) النحل ٩٠

بنى إسرائيل . وما رأينا كذلك . بل لم يزل الناس يدخلون فى دينه حتى طبق المشرق والمغرب .

وأما قوله : « قتل النضر بن الحرث ، حيث شرع فى معارضته » فليس بصحيح أيضا ، بل إنما قتله بعد أن أسره يوم بدر فى جملة الكفار ، ولاشك أنه كان يرد على الفرس فى بلادهم فحفظ شيئاً من أخبار رستم » و « اسفنديار » فكان يقول لقريش أنا أحدثكم كما يحدثكم به محمد ، ويحدثهم بذلك ، وهو فى عزة ومنعة من أهله بمكة قبل بدر بحين ، ومحمد بينهم مستضعف فلو كان ما عنده مما يصلح معارضا لاستفاض واشتهر ، وملأ البدو والحضر ، ومع هذا فإنه أساء إلى النبى غير ذلك كثيرا ، ثم لما قتله وسمع ما قالت أخته « قتيلة بنت الحرث » فى مرثيته واستعطاف النبى عليه . قال : « لو سمعت شعرها قبل أن أقتله لما قتلته .

وأما حماية ملوك المسلمين عنه ، فلا تمنع من معارضته المعارضين لجواز أن يعارضوه سرا ، ثم يموتوا فتظهر معارضتهم كما ظهرت معارضات المعرى والمتنبى ، وغيرهم من الزنادقة ، بل هذا الخصم بعينه صنف هذا الكتاب فى الطعن على الإسلام مستخفيا ، ثم إنه على طول الأيام ظهر ونوقض ، وليس عند أحد من رؤساء الإسلام منه خبر حتى الآن .

وهذا الكلام يحققه قول المسيح فى الإنجيل : « ما من مكتوم إلى سيظهر ولا خفى إلا سيعلن »(١) .

وأما معارضة المعرى وأضرابه من الزنادقة ، فهى ركيكة تشبه كلام . ولو كانت مساوية للقرآن فى صفاته لظهر لها عصابة من المسلمين ينصرونها .

---

(١) متى ١٠ : ٢٦

ثم اختلفت كلمة الإسلام ، كما أن مناقب أبي بكر وعلى لما كانا متساوبين أو متقاربين اختلفت الأمة فيهما على قولين : أيهما أفضل ؟ وفضائل مروان بن الحكم ومعاوية وعمرو بن العاص ، بل سلمان ، وعمار ، بل غالب الصحابة . لما لم تقارب مناقب هذين الرجلين لم تختلف الأمة فيهم فكما أنه ليس كل فضيلة توجب النزاع في صاحبها وغيره . كذلك كل معارض لا يصلح أن يكون معارضاً مفرقا للناس .

وأيضا . فإن كل من عارض القرآن إنما سرق بعض ألفاظه ، وتابع أسلوبه فلم يلحق به لأنه مادته ، كما أن التلاميذ لما كانت مادتهم في التأييد من جهة المسيح لم يفضلهم أحد عليه ، ولم يسوهم به ، وأما « العبسى » الذى صلب على العود فلا أحقق لفظه لأنه مشتبه الصورة في الكتاب الذى نقلت منه .

فإن أراد الأسود العنسى – بعين مهملة ونون وسين مهملة – فذاك قتل قيلة ، ولم يعلم أنه صلب ، وإن أراد العبسى أو غيره من الألفاظ فلا نعلم من هو إلا أن يكون مسيلمة الكذاب ، ولم يعلم أنه صلب أيضا ، ومن قرآنه : « ضفدع بنت ضفدعين . نق كما تنقين . أعلاك في الماء وأسفلك في الطين » – « والزارعات زرعا ، فالحاصدات حصدا ، فالطاحنات طحنا ، والخابزات خبزا ، والآكلات أكلا ، فاللاقمات لقما ، إهالة وسمنا ، لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم لا يعدلون » .

وهذا مع كونه منسوجا على أسلوب سورة « والمرسلات عرفا » فهو ضحكة مثل قائله .

وكذا قول القائل : « إنا أعطيناك الجماهر » وقول بعضهم : « إنا أعطيناك

الفاق ، فصل لربك وازعق ، إن شانئك هو الأبلق » فإن هذا منسوج على منوال : « إنا أعطيناك الكوثر »(١) .

ولقد عدم أهله من يضحك عليهم ، فضحكوا على أنفسهم . ولعمرى إن قول القائل : « إنا أعطيناك العمود » الخ خير وأفصح وأرشق من هذا كله(٢) وشعر الشعراء المجيدين كجرير والفرزدق وذى الرمة ، ومن المحدثين أبو تمام والبحترى والمتنبى ، خير من هذه المعارضات بما لا يتناهى ، وهى دون القرآن بما لا يتناهى ، والله أعلم .

• • •

قال : « ومن لم يقنع بهذه الأدلة التى أوردناها ، وبقى له نزاع أو جدل فى شىء من دين محمد مع إيضاح فساده وبيانه وتمسك بعلاقة منازعة فهو كالحية قطع رأسها وبقى ذنبها يتحرك » .

قلت : قد بينا أن ما أورده شبه صادرة عن سوء فهم ، وضيق علم ، وأنها كحبال سحرة فرعون ، وما تكلمنا به عليها كعصا موسى تلقف ما يأفكون ،

---

(١) سورة الكوثر .
(٢) المؤلف يتهكم بهم .

الشرط الرابع .

اختبار الشريعة

قال : « الشرط الرابع حسن الشريعة والدين ، وكمالها في الخير والفضائل والعدل ، وذلك أن يتضمن دينه حض الأمة على حب الله وتوحيده والعمل الصالح وحسن العبادة وموالاة الله ، وأن يحب الإنسان لغيره ما يحب لنفسه فليختبر دين هذا الرجل هل هو موافق الدين الطبيعي المذكور وشرائع الله التي أرسل بها رسله كموسى وغيره ؟ وهل هي جارية على هذا المنزع أم لا ؟ »

قلت : أما هذه الخصال التي ذكرها فهي منصوص عليها وعلى غيرها من خصال الخير في دين الإسلام ، والكتاب والسنة بهما مملوءان ، ولولا أن ذكر ذلك يستدعي كتباً ويخرجنا عما نحن بصدده من مناقضة هذا الخصم لذكرته .

وأما قوله : « حض الأمة على حب الله وتوحيده » فهو تمويه وزور ، أين النصراني من التوحيد مع قوله بالتثليث ؟ وأما اشتماله على مصالح العباد العامة والخاصة ، الضروريات وغيرها ، فأمر لا شك فيه ، على ما أشرنا إليه في القاعدة الأولى من القواعد الفروعية في « القواعد الدمشقية » .

وأما شرائع الأنبياء المتقدمين . فأحكامها قسمان :

ما ورد شرعنا بنسخه فليس حجة علينا ، ولا شرعاً لنا .

وما لم يرد شرعنا بنسخه، فهل هو شرع لنا أم لا ؟ فيه قولان للمسلمين(١).

ومن أصل شرعنا : جواز نسخ الشرائع بعضها ببعض ، وأن شريعتنا ناسخة لما قبلها فى الجملة(٢) . فمن نازعنا فى جواز النسخ أو وقوعه أو شيء من أحكامه فقد بينه الأصوليون فى كتب الأصول .

. . .

قال : « فرأيناه قد ذكر فى سورة النساء : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) إلى قوله (أو ما ملكت أيمانكم(٣) فأجاز نكاح أربع نسوة والتسرى بملك اليمين إلى غير عدد محصور : على أى دين كن من الأديان وأن يطلق الرجل ما شاء ويستبدل ما شاء كذلك ما عاش »

قلت : هذا نقل صحيح عن دين الإسلام . إلا قوله فى ملك اليمين : « على أى دين كن من الأديان » فليس بجيد ، بل إنما تباح الكتابية دون الوثنية والمجوسية ونحوهما . وإن كان قد ذهب إلى ذلك أحد من المسلمين ، فليس معتقدنا .

قال : « ونبين بطلان هذا بحجج كثيرة :

أولها : أن الله تعالى لم يعط آدم إلا زوجة واحدة وهى التى خلقها من الضلع ليتبين بذلك تأييد الصحبة والمحبة بينهما كتأييد المحبة بين أعضاء الجسد ، ولهذا

---

(١) والأصح : أننا ملتزمون بما فى القرآن . لأننا إذا كنا مكلفين بشرع غيرنا فى حالة عدم الناسخ لحملنا كتب التوراة مع القرآن ، وهذا لا يصرح به مسلم من أجل التمهيد . (٢) ناسخة للتوراة (٣) النساء ٣ .

حكى عن آدم فى التوراة أنه قال : « هذه [1] عظم من عظامى ولحم من لحمى ، سميت امرأة لأنها أخذت من المرء ، فلذلك يترك الإنسان أباه وأمه ويلزم زوجته » .

وبهذا يتبين أنه بحسب الفطرة تكون واحدة لواحد ، إذ لو كان فى كثرة الزوجات فضيلة لكان آدم أولى بها ، لأنه كان واحداً فى العالم ليكثر نسله » .

قلت : أما كون آدم لم تكن له إلا زوجة واحدة ، فلا يدل ذلك على وجوب الاقتصار على الواحدة .

وقوله : « لو كان فى كثرة النساء فضيلة لكان أولى بها إذ كان مفرداً يكثر نسله قلنا : أما من نسله ، فما كان يجوز له أن ينكح من بناته إلى يوم القيامة لأنهن بناته وإن سفلن ، ونكاح البنات حرام فيما علمناه ، ولم يعلم نبياً وطىء بنته إلا ما حكى فى التوراة عن لوط أنه أحبل إبنتيه وهو سكران [2] . فعلى من قال هذا أو صدقه لعنة الله .

وأما من غير نسله بأن يخلق الله له مثل حواء فلجواز أن حواء كانت تكفيه فلم يحتج الى غيرها ، لأنها خلقت فى الجنة . وقد ملأ الله من نسلهما الدنيا مفردين ، فلو كان له غيرها لما وسعتهم الأرض .

فإن قيل : كيف تمنعون آدم من نكاح بناته وقد زوجه الله حواء ، وهى

---

(١) التكوين ٢ : ٢٣ — ٢٤ .

(٢) الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين .

خلقت من ذاته من ضلعه [١] .

قلنا : لأن بناته منه على جهة الولادة ، وحواء ليست على جهة الولادة وقد فرقتم أنتم بين آدم وحواء والمسيح بهذا بعينه ، فقلتم : المسيح خرج من رحم فكان ابن الله ، بخلاف حواء وآدم .

• • •

قوله : « خلقت من ضلعه ليتبين بذلك تأبيد الصحبة بينهما كتأبيدها بين أعضاء الجسد » .

قلت : ليس ذلك لهذه العلة بل لما ذكر فى القرآن من قوله تعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة [٢]) وهذا لا يقتضى تأبيد الصحبة ، وترك الرجل أباه وأمه ، ولزوم زوجته لا يقتضى أيضاً ذلك ، بل سببه المودة والرحمة بينهما ، وذلك مشترك بين المرأة الواحدة والزوجات .

وأما إنكاره جواز الطلاق ، فإنما استفادوه مما حكوه عن المسيح فى الإنجيل فى الفصل الأربعين [٣] من إنجيل متى أن الفريسيين قالوا للمسيح ليجربوه : « هل يحل للإنسان أن يطلق امرأته لأجل كل علة ؟ فقال لهم : أما قرأتم : أن الذى خلق فى البدء خلقهما ذكراً وأنثى ؟

---

(١) يقول بعض المفسرين أن حواء لم تخلق من ضلع آدم ، بل من الطينة التى خلق منها آدم . والقول بأن حواء من ضلع آدم فى الاصحاح الثانى من سفر التكوين الآية الحادية والعشرون .

(٢) الروم ٢١ (٣) فى التراجم الحديثة : الاصحاح التاسع عشر .

ومن أجل ذلك يترك الإنسان أباه وأمه ، ويلتصق بامرأته ، ويكونان كلاهما جسداً واحداً[1] ؟ وما جمعه الله لا يفرقه الإنسان . قالوا له : لماذا موسى أوصى أن يعطى كتاب طلاق وتخلى[2] ؟ قال : لأن موسى علم قساوة قلوبكم فأوصاكم أن تطلقوا نساءكم ، ومن البدء لم يكن هذا ، وأقول لكم : من طلق امرأته من غير زنا فقد ألجأها إلى الزنا ، ومن تزوج مطلقة فقد زنا » .

لكن الجواب عنه من وجوه :

أحدها : الجواب العام ، وهو عدم الوثوق بالإنجيل .

الثاني : بتقدير الاحتجاج بالإنجيل . لكن هذا الكلام بعينه متهافت فلا تليق نسبته إلى المسيح[3] ، وسنبين وجه تهافته .

الثالث : الجواب من حيث التفصيل .

---

(١) يشير إلى سفر التكوين ٢ : ٢٤

(٢) أول الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التثنية .

(٣) لو أن المؤلف رحمه الله قرأ كلام المسيح كله حسبما هو مدون فى الأناجيل لعلم من الكلام : أن المسيح أباح الطلاق - عن أمر الله - كما أباحه موسى فى التوراة - عن أمر الله - ولا فرق . يقول المسيح : إنى أنصح الرجل أن لا يطلق امرأته لأى سبب حتى ولو كان تافها ، بل أنصح بالطلاق لسبب قوى جداً ، ولا أقوى من الزنا سببا ، وكان فى عهد المسيح علماء من اليهود يبيحونه لأى سبب ، وعلماء يبيحونه للزنا فقط ، فقدم المسيح نصيحته لا للإلزام بل للارشاد والنصيحة ، وعلل ذلك بأن العادة جرت فى الناس بالرغبة فى نكاح الأبكار ، وتقل الرغبة فى الثيبات والأرامل ، وإذا قلت الرغبة فيهن نفد صبرهن ، وإذا نفد الصبر أحكم الشيطان

أما كونه خلقهما ذكراً وأنثى ، وأن الإنسان شديد الألفة بامرأته ، فلا يقتضي عدم جواز الطلاق ولا يناسبه ، وأما قوله : « ماجمعه الله لا يفرقه الإنسان » فنقول :

أولا : الجمع بين الزوجين ليس حقيقيا كاجتماع بدن الإنسان ونحوه ، وإن سلمناه فهو عام مخصوص بصور كثيرة كتفريق أعضاء البدن لمصلحة العقوبة وغيرها ، وأما قوله : « لم يكن هذا في البدء » فلا يدل على ذلك أيضا لجواز الفسخ[1] .

وأما اعتذاره عن تجويز موسى الطلاق لعلمه بقساوة قلوبهم إلى آخره . فالمناقشة عليه من وجوه :

= وساوسه . وتبريرنا لوجهة نظر المسيح قائم على أمور منها : النص نفسه ، وفي آخره يقول : « من استطاع أن يقبل فليقبل » [متى ١٩ : ١٢] فالأمر للإرشاد والنصح لأن النص على سبيل التخيير لا الإلزام . ومنها : أن المسيح صرح في الإنجيل بأنه غير ناسخ للتوراة ، وعليه يكون مقراً تمام الإقرار بما أتى به موسى ابن عمران لقد قال لأتباعه : « على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون ، فكل ماقالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه » [متى ٢٣ : ٢ - ٣] فقد أحال أتباعه إلى علماء اليهود ، ومنهم من يؤمن به ، ومنهم من لا يؤمن به . ولو كان المسيح مكملا لشريعة موسى - كما يدعي النصارى ، وهذا باطل - لكان معنى التكميل أن يقرحكم موسى في الطلاق وسائر الأحكام أولا ، ثم بعد ذلك يذكر التشريعات التي يريد أن يكمل بها شريعة موسى . كالإنسان يريد إكمال بيت من البيوت يترك القائم من أساس البيت ويضيف عليه ، وعلى قولهم زورا بالتكميل ، وعلى قولنا حقا بالتصديق فقط دون التكميل يثبت أن المسيح أباح الطلاق لكن بسبب قوي جدا هو الفاحشة المبينة .

(١) المسيح غير ناسخ للتوراة . بل مصدق للتوراة ومبشر بمحمد ﷺ والناسخ للتوراة هو محمد ﷺ .

أحدها : أن قساوة قلوبهم إن كانت مقتضية لجواز الطلاق ، فلم لم يجزه المسيح أيضا لذلك ، ولعل محمداً عليه السلام أجاز الطلاق توسيعا على قساة القلوب من أمته .

فإن قلتم : نسخ ذلك فى دين المسيح .

قلنا : ونسخ مافى دين المسيح فى دين محمد .

وإن لم تكن مقتضية لجواز الطلاق لزم أن يكون موسى شرع غير الحق لغير موجب .

الثانى : إن ما جاز أن يكون حقا فى دين موسى فا المانع أن يكون حقا فى دين محمد ؟

الثالث : إن قوله : « من طلق امرأته من غير زنا فقد ألجأها إلى الزنا » كلام مستدرك بأن ذلك غير لازم من طلاقها . لأنا إذا ألجأناها أن تتزوج بغيره لم يحصل من طلاقه لها الإلجاء إلى الزنا ، ثم إن مفهومه جواز طلاقها إذا زنت ، وعموم قوله : «من تزوج مطلقة فقد زنا » يقتضى أن أحدا لا يتزوج مطلقة سواء طلقت لكونها زنت أو مع عدم الزنا ، وذلك يلزم منه إلجاؤها إلى الزنا — أعنى جواز طلاقها — إذا زنت . والمنع من تزوج المطلقة مطلقا ، على ظاهر هذا العموم . لأنها حينئذ تبقى مطلقة بطالة فتحملها البطالة على التشاغل بالزنا ، كما حكى فى التوراة عن كنة « يهوذا » لما مات زوجها أحوجتها البطالة إلى أن تعرضت ليهوذا على الطريق حتى زنا بها(١) ، ونحن نتبرأ إلى الله من هذا .

---

(١) الأصحاح الثامن والثلاثون من سفر التكوين .

وبهذا بان ما فى هذا الكلام من التهافت ، وعدم التناسب ، بحيث يجب تبرئة السيد المسيح عن مثله .

• • •

قال : « وأيضا . فإن الطبيعة لا تجمع إلا اثنين فى فعل التناسل . فينبغى أن لا يكون للرجل إلا زوجة واحدة » .

قلت : هذا خلف من الكلام . فإنه إن أراد أنها لا تجمع إلا اثنين فى حالة واحدة فسلم . لكن لا يقتضى ذلك الاقتصار على واحدة ، وإن أراد فى وقتين فصاعدا فممنوع ، وحينئذ يجوز أن يطوف الإنسان فى ساعة على جماعة من النساء واحدة بعد واحدة .

• • •

قال : « وأيضا . فإن كثيرا من الحيوانات ليس الذكر منها إلا أنثى واحدة كالأسد والدب وغيرهما من البهائم ، وكأكثر الطيور فالإنسان لخصيصة عقله أولى بذلك قمعا للشهوة » .

قلت : جواب هذا من وجهين :

أحدهما : أنه معارض بما يتخذ من الحيوانات عدة إناث ، فلم كان التأسى بأحد القبيلين أولى من التأسى بالآخر ؟

الثانى : أن اقتصار هذه الحيوانات على أنثى واحدة . هل هو على جهة قمع الشهوة ، أو على جهة الحيوانية والطبيعة ، وعدم الشعور بحقائق الأمور ؟ فإن كان الأول لزم أن تكون هذه الحيوانات عقلاء كاملى العقل حتى قمعت

شهوتها بعقلها ، وأن الذب أعقل من « إبراهيم » حيث كان فى فراشه « سارة » و « هاجر » ومن « يعقوب » حيث جمع بين ابنتى خاله « ليئة » و « راحيل » وجاريتهما فى فراش واحد ، فضلا عن أن تكون هذه الحيوانات أعقل من بقية عقلاء الآدميين . وإن كان الثانى لم تصح الأولوية ولا القياس . والتنظير بم يكون ؟ قد اجتمعتم أنتم وبعض الحيوان البهيم على رأى ، ونحن وبقية العالم على رأى ، وموافقة الأكثر أولى من موافقة شرذمة قليلة ، تقلد فى دينها ودنياها ومعاشها ومعادها حيواناتهم ، خصوصاً السبع والذيب اللذين هما من أدمع الحيوانات وأبلدها .

ولعل هذا من جملة الأسباب الموجبة لإطباق الحمى على الأسد ، لأن طبيعته فى الأصل حارة ، وباقتصاره على أنثى واحدة يقل نزوة ، فتختص الحرارة فى بدنه ، فيبثها القلب إلى سائر نواحيه . وهذه حقيقة الحمى .

وقد بينا فى أول الكتاب أن من منافع النكاح تخفيف البدن وتنشيطه .

فإن قلت : فالأسد فى الشجاعة والنشاط على الغاية بخلاف سائر الحيوان ، وما ذكرته يقتضى تثبطه اثقل بدنه .

قلت : وما يدريك لعله لو أكثر من النزو بحسب ما تقتضيه حاله ، كان يكون أشجع وأنشط .

• • •

قال : « وأيضاً فإن فائدة آلة التناسل فى الزوجين : الذرية لا اللذة . ثم اللذة ، وإن كانت تصحبها تبعاً ، لا بالقصد الوضعى ، لكن استعمال الآلة للذة فقط استعمال سوء مائل عن الاستعمال المستقيم . ولذلك هو ذنب » .

قلت : هـذا ممنوع ، بل المقصود من آلة التناسل الذرية واللذة جميعاً ، بالقصد الأول . أما الذرية فبالاتفاق ، وأما اللذة فلأن البارى ـ سبحانه ـ ابتلى خلقه بتركيب الشهوات فيهم خصوصاً هذه الشهوة فإنها أشدها ، فلو لم يجعل إلى قضائها طريقاً مباحاً للزم منه تكليف ما لا يطاق ، إذ كان يكون مثال الشخص فى الدنيا مع كثرة نسائها مثل شخص حبيس فى دار مملوءة حيات ، بحيث لا يطأ إلا على جماعة منهن . ثم يقال له : إياك أن تطأ منهن شيئاً ، واحترس أن يلدغنك .

ثم قد أجمع الناس على جواز نكاح العاقر والصغيرة التى لا تلد ، ومن ارتفع حيضها ونحو ذلك ، فلو لم تكن اللذة مقصوداً أصلياً ، لما جاز ذلك .

فأما قوله : « إنه ذنب »

فجوابه : أن يقال : هو ذنب إذا كان حراماً أو مطلقاً ؟ الأول مسلّم ، والثانى ممنوع ، ولو كان كذلك لم يفعله الأنبياء . وأيضاً لو كان استعمال الآلة للذة فقط ذنباً واستعمال سوء ، مع أن حصول الذرية منه غير مقطوع به ، لكان فى تجويزه لأجل الذرية إقدام على ذنب محقق لتحصيل فائدة غير محققة وذلك ينافى السياسة العقلية .

• • •

قال : « وأيضاً لذة اللحم ليس شأنها اجتلاب فائدة ، بل تدفع الفوائد الروحانية وهى فى نفسها خسيسة ردية مهلكة ، فإنها كالخمر تسكر الذهن الإنسانى وتذهب قوته ، وكالضباب يصير العيون مظلمة » .

قلت : قد بينا فوائد هذه الحاسة أول الكتاب ، ونص عليها الأطباء ، وعلى مضار تركها . ولو صح ما قاله من دفعها الفوائد الروحانية ، لوجب أن

تكون محابيس النصارى وغيرهم الذين لم ينكحوا قط، أفضل من الأنبياء كإبراهيم وموسى وهرون، ويشوع بن نون، والأنبياء الإثنى عشر (١) وأشعياء ودانيال، روحانية منهم.

ولقد حيرني هذا العلج في أمره بتلونه، فإنه تارة نصراني مثلث أو غيره وتارة فيلسوف معطل، وتارة عامي جاهل، نعوذ بالله من التلون.

قوله: «هي في نفسها خسيسة ردية مهلكة». إن أراد بخستها قبح صورتها طبعاً، ورد عليه حالة البول والتغوط، بل حالة الأكل لأنها سببهما، ولا يقال هذه الأحوال ضرورية طبعاً، لأنا نقول مثله هناك، إذ النكاح ضروري من حيث الطبيعة والشهوة يتأذى بتركه الدين والبدن، كما سبق.

وقوله: «إن أراد إهلاك الدين بالتتابع فيها». فذلك إنما هو في الحرام لا الحلال، وإن أراد هلاك البدن بإضعافه فذاك يتقدر بحسب اختلاف المروءات والمقود والمحمود منه: القدر المتوسط، الذي لا ينهك البدن بكثرته ولا يفضي إلى إنهاك الدين بالإقلال منه.

ويحكى (٢): «أن أبا مسلم الخراساني كان لا يأتي النساء في السنة أكثر من مرة. ويقول: هذا جنون. فأكثر من مرة لا يكون».

قلت: ويغلب على ظني أنه قد كان به علة مانعة، أو فكرة شاغلة.

فإن قيل: فمحمد كان أولى بهذا التماسك من أبي مسلم لفضيلة منصب النبوة

---

(١) الأنبياء الإثنا عشر: يقصد أنبياء لهم أسفار صغيرة ملحقة بالتوراة العبرانية. (٢) أي يحكى النصراني.

وفكرته فى الجهاد ، وإقامة الدين ، وكمال معرفته بأحكام الآخرة .

قلنا : كذلك كان ، ولهذا قالت عائشة : « كان أملككم لأربه » لكنه لو بالغ فى التماسك عن هذه الشهوة ، لشق على أمته التأسى به ، فإنه كان يطيق ما لا يطيقون ، فكان يلزمهم الحرج ، وذلك ينافى نصوص الشريعة برفع الحرج فأكثر منه ، دفعاً للحرج عن أمته ، وأيضاً فإنه كان مشرعاً معلماً ، كما قال : « إنما بعثت معلماً » وعلم أن فى صورة هذا الفعل ما تحتشمه النفوس وتنجيه منه ، لجزاهم عليه بإكثاره منه فعلا وقولا ، لئلا يتقاصروا عنه أحياناً أو يقدموا عليه على وهم وإيحاش فيحرجوا بذلك ، فأراد أن يوسع عليهم المجال فى الحلال ، ويخالف أهل الزور والمحال ، النصارى الضلال .

قوله : « إنها كالخمر تسكر الذهن الإنسانى وتذهب قوته » .

قلنا : إن صح هذا فهو الإكثار منها لا مطلقها ، على أن الإنسان إذا داوم تركه بعد اعتياده يجد لذلك ثقل بدن وكرب وانقباض يورثه بلادة ووسواساً ويحصل له بفعله انشراح وانبساط ، ولذلك هو أكبر دواء العشاق ، كما ذكره الأطباء .

* * *

قال : « ولأنها مضادة لأنواع السرور الروحانية العلية ، فهى تصرف النفس بالكلية عنها ، إذ يفسد ذوق القلب ، فلا يستطيب شيئاً من الخير ، كما فى العكس ، وهو أن الذين يستطيبون الأمور الروحانية الأزلية لا يستطيبون اللذات الجسدانية بل يكرهونها ويهربون عنها » .

قلت : أما قوله : « إنها مضادة للروحانيات » فباطل بالأنبياء ، إذ هم أعظم البشر روحانية ، وكانوا يستعملون هذه اللذة ، وكل ما ذكره فى هذا

الفصل باطل والحق خلافه، بل هذه اللذة إذا استعملت على الوجه الحلال قصداً لا إفراط ولا تفريط، وقصد بها إعفاف الدين وتحصين الدين والفرج. والتفرغ من قلق الشبق، لطاعة البارى فى النهار والغسق، كانت أفضل من عبادات كثيرة.

ولهذا قال بعض علماء المسلمين: إن التشاغل بالنكاح أفضل من التخلى لنوافل العبادة، حسماً لمادة فساد الدين بالزنا ونحوه.

وأما ترجيح الرهبانيات عند أصحابها، فلأنهم لا يتوصلون بها إلا بعد قهر الطبيعة برياضة البدن وكسر شهوته، وإضعاف قوته بتحصيل المرامين، وقيام الليالى، حتى تقوى قوة النفس على البدن، فيظهر منها ما تشتهى أنفسهم عنه، لا لما أرادوا.

ولو كان ما ذكر صحيحاً لوجب حين استعلن(١) الله لإبراهيم وإسحق

---

(١) إن استعلان الله لإبراهيم وإسحق ويعقوب ليس معناه: أن الله ظهر أمامهم وجهاً لوجه، ورأوا الله أمامهم وجهاً لوجه، فالتوراة تصرح وكذلك الإنجيل بأن الله تعالى لا يرى، ولن يقدر أحد على رؤيته، فى نصوص كثيرة محكمة، منها: قول أشعياء: «حقاً أنت إله محتجب، يا إله إسرائيل» [أشعياء ٤٥ : ١٥].

ومنها: قول الله تعالى لموسى عليه السلام: «لا تقدر أن ترى وجهى، لأن الإنسان لا يرانى ويعيش» [خروج ٣٣ : ٢٠]

وفى سفر العدد أن هرون ومريم تذمرا على موسى بسبب تزوجه من امرأة كوشية، فخاطبهما الله تعالى: «فقال: اسمعا كلامى. إن كان منكم نبى للرب فبالرؤيا استعلن له. فى الحلم أكلمه. وأما عبدى موسى فليس هكذا، بل هو أمين فى كل =

ويعقوب، وتجلى لموسى وناجاه، إن كانوا يطلقون نساءهم، لا يجتمعون بهن أبداً.

= بيأتي. فماً إلى فم وعياناً أتكلم معه لا بالألغاز. وشبه الرب يعاين. فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدي موسى؟ [عدد ١٢ : ٦ - ٨].

يوضح هذا النص أن الله تعالى لا يرى، وإذا أراد أن يكلم بشراً يكلمه بالوحي وفي الإنجيل برواية يوحنا: «الله لم يره أحد قط» [يوحنا ١ : ١٨]. ويقول بولس في رسالته إلى تيموثاوس: «أوصيك أمام الله الذي يحيي الكل والمسيح يسوع الذي شهد لدى بيلاطس البنطي بالاعتراف الحسن، أن تحفظ الوصية بلا دنس ولا لوم إلى ظهور ربنا يسوع المسيح، الذي سيبينه في أوقاته المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك ورب الأرباب الذي وحده له عدم الموت، ساكناً في نور لا يدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه، الذي له الكرامة والقدرة الأبدية» [١ تيموثي ٦ : ١٤ - ١٦] وما ورد من نصوص يوهم ظاهرها استهلال الله وظهوره، فإن معناها إثبات وجود الله في العقل، كما يتأكد الرائي من الشيء الذي رآه.

وفي القرآن الكريم نصوص تمنع رؤية الله منها: «لا تدركه الأبصار» ويتفق المعتزلة مع الشيعة الإمامية على نفي رؤية الله في الدنيا وفي الآخرة، واتفاقهم صحيح لا ريب فيه، لأن «لا تدركه الأبصار» نص محكم.

وأما قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) فنص متشابه يحتمل:
١ - النظر إلى الذات ٢ - والنظر إلى نعم الله وفضله. والنظر إلى النعم والفضل موافق لمعنى النص المحكم، فيكون هو مراد الله تعالى. وكذلك يفسر قوله تعالى عن الكافرين: (إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) أي عن نعم الله وفضله.

روى صفوان بن يحيى قال: سألني أبو قرة أن أدخله على الإمام علي بن موسى الرضا - رضي الله عنه - فاستأذنته في ذلك فأذن لي، فقال أبو قرة: إنا روينا:

قال : « فقد بان بأن اللذة اللحمية ينبغى أن تبقى بحسب استطاعة الطبيعة وإذا كان الواجب أن تبقى ، فأولى أن لا يعمل شيئاً لاجتلابها ، فينبغى أن تعدل وتقمع حيث لا يستطاع أن تبقى على كل حال » .

قلت : المسلم له من هذا وجوب إبقاء الحرام ، وما ينهك البدن أما غيره فلا ، وهذا كلام فى الريح .

* * *

قال : فينبغى أن لا نكثر الزوجات والجوارى ، بل يقتصر على واحدة ويكون قصده تحصيل الروحانيات »

قلت : هذا حاصل ماذكره بعدما سبق فى كلام مخبط متهافت .

= أن الله سبحانه قسم الرؤيا والكلام بين اثنين ، فجعل الكلام لموسى عليه السلام والرؤية لمحمد ﷺ . فقال أبو الحسن الرضا : فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين الجن والإنس : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) و (لا يحيطون به علما) و (ليس كمثله شيء)؟ أليس محمداً ؟ قال : بلى . قال : فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله ، ويدعوهم إلى الله بأمر الله ، ويقول لهم : (لا تدركه الأبصار) و (لا يحيطون به علما) و (ليس كمثله شيء) ثم يقول لهم: أنا رأيته بعينى وأحطت به علما ، وهو على صورة البشر ؟ أما يستحون ؟ ماقدرت الزنادقة أن ترميه بهذا . قال أبو قرة : أنه قال : (ولقد رآه نزلة أخرى) قال أبوالحسن الرضا : إن بعد هذه الآية مايدل على أنه لم يره ، حيث قال : (ما كذب الفؤاد ما رأى) أى ما كذب فؤاد محمد ، وما رأت عيناه . ثم أخبر بما رأى ، وقال : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) وآيات الله غير الله ، وقد قال : (ولا يحيطون به علما) وإذا رأته الابصار فقد أحاطت به علما [توحيد الصدوق — باب الرؤية] .

واعلم : أن النكاح بالغاً ما بلغ منه الإنسان لا يشغل عن الروحانيات لمن له نية صادقة ، ونفس صافية وهمة عالية (١) .

• • •

قال : « ويقال أيضاً : الشهوة اللحمية إما أن يقال : ينبغي أن تقمع أو لا يقال ؟ فإن قيل لا ينبغي أن تقمع، لزم أن تبقى الطبيعة الإنسانية ذاهبة في كل نجاسة ولواط وبهيمية . وإن قيل : ينبغي أن تقمع لكن باستعمال النساء والجوارى الكثيرة كما قال محمد ، فهو مردود بوجوه :

الأول : أن الشهوة مشتركة بين القبيلين ، فينبغي أن يكون للمرأة أزواج كما للرجل زوجات ، ولم يقل به أحد .

الثاني : أن المرأة إلى الزنا أقرب إلى الرجل لوفور شهوتها ونقصان عقلها فإن احتاط للرجل بكثرة النساء بحيث إن كانت واحدة مريضة أو عاقراً لا تحمل ، وجد الأخرى صحيحة تحمل ، لزمه أن يجعل للمرأة أزواجاً بحيث إن كان أحدهم مريضاً أو غائباً ؛ وجدت الآخر يصونها عن الزنا .

الثالث : أن في الباب الثاني عشر من كتاب أيوب : « سل البهائم تعلمك وطيور السماء تريك » (٢)

قال : « والبهائم وطيور السماء تتبع عادة آبائها ، فينبغي لنا أن نتبع عادة أبينا ولم يكن له إلا زوجة واحدة .

---

(١) من وصايا التوراة للملوك : لا تكثر لهم الخيول ، ولا تكثر لهم النساء ولا تكثر لهم الأموال [التثنية ١٧ : ١٦ - ١٧] والنهي عن التكثير يقتضي إباحة القليل

(٢) سفر أيوب ١٢ : ٧

الرابع: أن تكثير الزوجات والجوارى موجب لتحاسدهن، وتشتيت قلوبهن، والغضب والقطيعة وذلك شر، والله خير محض، فلا يفعل الشر ولا يأمر به.

قلت: الجواب عن هذا بأنا نقول: يجب قمع هذه الشهوة بالطريق الشرعي وهو النكاح والتسرى أو الصوم لمن لا يقدر على ذلك.

قوله: «الشهوة مشتركة بين القبيلين» قلنا: نعم.

قوله: «ينبغى أن تكون المرأة أيضاً لها [illegible]» قلنا: هذا قد كان يقتضى العدل، لكن منع منه مانع آخر، [illegible] واشتباه الأنساب، ونحن شرعنا مبنى على مراعاة المصالح والمفاسد، وإذا تمحضت المصلحة حصلناها، أو المفسدة نفيناها، وإن تعارضتا، فإن ترجحت المصلحة حصلت، أو المفسدة نفيت، وإن تساوتا تخيرنا، وهاهنا تعارضت مصلحة العدل فى النساء بتسويتهن بالرجال فى تعدد الأزواج ومفسدة إختلاط الأنساب لكن ترجحت هذه المفسدة فنفاها الشرع وحفظ المرأة.

وتحصينها من الزنا يحصل باحتجابها فى البيت على حسب الإمكان على أنها لو كان لها أزواج لما تركت الزنا بالكلية، كما أن الرجل على ما هو مشاهد - وإن كان له زوجات لا يتركه بالكلية، بل يطمح إلى غيرها من ذكر وأنثى لواطا وزنا.

لكن غاية ما يقال على تقدير كثرة أزواجها كأن يكون داعيها إلى الزنا أضعف فيكون وقوعه منها أقل لكن يعارضه مفسدة إختلاط النسب وتغاير

الرجال الذين نفوسهم أقوى، وهممهم أعلى من همم النساء، ثم أنتم لم تقولوا بذلك في جانب الرجل[1]؟

وهذا سؤال قد أحكمت الجواب عنه في أوائل الفوائد، وما ظننته أن أحدا أورده. لكني فرضته وأجبت عنه. وبهذا حصل الجواب عن سؤاله الثاني.

وأما الثالث: فقوله في كتاب أيوب على تقدير الوثوق بصحته: فالمراد به: أن الطيور تعلمه أمر دينه والأحكام الشرعية.

ثم [illegible] لا نعلم [illegible]. قلنا: إن سؤالنا يتعين أن يكون هذا الحكم؟ بل لعله التوكل من حيث أنها تغدو خماصا وتروح بطانا، فيأمره أن يكون في التوكل مثلها أو نحو ذلك. وقد قال الله في القرآن: «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم»[2].

وأما قوله: «ينبغي أن نتبع عادة أيضا في الاقتصار على واحدة» فجوابه من وجهين:

أحدهما: أن نقول له: هات لنا مثل حواء حتى نقتصر عليها.

الثاني: أن شرعنا أمرنا بمتابعة الحق بالحجة، ونهانا عن تقليد الآباء بقوله:

---

(١) اختصار الكلام: إن منع تعدد الرجال للمرأة سببه الحفاظ على الانساب وسؤال النصراني لا يلزمنا لان التوراة التي هو ملزم بها تبيح تعدد الزوجات مثل القرآن، ولا تبيح تعدد الازواج.

(٢) الانعام ٣٨

« قالوا : بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا »(١) فى آيات كثيرة .

وأما السؤال الرابع : فإن تكثير النساء ، وإن كان موجبا للتغاير بينهن وتقاطعهن . لكن هذه مفسدة عارضتها مصلحة أرجح منها ، وهو تحصين فروج الرجال ، ولم يعارض هذه المصلحة مانع اختلاط النسب كما عارضها فى حق النساء ، فحصلت هذه المصلحة الراجحة لما قررناه من مراعاة شرعنا للمصالح .

واعلم أننا بحمد الله أهل صدق وعدل وإنصاف ، وعلى ذلك تأسيس دين الإسلام . ولاشك أنا نرى غالب الناس من المسلمين وغيرهم مع إباحة التزوج والتسرى لهم قد استحوذ عليهم الشيطان ، حتى يترك أحدهم ما يحل له من ذلك وإن كثر ويعدل إلى الزنا بالنسوان ، واللواط بالغلمان . فلو حصروا فى واحدة كما أشار به هذا الخصم ، لعمرى لقد كانوا يدبون على الشيوخ والكهول والشباب والبهائم فى البر ، والحيتان فى البحر ، فكان فيما جاء به دين الإسلام من تكثير مجال النكاح عليهم تقليل لهذه المفسدة .

ولعل هذا النصرانى غره احتباس رهبانه فى البيع والديارات فيظن أن ذلك يمنعهم عن الفجور ، ولو علم أنهم يدبون على الشمامسة وكل صبى وشيخ يدخل إليهم . لأجاز لهم التزوج بعشرين ، ولولا ماهم فيه من الرياضة ونحوها لدبوا على أطعمة المذبح .

• • •

(١) لقمان ٢١

قال : « وفى سورة البقرة : « نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم »(١) قال فى التفسير : يعنى من أى وجه شئتم مقبلة ومدبرة » قال : « وهذا تعليم يستنكف منه البهائم ، فضلا عن أن الله يعلمه خلقه » .

قلت : هذا غباوة وعناد . فإن لهذه الآية أسبابا تقتضى ما تضمنته من الحكم :

أولها : أن اليهود كانت تقول : إذا جامع الرجل زوجته من دبرها فى قبلها جاء الولد أحول ، فبين الله تعالى بهذه الآية أن لا أثر لذلك ، بل الرجل أن يأتى امرأته مقبلة ومدبرة بشرط أن يكون فى القبل .

الثانى أن المهاجرين كانوا يجبون نساءهم ، يعنى يأتونهن مدبرات فى القبل فلما جاءوا المدينة جعلوا يفعلون ذلك بأزواجهم من الأنصار . ولم يكن لهن به عادة فأخبرن بذلك النبى عليه السلام ، ووقع فيه الكلام ، فبين الله حكمه .

الثالث : ما روى ابن عباس قال : جاء عمر ، فقال يا رسول الله هلكت ، قال « ما أهلكك » ؟ قال : حولت رحلى الليلة فأنزل الله هذه الليلة : « فأتوا حرثكم أنى شئتم » أقبل وأدبر ، واتق الدبر والحيضة . رواه الترمذى والنسائى .

وحينئذ نقول : ما المحذور فى أن الله ـ سبحانه ـ بين له فى كيفية الوطء ما ينبغى ، مما لا ينبغى ؟ وإنما استقبح هذا الخصم هذا بناء على رأيه الفاسد فى أن اللذة ليست مقصودة لذاتها من الجماع ، وقد تقدم منعه ، وما جعل النساء إلا للمتعة :

---

(١) البقرة ٢٢٣

على أن النسائى قد روى فى سننه الكثير عن ابن عمر ، أن رجلا أتى امرأته فى دبرها على عهد النبى ﷺ فوجد النبى ﷺ لذلك وجدا شديداً . فأنزل الله — سبحانه : « فأتوا حرثكم أنى شئتم » ويحتج بهذا من أجاز وطء المرأة فى دبرها ، ويعزى إلى مذهب مالك وأهل الحجاز ، وهذا أشد وأغلظ على النصارى(١) .

• • •

قال : « وفى هذه الصورة : « الطلاق مرتان »(٢) إلى قوله : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » وذكر حديث امرأة رفاعة القرظى : « لا . حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك » وكأن حاصل ماذكره إنكار فراق المرأة بالطلاق أو المرض أو العيب ونحوه . قال : « لو جاز ترك المرأة لأجل شيء من العيوب ، يجاز للمرأة ترك الرجل لذلك . لأنها أحوج إلى الرفق لضعفها » .

---

(١) كان يجب على المؤلف أن يقول : وهذا من عبث الفقهاء . بدل وهذا أشد وأغلظ على النصارى . لأن الآية لا تشير إلى إتيان المرأة من الدبر . قال مالك لابن وهب وعلى بن زيادة لما أخبراه أن ناساً بمصر يتحدثون عنه أنه يجيز ذلك ، فنفر من ذلك وبادر إلى تكذيب الناقل ، فقال : كذبوا على ، كذبوا على ، كذبوا على . ثم قال : ألستم قوما عربا ؟ ألم يقل الله تعالى : « نساؤكم حرث لكم » وهل يكون الحرث إلا فى موضع المنبت ؟ وقيل لابن عمر : ما تقول فى الجوارى حين أحمض بهن ؟ — والتحميض هو أن يأتى الرجل المرأة فى غير مأتاها الذى يكون موضع الولد — قال : وما التحميض ؟ فذكر له الدبر . فقال : هل يفعل ذلك أحد من المسلمين ؟

(٢) البقرة ٢٢٩

قال : بل ينبغي أن تمكن المرأة ذات العيب لأجل الضرورة ولا تفارق ، لأن أحد المتعاهدين إذا فارق صاحبه حال المرض والضرورة عد قاسياً خائناً .

قلت : أما الطلاق فجائز بإجماع المسلمين ، وقد تقدم البحث معه فيه . وأن النكاح عقد معاوضة في الحقيقة فجاز فسخه كالبيع ، فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » وعليه إشكال ، وهو أن البغضة تقتضي الكراهة والإباحة تقتضي التسوية ، فالجمع بينهما متعــذر . وأجيب : بأن المباح قد يراد به تساوي الطرفين ، وقد يراد به القدر المشترك بين المتساوي الطرفين وراجح الترك ، وراجح الفعل من غير جزم . وبهذا يستقيم معنى الحديث ، لأنه يصير تقديره : أبغض ما الإنسان فعله : الطلاق . وهو أعم من المتساوي وغيره .

وقوله : « لو جاز ترك المرأة لعيب ونحوه ، لجاز لها ترك الرجل »

قلنـا : هكذا نقول على تفصيل فيه . وتقريره مختصراً : أن العيب في أحد الزوجين : إما أن لا يخل بمقصود النكاح أو كماله ، فلا يثبت به الفسخ ، أو يخل بذلك فيثبت به إقامة للعدل وإزالة للمكروه عن المكلف .

ثم العيوب الموجبة للفسخ . إما خاصة بالرجل كالجب والعنة ، أو المرأة كالقرن والرتق . أو مشترك بينهما كالجنون والجذام والبرص ، ولكل من الزوجين فسخ نكاح صاحبه ، لما يخل مقصود نكاحه من ذلك .

قوله : « تمكن المرأة الضرورة ولا تفارق »

قلنـا : فيه إلزام للرجل مكروها ، له عنه مندوحة ، وذلك ينافي العدل .

قوله : « أحد المتعاهدين إذا فارق صاحبه حال الضرورة ، عد قاسياً خائناً »

قلنا : النكاح من باب العقود العوضية ، لا من باب العهود .

والعقود العوضية يجوز فسخها بعيب وإقالة ، فكذلك النكاح يفسخ بالعيوب والخلع ، وهو نظير الإقالة فى البيع ونحوه ، والفرق بين العقد والعهد أن العقد يتضمن عوضاً ، والعهد لا يتضمن عوضاً ، وقد أمر الله بالوفاء بالأمرين ومن الوفاء بالعقد ، الفسخ عند قيام المقتضى له ، ولو كان اجتماع الزوجين على جهة العهد على ما ذكرنا لكان زنا حراماً بإجماع المسلمين .

وحينئذ نقول : فسخ العقد لا قسوة فيه ولا جناية ، بل إنما ذلك فى العهد .

وأما قوله تعالى : (وأخذنا منكم ميثاقاً غليظاً (١)) فقال المفسرون « عقداً مؤكداً ، وهى كلمة الله التى أخذها للنساء على الرجال ، وهى الإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان ، قال قتادة : « وكان ذلك يؤخذ عند عقدة النكاح » نعم : إن شرط فى العقد أن لا يفسخ أحد من الزوجين بعيب ظهر بصاحبه . فإن قلنا : لا فسخ بالعيب الحادث ، كان هذا الشرط مؤكداً للحكم . وإن قلنا يثبت به الفسخ احتمل أن يلزمهما بموجب الشرط لقوله عليه السلام « المسلمون على شروطهم » واحتمل أن يبطل النكاح من أصله ، بناء على الشرط الفاسد فى العقود . وأحكام الأنكحة الفاسدة معلومة .

ثم ماذكره ينتقض بالتلاميذ مع المسيح ، حيث آمنوا به وبايعوه على دينه ثم لما قبض اليهود عليه فروا عنه ، خصوصاً بطرس التلميذ الكبير الذى قال له « لو أنكرك كل واحد لما أنكرتك (٢) » ثم أنكره قبل صياح الديك ثلاث مرات (٣) . فهذا هو ترك العهد ، لا طلاق الزوجة وفراق الزوج بإذن الشارع

---

(١) النساء ٢١ (٢) مرقس ١٤ : ٢٩ - ٣٠ (٣) مرقس ١٤ : ٧١

الذى هو إله المسيح ومحمد والزوجين وغيرهما من العالم .

فإن منعوا أن ذلك بإذن الله ، عدنا إلى النزاع فى تصديق الرسول ، وخرجنا عن مسئلة إنكار الطلاق ،

• • •

قال : « ثم إن جاز أن تترك المرأة بلا سبب أو بسبب ضعيف ، كما فى ملة المسلمين (١) أفضى ذلك بسبب الهجر والغضب إلى تبديل الزوجات الكثيرة وتنجيسهن واحدة بعد أخرى وافتضاض الأبكار وتركهن . وذلك يورث البغض بين النساء وأزواجهن وأقربائهن ، وذلك خلاف الدين الطبيعى والصيانه والمروءة » .

قلت : أما إفضاء ذلك إلى تبديل النساء فلا محذور فيه ، بناء على ما ذكرنا من أن النكاح عقد ، والمرأة معقود عليه ، كالفرس والشاة ، لا فرق بينهما ، إلا أن هذه من الجنس بخلاف الفرس .

وأما تنجيسهن فالجماع لا نجاسة فيه ، وإنما هذه لفظة استفادتها النصارى من قول « يعقوب » لإبنه « رأوبين » : « وطئت سريتى ونجست فراشى (٢) » وهذه حكاية باطلة ، ثم لو صحت لكان التنجيس هنا مجازاً عن انتهاك حرمة فراشه وإلحاق العار به بذلك ، والعلاقة المجوزة فيه تأذى الإنسان بلحوق العار ، كما يتأذى بلحوق النجاسة ، وإن تفاوتت الأديان ، أو يكون أراد نجاسة الفعل ، يعنى قبحه ، لاشتراك النجاسة والفعل القبيح فى القبح .

---

(١) وفى ملة اليهود عن قوم : « لأى سبب (أنظر كتاب حياة المسيح لفردريك و . فارار)

(٢) تكوين ٤٩ : ٤

وأما افتضاض الأبكار وتركهن فتلك متعة أمتع الله بها خلقه ، فالمانع منها متحجر فضولى . والدليل على ذلك صريح العقل ، فإن الخلق كلهم ذكرهم وأنثاهم عباد الله وإماؤه ، فإذا سمح لعبيده بوطء إمائه على وجه مخصوص جاز ، كما أن الواحد من الخلق يجوز أن يهب لعبده ألف جارية له ، ويقول افعل بهن ما شئت ، فإنه يجوز أن يتصرف فيهن بسائر التصرفات من بيع وعتق ووطء للبعض دون البعض أو للكل .

والانتقال من واحدة إلى واحدة وغير ذلك ، فإن نازعتمونا فى أن الله — سبحانه — أذن لنا فى ذلك خرجنا عن المسئلة كما سبق .

وأما قوله : « ذلك يورث البغض بين النساء وأزواجهن» فممنوع وبيانه: هو أن الشرائع قوانين متبعة لا يخرج عنها من هو من أهلها ، فإذا علم الناس من شرعهم جواز التزوج والطلاق وافتضاض الأبكار وتركهن ، وجب عليهم أن لا يتباغضوا لذلك ولا يتحاقدوا ، كما يجب عليهم أن لا يتباغضوا لتأدية الحقوق المالية كالديون ونحوها ، وإن كان أداؤها على خلاف الطبع .

وما فائدة الشرع إلا انفكاك الطباع عن الشر الذى جبلت عليه — وهذا منه — فإن غلبتهم النفوس على البغضاء والحقد بالطبع كان ذلك مراغمة للشرع فيعصى فاعله ولا يكون بفعله اعتبار ، كما أنه لما حرم أخذ المال بغير حق ، كان فعل قطاع الطريق ونحوهم إثماً عليهم يستحقون به العقوبة ، وهو ساقط الاعتبار ، ولا يفيد ملكا ولا يجيز تصرفاً ، وتصرفات الطباع لا يلزم موافقتها للشرائع فما وافق الشرع منها ، كان حقاً كالنكاح ، وما خالفه كان باطلا ، كالسفاح ، ثم هذا معارض بأن الطلاق إن كان يفضى إلى التباغض فلزوم النكاح أبداً ، والحبس على زوجة واحدة يفضى إلى تكره كل منهما بالآخر وتبرمه به ، وتضجره منه ، وقل أن يطيب مع ذلك عيش لبهيمتين ، فضلا عن إنسانين

فتدوم المفسدة ، وربما اتفق لذلك مقصود النكاح ، وربما أفضى إلى مفارقة الدين .

كما حكى أن بعض النصارى تزوج امرأة فلما دخلت عليه رآها عوراء . فقال : عورتنا ، قالت : بكشتنا . قال : «محمد بن عبد الله » على الباب ، ثم خرج فأسلم .

لحجز الدين ما بينهما ، فلو كان فى دين النصارى فسحة فى الطلاق لقال عوض كلمة الإسلام : أنت طالق ، ثم استراح منها ، ولم يحتج إلى فراق دين يعتقدونه حقاً إلى دين يعتقدونه باطلا . مع أن فراق كل من فى الدنيا أهون من فراق الدين .

فإن قلت : نحن مع قولنا بلزوم النكاح أبدا ، وارتباط الرجل على زوجته يوجب على كل منهما احتمال صاحبه وعشرته بالمعروف ، وأن لا تتبرم به ، ولا تتضجر منه ، فإن خالف ذلك كان فعله خلاف للشرع ، وهو غير معتبر . قلنا : فقل فى الطرف الآخر هكذا ، وهو أنا إذا اخترنا الطلاق والفراق أوجبنا على الرجال والنساء أن لا يتغضبوا ، ولا يحقد بعضهم على بعض فإن خالفوا ذلك كان فعلهم على خلاف الشرع ، وهو غير معتبر .

ثم يترجح ما قلناه بوجهين :

أحدهما : أنه إذا لم يكن بد من البغضة الطبيعية ، فتباغض الزوجين بعد أن يصيرا أجنبيين أسهل من تباغضهما فى عصمة النكاح مجتمعين لإفضاء ذلك إلى تكدر عيشهما باجتماعهما ، وربما غلبت المرأة لوفور شهوتها ، وقلة دينها وعقلها على أن تقتل زوجها بسم أو غيره لتستريح منه وتصير إلى غيره ، وكم قد وقع مثل هذا ، وذلك مأمون بعد الفراق .

الثانى : أن الفرقة عذاب ، والعذاب مؤدب . فإذا افترقا ربما استقام أحدهما الآخر ، فعادا بعد نكاح جديد أو قبله بخلاف ما إذا داما مجتمعين ، فإنه لا يرجى لهما استقامة ، بل كلما جاء فى سآمة وملال وتضجر وتبرم . والله أعلم .

* * *

قال : « وأيضا ما أشد ما يكون ظلم النساء بوقوع الطلاق عليهن بلا ذنب »

قلت : هذه غفلة عن الصواب . فإن الطلاق فسخ عقد معاملة لا إيقاع معاقبة ، وإنما يكون ظلما إيقاع العقوبة بلا ذنب ، ولو كان الطلاق عقوبة لوجب أنها إذا زنت ونجست فراشه تكون استدامة نكاحها أفضل فى حقه ، للإجماع من عقلاء العالم ، على أن الحلم عن الذنب أفضل من العقوبة عليه ، وهذا لا يقول به عاقل. اللهم إلا أن تكون رياضة النفوس قد بلغت بالنصارى إلى رتبة القيادة ، والصبر على الدياثة . فقد قال بعض الحكماء : إن أربعا من الأمم أكثر من اكل أربع ، فأورثتهم أربعا . فالترك أكثروا من لحم الخيل فأورثهم القوة والقسوة ، والعرب أكثروا من لحم الإبل فأورثهم الحقد والكرم ، والحبشة أكثروا من لحم القردة فأورثهم الرقص ، والنصارى أكثروا من لحم الخنزير فأورثهم الدياثة وعدم الغيرة .

ونقل القرطبى فى تفسيره عن محمد بن سيرين أنه قال : « ليس شىء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار » .

فلعل النصارى ورثوا من أكل لحم الخنزير اللواط بصبيانهم ، حتى اكتفوا بالواحدة من نسائهم ، وعدم الغيرة حتى صبروا معهن على القيادة .

* * *

قال : « وأيضا فإن هذا يفضى إلى انقطاع النسل الذى هو أعظم خير فى الزواج إذ يجوز لكل واحد منهم فى اليوم أن يتزوج أربعا ويطلقهن ، ويأخذ أربعا غيرهن كذلك فى جميع زمانه ، وهذه ليست سنة العقلاء والأعفاء ، بل سنة الفجار والعواهر ، بل سنة الكلاب والحمير » .

قلت : هذا جهل منه بحكم دين الإسلام . فإن الرجل لو تزوج أربعا وطلقهن فى يوم واحد جاز ذلك له ، والنسب محفوظ بوجوب العدة إذ فيه يتبين الحمل فيلحق بأبيه ، وإن لم يكن حمل فلا محذور ، وحينئذ يكون فرجه هو ، فرج الكلاب والحمير ، لا سنة المسلمين .

• • •

قال : « وأيضا . ما أقبح وأبشع بوقت رجوع المرأة بعد طلاقها إلى زوجها على نكاح زوج غيره[1] إذ تأبى ذلك نفس الرجل والمرأة ، وذلك خلاف الطبيعة بالنسبة إلى الناس إلى كثير من الدواب والطيور كالأسد والدب فإن كل واحد من أشخاص هذه الأنواع لا يتعدى إلى أنثى الآخر » .

---

(١) هذا الحكم أخف من نظيره فى التوراة . ونص التوراة « إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها . فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شىء وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته ، ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر . فإن أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته ، أو إذا مات الرجل الأخير الذى اتخذها له زوجة ؛ لا يقدر زوجها الأول الذى طلقها أن يعود يأخذها ، لتصير له زوجة بعد أن تنجست ، لأن ذلك رجس لدى الرب [تثنية ٢٤ : ١ — ٤] يعنى أنها بعد الطلاق من الآخر أو موته لا تحل لزوجها الأول .

قلت : لو عقل هذا العلج لـكفاه هذا الحكم فى الدلالة على حكمة شريعة الإسلام وصحتها ولـكن

لقد أسمعت ، لو ناديت حيا ولـكن لا حياة لمن تنادى

وبيان ذلك : أن الشارع لما علم من طبيعة البشر كراهة ذلك ، والنفور منه جعله شرطا فى جواز ارتجاع الرجل زوجته ، ليـكون ذلك مانعا له من المبادرة بطلاقها ، وحاملا لـكل من الزوجين على عشرة الآخر بالمعروف ، واحتمال بوادره ، وسوء أخلاقه . فـكان اشتراط نـكاح المرأة زوجا غير مطلقها ، مفضيا إلى نفيه وتقليله جدا ، حتى أن هذا إنما يقع فى النادر بالنسبة إلى كثرة الأنـكحة والطلاق ونظيره القتل بالقصاص ناف للقتل بالعدوان ، ومقلل له ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة »(1) ويقول العرب : « القتل أنفى للقتل » وبقول الشاعر :

بسفك الدما ، ياجارتى تحقن الدما وبالقتل تنجو كل نفس من القتل

وأما الأسد والدب ونحوهما فليسوا مكلفين ، حتى يشرع فى حقهم ما يمنعهم من المبادرة إلى الطلاق ، وإنما كان ذلك فيهم طبيعة .

* * *

قال : « وفى كتاب المناسك من مسلم . قال : سئل ابن عباس عن متعة الحج فرخص فيها ، وفى كتاب النكاح منه عن أبى الزبير عن جابر ، قال : كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق ؛ الأيام ، على عهد رسول الله ، وذكر

(1) البقرة ١٧٩

حديث الربيع بن سبرة الجهني ، وحديث عمران بن حصين قال : أنزلت آية المتعة فى كتاب الله ، ففعلناها مع رسول الله ولم ينزل قرآن يحرمها ولم ينه عنها حتى مات . قال : « فهل فاحشة أو نجاسة أقذر من هذا الفعل فى الكلاب ؟ دع الإنسان يعطى المرأة ما ترضى به فيزنى بها . هذا منزع الزنا لا غير . هذا أمر الشيطان لا أمر الله . وهذا هو المتعة . والعقلاء من المسلمين يستنكفون من ذلك ، وكثير من أهل الحجاز ومكة باقون عليها إلى الآن »

قلت : هذا غلط منه على الشريعة حيث جعل المتعتين واحدة .

وإنما المتعة فى حديث ابن عباس : هى نسك من أنساك الحج ، وهو قرينة الإفراد والقران . وصورتها أن يعتمر أولا ثم يحل ثم يحرم بالحج .

وأما المتعة فى الأحاديث الأخر ، فلا شك أنها ثبتت فى أول الإسلام لضرورة ، وهو غربتهم عن أوطانهم فى الجهاد وحاجتهم إلى النساء ، فرخص لهم فيها بشبهة عقد وصورته فكان ذلك خيراً مما يفعلونه زنا محضاً . ثم نسخ ذلك فى عهد النبوة ، وليس عليه اليوم من المسلمين إلا شرذمة قليلة ، وأكثر من تقول به الرافضة (١) .

---

(١) من أراد أن يعتمر ويحج معاً ، فعند الشيعة ـ والمؤلف يسميهم الرافضة ويقال عنه : إنه كان منهم ـ تسمى عمرة التمتع وحج التمتع . وعمرة التمتع أجزاؤها خمسة وهى : الإحرام ، والطواف حول الكعبة ، وصلاة ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام ، والسعى بين الصفا والمروة ، والتقصير . وحج التمتع أجزاؤه ثلاثة عشر وهى : الإحرام والوقوف بعرفات والوقوف بالمشعر ورمى جمرة العقبة بالحصى فى منى وذبح الهدى فى منى وحلق الرأس أو التقصير فى منى ، والطواف حول الكعبة للزيارة . وصلاة الطواف ركعتان ، والسعى بين الصفا والمروة ، وطواف النساء ، وصلاة طواف النساء ، ركعتان ، والمبيت فى منى ليلة الحادى عشر وليلة الثانى عشر =

وأما حديث عمران بن حصين : « ولم ينه عنها حتى مات » فلأنه لم يبلغه النهى عنها وقد بلغ غيره فنقله . على أن القياس شرعاً وعقلا : جواز المتعة . وإنما منع الشرع منها تعبداً . أما شرعاً فلأن الله إنما حرم الزنا .

= وقد يجب المبيت ليلة الثالث عشر أيضاً ، ورمى الجمرات الثلاث يوم الحادى عشر ويوم الثانى عشر ويوم الثالث عشر بالنسبة إلى من بات ليلته .

وأما نكاح المتعة عند الشيعة فإنه يسمى النكاح المنقطع ويقولون : « النكاح المنقطع كالنكاح الدائم ، فى الاحتياج إلى الإيجاب والقبول مع سائر الخصوصيات ويشترط فيه ذكر المدة والمهر ، وينقضى هذا العقد بانقضاء المدة وبهبة المدة قبل انقضائها ولا يقع بها طلاق ولا تستحق المرأة بها قسمة ولا نفقة ، ولا توارث بين الزوجين فيها ، ولا تحسب من الأربعة »

ونقول نحن المسلمين السنيين : إن نكاح المتعة باطل ، لأن الآثار المروية فى شأنه هل كان ثم نسخ ؟ وهل نسخ قبل وفاة النبى ﷺ أم فى عهد عمر رضى الله عنه ؟ هــــذه الآثار مردودة على قائليها لاضطراب معانيها واختلاف أسانيدها . وأيضاً لمعارضتها للقرآن الكريم . فى القرآن الكريم : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها) والسكن غير ثابت فى النكاح المنقطع ، بل الشهوة لأنها الغرض الأساسى للنكاح ، ولأن الله تعالى وصى بالزواج من الحرائر ، وفى حالة الضرورة أباح الأمة ، فلو كانت المتعة جائزة فى الحرائر لنص عليها فى حالة الضرورة بدل الأمة .

وللعلماء أدلة كثيرة على تحريمها من الممكن معرفتها من تفسير القرطبى رحمه الله : والحق معهم فى التحريم ، لأن التوراة أيضاً التى كانت شرع من قبلنا والتى كانت نوراً وهدى للناس أحقاباً من الزمن لم تنص على إباحتها .

والمتعة ليست زنا، لأن الحد فيها ساقط[1] والنسب لاحق ، والزنا ليس كذلك وأما عقلا فلأنها منفعة من منافعها ، فجاز معارضتها عليها مطلقاً كالخدمة ، بل الزنا ليس قبيحاً عقلا إذ ليس فيه إلا انتفاع كل من بشرين بآخر وإنما قبح شرعاً ، ثم تلقت العقول قبحه من الشرع ونفرة الطبع .

وأما تشنيعه بالمتعة فقد بينا في غير موضع أن في التوراة أن يهوذا بن يعقوب لقي كنته زوجة إبنه على الطريق في غير صورة زانية فوطئها على أن يعطيها جدياً من الغنم ثم رهنها عليه عمامته وقضيبا معه . وهذه صورة المتعة بل صورة الزنا . والجواب مشترك .

وأيضاً المتعة أحسن حالا من وطء رأوبين بن يعقوب ، جارية أبيه ، لأنه زنا محض .

• • •

قال : « وفي كتاب العتق من البخاري عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « إن الله تجاوز لأمتي ، عما وسوست به صدورها ، ما لم تعمل به أو تكلم » » .

قلت : لا أعلم ما وجه إيراده لهذا الحديث ، إلا أن يكون إنكاراً

---

(١) يقول القرطبي : « وقد اختلف علماؤنا في نكاح المتعة ، هل يحد ، ولا يلحق به الولد أو يدفع الحد الشبهة ويلحق به الولد ؟ على قولين ، ولكن يعذر ويعاقب » ربما كان يصح للعلماء في نظرنا أن يختلفوا ، لأن واحداً منهم لا يرضى بالمتعة لإبنته أو لأخته أو قريبته والشرع يوافق الفطر السليمة ولا يخالفها ، وإنما يتوجب عليهم اعتبار المتعة زنا بلا جدال .

لوسوسة الشياطين أو العفو عنها ، بناء على أنه لم يذكر فى كتبهم . فأما الشياطين ووسواسهم فثابتان . وأما عدم ذكر ذلك فى كتبهم [1] فاحتجاج بالعدم . وقد سبق فى غير موضع : أنه اعتماد على الجهل .

. . .

وذكر أحاديث العزل عن النساء .

قال : « وهو أن يجامع الرجل ثم يعزل ذكره عن فرجها ، فيلقى المنى خارجاً » قال : « وهو قبيح رذل عار على فاعله »

قلت : المأخذ فى مشروعية النكاح فى دين الإســـلام هو تحصين الدين والفرج والعفاف عن الزنا ، وذلك حاصل مع العزل وعدمه ، وعندهم مأخذه تحصيل الذرية ، فالعلم لذلك ممنوع ، ولا شك أن هذه المسئلة من فروع الشريعة ، وفيها خلاف . فقيل يجوز مطلقاً ، وقيل لا يجوز مطلقاً . وقيل يجوز بإذن الزوجة وإذن سيد الأمة ، ومسئلة فيها هذا الخلاف فى الحكم والدليل ، لا ترد هادمة لشريعة .

ثم إذا حاققناهم فإما أن نمنع قبح العزل وتحريمه ونطالبهم بالدليل على ذلك فلا يستطيعونه ، وليس فيه إلا وهم الاحتشام الطبيعى . ولو كان ذلك موجباً للعار ، لوجب أن يكون نفس الجماع عاراً ، وقد بينا بطلانه ، وإما أن نسلم تحريمه ونحتج عليه بما روى أبو سعيد قال : « ذكر العزل عند رسول الله ﷺ فقال : « لم يفعل أحدكم ؟ فإنها ليست نفس مخلوقة إلا الله خالقها » .

---

(١) الشياطين لها ذكر عند أهل الكتاب . أنظر الإصحاح الرابع من انجيل متى واقرأ سفر الرؤيا .

أخرجاه فى الصحيحين ، ورواه أبو داود والنسائى والترمذى وصححه . فقوله : « لم يفعل ؟ » استفهام إنكار ، وذلك يوجب المنع ، ولأن فيه فراراً من القدر وهو حرام ، ونوع عبث إذ لا فائدة له إذا كان لامانع لما أراد الله خلقه ، ثم يجعل هذا ناسخا لأحاديث إباحته[1] ، فلا يمكنهم النزاع فى ذلك . والله أعلم .

* * *

قال : « وفى سورة النساء : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم » إلى قوله « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما » وذكر ما قاله المفسرون فى الأذى : إنه التعيير والتوبيخ ، أو السب والجفاء والنيل باللسان واليد ، والضرب بالنعال ، ونحوه . قال : « وفى هذا تكثير للزنا لطمع الزانيين بتعذر اجتماع أربعة شهود غالبا ، حتى يقضيا وطرهما ، ولضعف هذه العقوبة إذ لا يؤخر مثلها عن هذا الفعل وشرعية الزنا وقوعه فى الخلق أمر مغضب للرب ، وموجب حلول نقمته وسخطه فينبغى أن يحسم تشديد العقاب ، حتى لا تقع إلا نادراً » .

قلت : قد تبين بهذا السؤال أن هذا الشخص قد كان يأخذ ما يورده على الشريعة من كتب التفسير والحديث من غير أن ينظر فى كتب الفقهاء ، إذ لو نظر فيها لعرف أحكام الشرع ، ولم يورد هذا الزور والمحال ، ولعمرى أن الكتاب والسنة ، وإن كانا أصل الشريعة ومادتها لكن اقتناص الأحكام منها

---

(١) هذا من باب تناقض الأحاديث لا من باب النسخ فإننا لا نجيز ولا نقر لنسخ قرآن لقرآن ، ولا سنة لسنة ، وأحاديث العزل هذه المثبتة والمنفية لا أساس لها . فالعرب يحبون التناسل بكثرة البنين يتفاخرون بها ، ولا يتشاءمون من الحياة ولا ييأسون من روح الله (راجع كتابنا : لا نسخ فى القرآن — نشر دار الفكر العربى بمصر) .

يحتاج إلى تصرف فى التركيب ، كما أن مفردات الدواء مادته ، ولابد فى الانتفاع بها من تصرف فى التركيب ، وكذلك مقدمات الدليل مادته ولا ينتفع بها فى إثبات الحكم إلا بمعرفة تركيب الدليل منها ، وكذا الكلام فى مفردات كل مركب . وإذا عرفت هذا فحكم دين الإسلام فى الزانى إن كان محصنا الرجم حتى يموت[1] ، وهل يجلد قبله مائة جلدة ؟ على قولين . وإن كان بكراً جلد

---

(١) أنكر الخوارج الرجم — والحق معهم — وأثبتوا الجلد فقط بدليل :

١ - « الزانية والزانى فاجلدوا » وهى مثل « والسارق والسارقة فاقطعوا » ولا فرق . أى أن « الألف واللام » للعموم .

٢ - « فإذا أحصن ، فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » أى أن حد « الأمة » نصف حد « الحرة » والجلد يقبل التنصيف فإذن هو الحد الشرعى لا الرجم .

٣ - « واللاتى يأتين بفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت ، حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا . . . الخ » (النساء ١٥-١٦) والإمساك فى البيوت لا ون مد إقامة حد . والرجم لا يصح لأن من بعد الرجم القبور لا البيوت . و الحد المراد هو الجلد لا الرجم . وكذلك « فآذوهما » يكون الإيذاء بالجلد . بعده « فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما » وليس بعد الرجم توبة ولا إصلاح ولا إعراض ولا يصح القول بنسخ الآيتين هاتين بحديث . لأن الحديث - فى نظر الراسخين فى العلم - لا ينسخ القرآن .

٤ - حديث البخارى فى هذا الباب مشكوك فيه من قبل البخارى نفسه . فإنه يقول « لكننا لا ندرى أرجم قبل نزول آية النور أم بعدها » فإذا كان الرجم للعهر والغامدية قبل نزول آية الجلد . فالآية نسخت حكما كان من اجتهاد الرسول نفسه ﷺ — كنسخ اجتهاده فى أسارى بدر كما يقولون — وإن كان الرجم بعد نزول آية الجلد —

مائة جلدة وتغريب عام إلى مســـافة القصر لأن قوله تعالى : فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ،أو يجعل الله لهن سبيلا، السبيل هاهنا : بجمل تبينه السنة فيما روى عبادة بن الصامت قال : « قال رسول الله ﷺ : « خذوا عنى . فقد جعل الله لهن سبيلا » الثيب بالثيب جلد مائة ثم الرجم ، والبكر بالبكر جلد مائة ، ونفى سنة ، رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة والترمذى ، وقال : حسن صحيح . وفيه أحاديث غير هذا .

وبهذا يتبين : أن ماذكر فى تفسير الأذى ضعيف لا يثبت ، أو منسوخ بهذا الحديث ، أو محمول على البكر ، أو على أنه يفعل بالزانيين ولا يقتصر لهما عليه ، بل يقام عليهما من الحد ما أتت به السنة فى بيان السبيل .

وأما قوله : فى اعتبار الأربعة تكثير الزنا للطمع فى تعذرهم . فجوابه : أنا قد بينا أن بناء شرعنا على مراعاة المصالح والمفاسد ، وترجيح بعضها على بعض . ولا شك أن اعتبار الأربعة فى الزنا ، وإن كان مفضيا الى تكثيره كما ذكرت لكن الزنا يتبعه مفاسد عظيمة .

= فكيف يعقل هذا والرسول مفسر وموضح القرآن وليس الرجم موضحا للجلد، بل زائد عليه ، بل لاغ له ؟ .

٥ - أن الرجم إزهاق روح وهو حكم قاس . فلو كان مشروعا لكان أولى بالذكر من حد القذف الذى هو ثمانون جلدة (النور ٤) وأما التغريب بسنة فلا أعرف أنا فيه دليلا صحيحاً . والشهود الأربعة فى القرآن أحوط من حكم التوراة فإنها تنص : « على فم شاهدين ، أو على فم ثلاث شهود يقوم الأمر » (تثنية ١٩ : ١٥) .

منها : ضياع النسب . ومنها : لحوق العار بالزانيين وأهلهما .

ومنها : وجوب القتل عليهما والجلد الذى يفضى إلى القتل. ومنها : سلب العدالة فيترتب عليه رد الشهادة وسلب أهليـة الولايات الدينية والدنيوية . وهـذه المفاسد كلها راجعة إلى حقوق الآدميين ، فكان فى تقليل ثبوت الزنا بتكثير الشهود ، تقليل لهذه المفاسد فى الحكم .

وأما معصيـة الزنا الواقع فى نفس الأمر ، فالعقوبة عليها حق الله ، والدنيا ليست دار جزاء ، إنما هى دار تكليف ، فيتأخر حق الله إلى حين المصير إليه ، فيعاقب أو يعفو . ولهذا غالب المعاصى لم يشرع فيها عقوبة فى الدنيا إلا فيما كان فيه إفساد لنظام العالم فتشرع فيه العقوبة لذلك ، وأخر حقوقه فى سائر المعاصى إلى الدار الآخرة ، دار الجزاء . ولهذا لا يوجد فى كلام المسيح ترتيب عقوبة دنيوية على شىء من المعاصى ، بل إنما يتوعد بجهنم وبالظلمة وصرير الأسنان على ما تضمنه الإنجيل .

وما تضمنه دين النصارى من العقوبات الدنيوية فهو إما متناول من التوراة أو من جهة علمائهم على جهة السياسة ، بناء على قول المسيح: وما حللتموه فى الأرض فهو محلول فى السماء ، وما ربطتموه فى الأرض فهو مربوط فى السماء ، (١) .

---

(١) هذا من كلام المسيح لبطرس (شمعون الصفا) ونصه : « وأنا أقول لك أيضاً : أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها . وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات . فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات . وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات » (متى ١٦ : ١٨ - ١٩) وبعده قال المسيح لبطرس : « اذهب عنى يا شيطان . أنت معثرة لى لأنك لا تهتم بما لله ، لكن بما للناس » (متى ١٦ : ٢٣)

مع أن دين الإسلام مبنى على إيثار الستر والإغضاء ومكارم الأخلاق ، لطفاً من الله بخلقه ، ولولا ما فى المعاصى ذوات الحدود من المفاسد الدنيوية ، لما شرع فيها حد .

والجواب عن هذا السؤال ذكرته مبسوطاً فى القواعد الدمشقية ، وإنما أشرت إليه هنا إشارة .

* * *

قال : « وفى الموطأ عن زيد بن أسلم أن رجلا سأل رسول الله فقال : ما يحل لى من امرأتى وهى حائض ؟ فقال رسول الله : لتشد إزارها ، ثم شأنك بأعلاها » .

قلت : كأنه يستعظم مقارنة الحائض .

قلت : وهذا لا محذور فيه ، لأنا أجمعنا على جواز وطء المرأة إذا كانت طاهراً . والحيض إنما اختص بالفرج . وقضية العقل : أن المانع يختص تأثيره بمحله ، بما لم يقم دليل على تعدى حكمه . وذلك يقتضى اختصاص الفرج فقط بالاجتناب فى زمن الحيض ، وبقية البدن يجوز الاستمتاع به . وكذلك نص القرآن : « ويسئلونك عن المحيض ؟ قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض »[1] ، يعنى موضع الحيض ، وهو الفرج .

وفى حديث صحيح : « اصنعوا كل شىء ما خلا النكاح » . وفى حديث عمر « اتق الحيضة والدبر » اللهم إلا أن تنكر هذا ، لكون غير الفرج ليس محلا لزرع الولد فيضيع الماء ويصير بمثابة العزل ، بناء على أن مقصود النكاح الأصلى إنما هو الولد ، لكن هذا شىء قد منعناه ، وسبق الجواب عنه .

---

(١) البقرة ٢٢٢ .

قال : « وفى كتاب الرجم من مسلم : أن سعد بن عبادة قال لرسول الله : أرأيت لو أنى وجدت مع امرأتى رجلا . أمهله حتى آتى بأربعة شهداء ؟ قال له رسول الله : « نعم » .

قلت : وقد قدم هو وجه السؤال من هذا ، وهو تكثير الزنا ، وقدمنا جوابه .

قال : وفى حديث أبى موسى حيث جاء يستحمله فقال : « والله لا أحملكم[1] » ثم حملهم . فسألوه فقال : « ما أنا حملتكم ، بل الله حملكم ، وإنى إن شاء الله ـ لا أحلف على يمين فأرى غيرها أحسن منها إلا كفرت عن يمينى وأتيت الذى هو خير » .

قلت : وجه سؤاله من هذا : أن الحنث فى اليمين استخفاف بحق الله ، وتهوين بعظمته ، بناء على ما تقدم فى الإنجيل عن المسيح أنه قال : « سمعتم ما قيل للأولين : لا تحنث فى يمينك ، وأوف للرب أقسامك وأنا أقول لكم : لا تحلفوا البتة لا بالسماء فإنها كرسى الله ، ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه

---

(١) آية التوبة ٩٢ : (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ، قلت : لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون) هذه الآية الكريمة ليس فيها أنه حلف ولا رجع فى الحلف . وطعن النصرانى هو فى حديث مروى فى سبب نزولها ـ من الجائز أن يكون من وضع آبائه وأجداده ـ وليس على سبب النزول اتفاق حتى يصح طعنه جدلا . فقيل نزلت فى عرباض بن سارية ، وقيل نزلت فى عائذ بن عمرو ، وقيل فى بنى مقرن ، وكانوا سبعة إخوة ، وقيل فى سبعة نفر من بطون شتى ، وقيل فى أبى موسى وأصحابه — وهذا القول هو الذى طعن به النصرانى .

ولا بيروشليم؛ فإنها مدينة الملك العظيم ، ولا برأسك تحلف لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة بيضاء أو سوداء . ولتكن كلمتكم : نعم نعم . ولا لا . وما زاد على ذلك فهو من الشرير » (١) .

والجواب : إن دين الإسلام مبنى على رفع الحرج والضيق بناء على أن الغرض من تكليف الخلق تعظيم الله والانقياد له ، لا لحوف المشقة لهم بذلك فمتى أمكن أجمع بين تعظيمه تعالى ورفع الحرج عن المكلفين كان ذلك حسناً جائزاً وتعظيم الله سبحانه فى باب الأيمان يحصل إما بالتزام العقد معه بأن لا يحنث فيها ، مثل أن يحلف أن يفعل فيفعل أو لا يفعل فلا يفعل ، أو بالتكفير إن خالف ما عليه ، لأن فى التزام التكفير تجرد من المال المحبوب طبعاً ، أو بالتعبد بإلحاق المشقة بالصوم للبدن تعظيما لله سبحانه ولا بد ، وقد نص عليه القرآن ، ولعل التعظيم بذلك أشد من التعظيم بالتزام ما حلف عليه ، إذ قد يحلف أن لا يأكل هذه اللقمة فتركها عليه يسير غالباً ، فإذا أكلها لمصلحة دينية وأعتق عوض ذلك رقبة أو أطعم أو كسى عشرة مساكين أو صام ثلاثة أيام متتابعة كان ذلك لا شك أبلغ فى تعظيم الله جل جلاله ، وتبارك اسمه .

وأما ما ذكروه عن المسيح من قوله : « لا تحلفوا بالسماء فإنها كرسى الله » فكلام متهافت لا تليق نسبته إلى المسيح . وبيان تهافته : أنه فاسد الاعتبار ، إذ النهى عن الحلف بالسماء يقتضى عدم تعظيمها ، وكونها كرسى الله يقتضى تعظيمها وجواز الحلف بها ، ثم إن هذا الكلام فى الفصل الخامس من إنجيل متى ، وهو مناقض لما فى الفصل الثالث والعشرين منه حيث يقول « من حلف بالسماء فهو يحلف بكرسى الله والجالس عليه (٢) » فإنه يقتضى صحة الحلف بالسماء وجوازه ، وأن الحالف بها حالف بالله — سبحانه —

فانظر أيها العاقل إلى هؤلاء الذين يقدحون فى دين الإسلام بهذا الكلام المتناقض المتهافت .

---

(١) متى ٥ : ٣٣ : ٣٧ (٢) متى : ٢٣ : ٢١

وذكر حديث قتل كعب بن الأشرف ، وأن محمدا بن مسلمة خدعه حتى استمكن منه فقتله ، وذلك بإذن النبي ـ عليه السلام ـ

قلت : ووجه السؤال منه : أنهم خدعوه بإذن محمد حتى أمن وسلم نفسه إليهم ثم قتلوه وهذا غدر .

قلت : وجوابه من وجهين :

أحدهما : أن هذا من باب الخديعة في الحرب ، وهو جائز في دين الإسلام وقد قال النبي ـ عليه السلام ـ : « الحرب خدعة » وغاية ما في الباب : أنه كذب . لكن الكذب ليس قبيحا لذاته عندنا بل لما فيه من المفسدة . فإذا تضمن مصلحة راجحة على مفسدته تعينت . وكان من قبيل اعتبار المصالح ، ولا شك أن قتل كعب بن الأشرف تضمن مصلحة دينية وهو أنه كان يهجو النبي ـ عليه السلام ـ والمسلمين ويقذف نساءهم في شعره ، ويأخذ أعراضهم ، وهو يهودي ملعون من أعداء المسيح وقتلته ـ على زعمك ـ وبعض هذا يوجب قتله وقتل كل يهودي على وجه الأرض .

وأجمع العقلاء على أن الكذب واجب على من رأى ظالما يتبع نبيا أو وليا أو مظلوما بالجملة ليقتله . إذا سأله فليصده عنه بالكذب ، ولو صدق حتى قتل ذلك المظلوم لاتسم بالصدق .

قال العلماء : الكذب : واجب ، ومندوب ، ومباح ، وحرام .

فالواجب : كالصورة المذكورة آنفا . والمندوب : الكذب للإصلاح بين المؤمنين . وفي الحديث الصحيح : « ليس بالكاذب من أصلح بين اثنين فقال خيراً ، أو نمى خيرا » والمباح : كذب الرجل لامرأته في الوعد والتأميل

ليكف شرها عنه أو لا تكدر عليه. والحرام : ما سوى ذلك وهو كل كذب يتضمن مصلحة راجحة على مفسدة.

وقد صرحت التوراة بأن إبراهيم وإسحق جميعا قال كل منهما عن زوجه : إنها أخته حين خشي عليها من « أبيمالك » ملك الأردن وفلسطين[1] ولما تضمن ذلك مصلحة لم يقبح منهما. فهذا مثله سواء لأن محمداً وأصحابه كانوا مظلومين مع « كعب » في هجائه لهم وقذفه لنسائهم ، كما كان إبراهيم مظلوما بتغلب « أبيمالك » ملك « الأردن » على زوجته ، لولا عصمة الله لها منه.

الوجه الثاني : أن عظيم قرية « شكيم » واسمه « شكيم » لما فضح بنت يعقوب وأراد أن يتزوجها صعب على بني يعقوب ذلك. فقالوا له : إن من ديننا الختان ، فإن اختتنت أنت وأهل قريتك زوجناك. فلما اختتنوا جميعا دخلوا عليهم ، وهم في ألم الختان لا يستطيعون الدفع عن أنفسهم فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم ، وهذا غدر صريح ، والجواب عنه مشترك لأن الجميع أنبياء ، وقد نصت التوراة على هذه الحكاية[2].

* * *

وذكر حديث : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي. نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهورا ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة ».

---

(١) أنظر التكوين ٢٠ : ٢ و ٢٦ : ٧

(٢) في الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين.

قلت : لا أعلم ماوجه السؤال من هذا[1] ، إلا أن يكون يكذب بالإخبار بهذه الأشياء بناء على عدم علمه بها ، أو على مناقضة معرفة فى كتبهم ، ولو ذكر وجه سؤاله منه لأجبته بحسبه .

• • •

وذكر قوله عليه السلام : « إن الله يحب العطاس ، ويكره التثاؤب » إلخ

---

(١) وجه السؤال من هذا : أن الخمسة كانوا لموسى عليه السلام ، وهو نبى من قبل محمد ﷺ بألفين ومائة واثنين وأربعين سنة على حساب النصارى . ذلك لأن موسى كان قبل الميلاد بألف وخمسمائة وواحد وسبعين سنة .

وقد صرحت التوراة بأن الخمسة لموسى عليه السلام ، وليس فى القرآن مانع من أن الخمسة كانوا لموسى عليه السلام إلا مسألة الشفاعة فإنها ضد العدل . أما أن موسى نصر بالرعب ففى القرآن « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » ونصر المؤمنين بإدخال الرعب فى قلوب أعدائهم وغيره ، وأما أن الأرض جعلت مسجدا وطهوراً ففى القرآن « فأينما تولوا فثم وجه الله » أى رحمته ، وأما أن الغنائم محللة ففى القرآن « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن » ومن المعلوم أن المقاتل له وعليه ، وليس من الحكمة أن يغنم شيئا ولا ينتفع به . وأما أن دعوة موسى كانت عالمية فالآية السابقة تبين أن بنى إسرائيل أمروا بالجهاد فى سبيل الله ، والجهاد يدل على عالمية الدعوة . وفى القرآن أيضاً : أن العرب لما سمعوا بنبوة محمد ﷺ قالوا : « لولا أوتى مثل ما أوتى موسى » ورد الله عليهم بقوله : « أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل » فكفر العرب بكتاب موسى يدل على أنهم كانوا مخالفين به ، وأنهم دعوا إليه ورفضوه . وفى التوراة نصوص صريحة على الأمور الخمسة لاداعى لذكرها هنا .

قوله : « وأما التثاؤب فهو من الشيطان . فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع فإنه إذا تثاءب ضحك منه الشيطان » .

قلت : قد سبق ذكرنا لقواطع الإنجيل على جسمية الشيطان ، ومناقشتنا له فى قوله : الشياطين بسائط مجردة عن المادة ، ومع جسميتهم لا يمتنع الضحك والأكل وسائر خواص الأجسام منهم . وأما قوله : « إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب » ومعنى كونه من الشيطان فله تأويلان :

أحدهما : ذكره الخطابى ، وهو أن العطاس يكون عن خفة البدن من الطعام والتثاؤب عن ثقله به والحب والكراهة راجعان إلى سببهما ، وهما قلة الأكل وكثرته الموجبان لخفته وثقله لا إلى ذاتيهما .

الثانى : أن العطاس يتعقبه حمد الله وذكره بخلاف التثاؤب ، فلذلك فرق بينهما فى الحب والكراهة وعدم ذكر الله من أخلاق الشيطان ، وما يؤثره ، فكذلك قيل فى التثاؤب : إنه من الشيطان .

• • •

وذكر أن رسول الله أمر بلعق الأصابع والصحفة . وقال : « إنكم لا تدرون فى أية البركة » .

وقوله : « إذ أكل أحدكم فلا يمسح يده حتى يلعقها ، أو يلعقها » وأنه كان يأكل بثلاث أصابع ويلعق يده قبل أن يمسحها .

وقوله : « إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شىء حتى يحضره عند أكل طعامه ، فإذا سقط من أحدكم اللقمة فليمط ما بها من أذى ، ثم ليأكلها ، ولا يدعها للشيطان ، وإذا فرغ فليلعق أصابعه » .

قلت : هذه آداب حسنة من آداب الأكل [١] ، فإن فى لعق الأصابع والصحفة تعظيم ما عليهما من بقية الطعام بأكله وتنظيف الأصبع والصحفة ، ولعله علم فى ذلك سراً آخر من خصائص النبوة ، وإليه أشار بقوله : « لا تدرون فى أية البركة » وقد سبق فى أول الكتاب قول أرسطو وغيره : « إنه لا بد فى معرفة الشرائع من توقيف إلهى يبين العقل مايقصر عنه ، وليس من شأنه إدراكه » .

• • •

وذكر حديث أبى ذر : « يقطع الصلاة : الحمار والمرأة والكلب الأسود » وقال : « الكلب الأسود : شيطان »

قلت : الجواب من وجوه :

أحدها : أن الشيطان لا يمتنع أن يختص بالدخول فى الكلب الأسود لخصيصة فيه من شدة خبثه أو نحو ذلك ، كما ذكر فى الإنجيل : أن المسيح أخرج الشياطين من الناس ، فدخلت فى قطيع الخنازير ، ثم ألقاها فى البحر فغرقت [٢] .

وقد ذكر « ابن الأمثل » مطران « حمص » فى تقرير الثالوث : « أن الله - سبحانه - ظهر فى كبش إبراهيم ، فإذا جاز فى عقولكم أن خالق السموات والأرض يظهر فى كبش ، فكيف يمتنع ذلك فى بعض مخلوقاته أن يظهر فى كلب .

---

(١) من عادات العرب المستحسنة : إبقاء شىء فى الإناء . وهذا الحديث وشبهه من الإسرائيليات المعقولة .

(٢) الأصحاح الخامس من إنجيل مرقس .

الثانى : قال « الجاحظ » : « معنى قوله : الكلب الأسود شيطان : أن فعله فعل الشيطان لأنه أخبث الكلاب ، وأكثرها عقراً للحيوان » .

قلت أنا : لكن هذا لا يناسب قطعه للصلاة ، فيحتمل أن يكون لكثرة خبثه ، ويدل على خبثه سواده كما استدلوا على خبث الأسود من الحيات بسواده وحيث اشتد خبثه قاربت طبيعته طبيعة الشيطان فى الشر ، فاستأنس به — والشكول أقارب — فدخل فيه وقارب المصلى ، ليتنز منه فرصة ، كما دخل إبليس فى الحية ، حتى أغوى آدم (١) .

وقد ذكر بعض أهل التاريخ (٢) — أحسبه الشيخ أبو الفرج فى « المنتظم » — أن آدم لما كان فخاراً ، كان إبليس يطوف به ويتعجب منه ، فى بعض الأيام بصق عليه ، فوقع بصاقه فى موضع السرة منه ، فقطع موضع البصقة منه ، فألقى فخلق منه الكلب الأسود .

فإن ثبت هذا صح أن فى الكلب الأسود طبيعة من الشيطان ، لأجل تلك البصقة ، وإن كان المخلوق من بصقة إبليس كلباً غير أسود ، فلعله انضم إلى الأسود خصيصة كملت بها شيطنته ، فاختص بما ذكر من قطع الصلاة وتحريم صيده ، ونحوه .

الثالث : قال « الخطابى » فى قوله : « تطلع الشمس بين قرنى الشيطان » : « هذا من ألفاظ الشرع التى أكثرها ينفرد هو بمعانيها ، ويجب علينا التصديق بها والوقوف عند الإقرار بأحكامها والعمل » .

---

(١) لم تذكر التوراة الدخول الحقيقى لإبليس فى الجنة ، بل الوسوسة للحية أن تغرى حواء (تكوين ٣ : ١ — ٥)

(٢) هذا الخبر مذكور فى إنجيل برنابا .

قلت أنا : والاختلاف فى أنها معقول المعنى ، أو هو تعبد ، اختلف الفقهاء فيما لو اتفق أن مر بين يدى المصلى شيطان حقيقى . هل يقطع الصلاة؟ على وجهين :

أحدهما : يقطعها ، لمقتضى تعليله أن الكلب الأسود شيطان .

والثانى : لأنا لا نعقل ما معنى شيطنته فهو إذن تعبد نتلقاه بالتسليم والتعبدية فرع المعقولية ، وحيث لا معقولية فلا تعبدية .

وذكر عن « ابن قتيبة » فى « مختلف الحديث » قال : « وقد رخص فى الكذب فى الحرب لأنه خدعة ، وفى الإصلاح بين الناس ، وفى إرضاء الرجل أهله ، ورخص أن يورى فى يمينه إلى شىء إذا ظلم أو خاف على نفسه . والتورية أن ينوى غير ما يرى مستحلفه . وجاءت الرخصة فى المعاريض وقيل أن فيها مندوحة عن الكذب (١) .

قلت : هذه أحكام صحيحة فى الإسلام . وقد سبق الكلام على أنواع الكذب ، وأما التورية والمعاريض فكما قال إبراهيم عن زوجته ، إنها أختى وعنى باعتبار الأب الأبعد ، أو فى الإسلام . وكذلك إسحق (٢) .

وفى الحديث النبوى الصحيح(٣) قال « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ثنتين فى ذات الله : قوله « إنى سقيم » وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » وقوله لسارة « هى أختى » . وهذه معاريض ، وسماها : كذباً مجازاً .

---

(١) لا تحل التقية ولا المعاريض عند علماء الخوارج والمعتزلة وكثيرون من العلماء ، ورأيهم صحيح إلا فى الضرورة لقوله تعالى : (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) (٢) أنظر التكوين ٢٠ : ٢ و ٢٦ : ٧

(٣) هذا الحديث مروى بروايات كثيرة ، كلها لتأكيد الكذب على إبراهيم أبى الأنبياء عليه السلام ، وهو لم يكذب — والروايات كاذبة — =

= والذى دفعهم إلى ذلك — إن كان الغرض شريفاً — هو نفى المجاز فى القرآن الكريم ، وحمل كلماته على ظاهر اللفظ أى يريدون منع الاستعارة والكناية وما شابه ذلك . ولا بد من القول بالمجاز فى القرآن وإلا كيف نفسر مثل قوله تعالى : (نسوا الله فنسيهم) مع أن موسى عليه السلام يقول عن الله تعالى (لا يضل ربى ولا ينسى) ؟ وقد تعرض لهذا الحديث بالبيان الشيخ عبد الوهاب النجار فى قصص الأنبياء . وقال كلاماً حسناً تحسن قراءته . ومن كلامه عن فخر الدين الرازى صاحب التفسير الكبير : « واعلم أن بعض الحشوية روى عن النبى ﷺ أنه قال : « ما كذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات » فقلت : الأولى أن لا تقبل مثل هذه الأخبار . فقال على طريق الاستنكار : فإن لم نقبله لزمنا تكذيب الرواة . فقلت له : يا مسكين إن قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب إبراهيم عليه السلام . وإن رددناه لزمنا تكذيب الرواة . ولا شك أن صون إبراهيم عليه السلام عن الكذب أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب » وأنا والإمام فخر الدين والشيخ عبد الوهاب وكثيرون غيرنا نكذب هذا الحديث ، وأدافع عن إبراهيم عليه السلام فأقول :

المتأمل فى القرآن يجد خمس كذبات . قوله « إنى سقيم » وقوله « بل فعله كبيرهم هذا » وقوله : « هذا ربى » بشأن الكوكب . وقوله : « هذا ربى » بشأن القمر . وقوله « هذا ربى » بشأن الشمس » وكذبة سارة وهى غير مذكورة فى القرآن ، فتكون الكذبات ستة . فالتأويل الذى لزم فى الثلاثة الزوائد لازم بالضرورة فى الثلاثة الأحاديث ، ولا فرق .

وأما قوله عن سارة زوجته إنها أختى ، فهما كانا أخوين حقيقة قبل تشريع تحريم الأخت على أخيها فى شريعة موسى عليه السلام . وذلك منصوص عليه فى التوراة .

قلت : الجواب عن هذا الحديث قد سبق، لكنه لم يوجه السؤال منه هنالك كما وجه ههنا فيحتاج أن نعيده فنقول : الجواب من وجوه .

أحدها : ماذكر عن «إبراهيم الحربي» وحسبك به إماماً في معرفة الحديث ومعانيه — قال : « هذا تمثيل أى حينئذ يتحرك الشيطان ويتسلط ، يعنى حيث يرى الكفار قد أشركوا بالله وسجدوا للشمس فى الشرق والغرب ، وهو المراد بقرنيه » قال : « وكذلك الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، أى يتسلط عليه ، فيوسوس له ، لا أنه يدخل جوفه » .

الوجه الثانى : جواب مفصل .

قوله : « جعلوا للشيطان قروناً تبلغ إلى السماء » :

أما جعل القرون له فبنى على جسميته وقد أثبتناها قبل هذا ، وإن كانت مادته لطيفة . وعندكم أن الملائكة منهم على صور النفر وعلى صور الأسود ، وعلى صور النسور وعلى صور الناس . وإذا جاز هذا فى الملائكة كان فى الشياطين أجوز ، لأن الجميع مشترك فى التجرد عن المادة عند الفلاسفة وفى لطافتها عندنا . وأما كونه قرونه تبلغ إلى السماء فلم نقل به ، ولا هو لازم لقولنا ، بل يجوز فى رأى العين أن تخرج الشمس بين جبلين ، أكمتين ، بل جدارين صغيرين بل من بين قرنى نور متباعدين قليلا ، كما تقرر فى قوله : « تغرب فى عين حمئة »[1] .

قوله : « وهم مع ذلك يزعمون : أنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم »

قلنا : نعم ولذلك توجيهان :

أحدهما : أن الشياطين كثيرة فالذى يجرى من ابن آدم مجرى الدم هو

(١) الكهف ٨٦

قرينه الملازم له ، كما سبق فى قوله عليه السلام : « ما منكم أحد إلا معه شيطان » والذى تطلع الشمس بين قرنيه شيطان آخر أكبر منه . فإن جنود إبليس كثيرون على أنواع وصفات مختلفة بينهم فى أشغاله ومهامه ، ولا يمتنع أن يبعث بعض سحره الشياطين العظيمى الخلقة أو غيرهم ، فيقارن الشمس ويزينها فى أعين الكفار بزينة صنم أو آلهة على جهة الشعبذة والتخييل ، فيسجدون لها لزينتها فى أعينهم فإنا قد علمنا فى بنى آدم من يأتى من التخييلات بما لا يشك الرائى فى ثبوته فى الأعيان ، وهو سيما وتخييل ، لا حقيقة له فى الخارج ، وإنما هى خيالات ذهنية تغلب وتقوى وتستولى حتى تغلب الأحكام الخارجية ، فيبقى الانسان كأنه نائم يقظان ، وقد علم هذا بفعل سحرة فرعون حيث خيلوا أن حبالهم تسعى .

الوجه الثانى : أن مادة الشيطان لطيفة ، وقد جعل له من القابلية والقوة ما أنه يتشكل فى أشكال مختلفة ويتصور فى صور متباينة ، وإن سلمنا أن الشيطان المقارن للشمس هو الجارى من ابن آدم مجرى الدم وأنه كبير عظيم هائل الخلقة ، فلا يمتنع أن يكون يتشكل عند مقارنتها بشكل عظيم وعند جريانه من ابن آدم بشكل صغير كما قرره « ابن الأمثل » مطران « حمص » — وهو من فضلاء النصارى — فى أن الله خالق السموات والأرض ظهر لإبراهيم فى صورة كبش ، ولإسرائيل فى صورة رجل ، صارعه إلى الصبح ، ولموسى فى صورة نار فى عليقة ، وظهر للناس فى صورة المسيح فهذا — وإن كنا ننكره — لكنه يلزمكم لتجويزكم إياه أو بعضكم فمن هو موافق لكم على مقالتكم أو بعضها ، فما ذكرناه فى الشيطان أولى بالجواز ، وأما الملائكة ، فثبت ذلك فيهم فى دين الاسلام فملك الموت الدنيا بين عينيه كدارة درهم ثم إنه جاء إلى موسى[1] فى صورة رجل فأراد قبض روحه ، ففقأ موسى عينيه .

---

(١) حكمنا على مثل هذه الأحاديث قد سبق .

وجبريل تراءى للنبي ﷺ في أول الأمر ، قد ملأ ما بين المشرق والمغرب . ثم كان يأتيه بعد ذلك في صورة دحية الكلبي - رجل أعرابي - وجاءه مرة في صورة شاب أبيض الثياب ، يسأله عن معالم الدين ليتعلمها المسلمون .

ثم هذا مما لا يمتنع عقلا أن تكون المادة منطبعة لطيفة تقبل توارد الأشكال عليها ، كبندقة شمع ، إن شئت صورتها فرسا أو فيلا أو خنزيراً أو شجرة ، كبيراً ذلك أو صغيراً ، وكالنور والماء إذا وجدا محلا فسيحا انبسطا فيه كشعاع الشمس في الفضاء ، والماء في البحار ، وإذا اكتنفتهما الأجرام الكثيفة انقبضا كالنور في كوة البيت ، يرى دقيقاً ضئيلا ، والماء في ساقية الدولاب ، وأنبوب القصب ونحوه يرى دقيقاً قليلا . فهذا أنهى ما تصل اليه عقول البشر في هذا من التقريب والتمثيل ووراء ذلك أمر لا يرام جليل .

الوجه الثالث : ما سبق من قول الخطابي : إن قوله « بين قرني الشيطان » من ألفاظ الشرع التي أكثرها ينفرد بمعانيها ، ويجب علينا التصديق بها ، والوقوف عند الإقرار بأحكامها ، والعمل بها يعني التسليم المحض ، والتقليد الصرف - بناء على ما سبق من قول « أوسطو » وغيره : « إن عقولنا عند أحكام المبادىء الأولى كالخفاش عند شعاع الشمس » .

قوله : « جعلوا علة ترك الصلاة فيه : طلوع الشمس بين قرني الشيطان ، وليس بمناسب » .

قلنا : قد سبق جواب هذا بأن من أصول شريعة الاسلام المبالغة في خلاف الكفار ، فيما لم يرد شرعنا بوفقه ، حتى في التشبه بهم ولو أدنى مشابهة ولا شك أن عند طلوع الشمس يسجد لها الكفار فتكون في الصلاة حينئذ مشابهة لهم .

قلت : وهذا سؤال يورده المسلمون على هذا الحديث ومع التحقيق لا جواب عنه إلا بنسبته إلى التعبد المتلقى بالقبول . وذلك لأنا لا نجد سبباً ظاهراً تعلل به منع الصلاة عند طلوع الشمس إلا ما ذكرناه من مشابهة الكفار ، لكنه معارض بأن فى الصلاة حينئذ مخالفة للشيطان وحزبه ومراغمة لهم أشد من التشبه بهم .

- وقد حكى فى مناقب « معروف الكرخى » أنه كان يمر عليه اليهود يوم السبت إلى « الكنيس » فقال فى نفسه : إن هؤلاء يكفرون بالله فى هذا اليوم كفراً عظيماً ، فلأخالفنهم بأن أقطع هذا اليوم بالصلاة والصوم فجازاه الله على ذلك بأن جعل زيارته يوم السبت ، فيهرع إلى ضريحه خلق عظيم فيه على الخصوص[1] .

---

(١) التصوف ليس من الإسلام ومناقب المتصوفة من وضع الملحدين لإرضاء العامة وما من صلة بين الاسلام ، والتصوف . فالتصوف هو البعد عن الدنيا والزهد فيها ، والاسلام يدعو إلى العمل ، والتصوف يهادن الحكام ويغض الطرف عن مساوئهم والاسلام يأمر بجهاد الظالم ، والتصوف يؤمن بأن الأشخاص تأثيراً فى الكون أحياء وأمواتاً ، والاسلام يبين أن عمل الإنسان هو الذى يرفعه أو يخفضه والتصوف يحض على الجهل والاسلام يدعو إلى العلم والتصوف يأمر بعدم الأخذ بالأسباب حتى أن أحدهم لا يتداوى من الأمراض والاسلام يدعو إلى الأخذ بالأسباب ، وأسباب غير ذلك كثيرة والدين عند الله الاسلام لا التصوف وقد ذم التصوف كثيرون من العلماء - وهم على حق فى ذمهم لأنهم سبب تأخر المسلمين منهم القرطبى المفسر رحمه الله والزمخشرى المفسر رحمه الله ومن كلام القرطبى « استدل بعض جهال المتزهدة وطغام المتصوفة بقوله تعالى لأيوب : « اركض برجلك » على جواز الرقص قال أبو الفرج الجوزى : وهذا احتجاج بارد لأنه لو كان أمر بضرب الرجل فرحاً كان لهم فيه شبهة وإنما أمر بضرب الرجل =

ولأن وقت الكفار بالصلاة عند طلوع الشمس بالصورة الفعلية ، وخلافهم بالقصد والنية لأنهم يعبدون الشمس ، ونحن نعبد الله وقد قال الله تعالى : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر . واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون[1] » .

فالاعتبار هنا بالقصد والنية ، لا بالمشابهة الصورية .

فإن قيل : لما تعارض عندنا مفسدة المشابهة ، ومصلحة المراغمة غلب الشارع جانب مفسدة المشابهة لأن الخطاب كان فى صدر الإسلام فنعهم من الصلاة حينئذ تنفيراً عن المشابهة مبالغة فى تكريه الكفر وشعاره إليهم ، ثم صار ذلك سنة متبعة .

قلنا : جوابه من وجهين :

أحدهما : أن تنفيرهم من الكفر وتكريهه إليهم بأمرهم بمراغمته ومناقضة أهله بعبادة الله عبادة أبلغ .

الثانى : أن ذلك منقوض بصلاة الفرض . فإنه أجازها لهم ، وهى جائزة بالإجماع فى تلك الأوقات المنهى عن التطوع فيها . مع أن مشابهة الكفار

= لينبع الماء قال ابن عقيل : أين الدلالة فى مبتلى أمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازاً من الرقص ؟ ولئن جاز أن يكون تحريك رجل قد أعلها تحكم الهوام دلالة على جواز الرقص فى الاسلام جاز أن يجعل قوله سبحانه لموسى « اضرب بعصاك الحجر » دلالة على ضرب الجماد بالقضبان . نعوذ بالله من التلاعب بالشرع وقد احتج بعض قاصريهم بأن رسول الله ﷺ قال لعلى : « أنت منى وأنا منك » فحجل وقال لجعفر : « أشبهت خلقى وخلقى » فحجل . وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » فحجل » ، ومنهم من احتج بأن الحبشة زفنت والنبى ﷺ ينظر إليهم . . . الخ » (سورة ص آية ٤٤) .

(١) فصلت ٣٧ .

الصورية موجودة فلا يترك حق لباطل ، وخصيصة الوجوب لاتصلح فارقا فبان بهذا البحث والتقرير : أن هذا الحكم وأمثاله مما يتلقى عن الشرع بالقبول ولا يصادم بتصرفات العقول ، ولاشك أن دين الإسلام مشتمل على الأحكام التعبدية والمعقولة العلية ، كما قررته في « القواعد الصغرى » وبينت الحكمة فيه على الوجه الأجمل .

• • •

وذكر حديث أبي هريرة وأبي ذر : « من تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

قلت : ووجه سؤاله منه : أن ظاهره التجسيم .

قلت : وقد سبق تقرير قاعدة هذه الأحاديث .

ثم الجواب عن هذا من وجهين :

أحدهما : أن هذا الحديث مؤول عندنا على التقرب بالرحمة واللطف والإكرام ، كما يقال : فلان قريب من السلطان ، والأمر قريب من فلان ، يعني يقارب القلوب والأدلة ، وأنا وإن كنت أثريا في آيات الصفات وأخبارها ، إلا أن المجاز عندي في هذا الحديث ظاهر غالب ، فلايتوقف في تأويله إلا جامد .

وتحقيق الكلام في هذا المقام : أن النصوص في الصفات من حيث السند على ثلاث طبقات : صحيح مجمع على صحته بين أهل النقل ، وضعيف متفق على ضعفه ، ومختلف في صحته .

فالأول مما تثبت به الصفات ، والآخران لا يعول عليهما فى ذلك ، فى وقت من الأوقات .

ثم الحديث المجمع على صحته من حيث دلالة المتن على ثلاث طبقات : ما ترجح فيه إرادة الحقيقة ، وما ترجح فيه إرادة المجاز ، وما استوى فيه الأمران . فالأول كحديث الساق والقدم والأصابع ونحوه . فهذه إرادة المجاز فيها مرجوحة فحكمها أن تحمل على حقائق لائقة بالبارى — جل جلاله — ولا يلزمنا تعيين كيفيتها كذاته - سبحانه - أثبتنا وجودها ونحن عن تفاصيل احكامها بمعزل ، والثانى كهذا الحديث قوله : « من تقرب منى تقربت منه » وقوله : « قلوب الخلق بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء » و« الحجر الأسود يمين الله فى الأرض » وقوله : « ساعد الله أشد ، وموسى الله أحد » ونحوه . فإن المجاز فيه راجح ، وحكمه : التأويل على ماترجح فيه ، والثالث كقوله : « ويبقى وجه ربك »(١) فإنه بين الصفة الوجهية اللائقة بمنصب الإلهية وبين الرتبة الجاهلية الراجعة إلى العظمة الذاتية . فحكم مثل هذا راجع إلى ترجيح المجتهد فى أحكام العقائد . فإن غالب مسائلها من هذا وأشباهه اجتهادية لكنها أعلى رتبة من مسائل الفروع . فهذا هو الطريق الذى أراه قصداً بين الإفراط والتفريط سالما من الخبط والتخليط « والله من ورائهم محيط »(٢) .

الوجه الثانى : أنه قد ثبت فى التوراة : أن آدم لما أكل من الشجرة انفتحت عينه ، وبان له : أنه عريان ، فاستتر بالشجر ، وجعل يخصف عليه

---

(١) الرحمن ٢٧

(٢) البروج ٢٠

الورق ، وسمع حس الله يمشى فى الجنة ، فاختفى منه ، فقال له الله الرب : مالك يا آدم ؟ قال : أنا عريان أستحى منك ، وسمعت حسك تمشى فاستحييت . فقال : لعلك أكلت من شجرة معرفة الخير والشر ؟ قال :[1] نعم .

وقد سبق ذلك . فهذا تصريح بأن الله يمشى والمجاز فيه مرجوح جداً . فما ينكر علينا من حديث المجاز فيه راجح جداً ؟ هذا ما هو إلا عناد ، ولو وقع الإنصاف لارتفع الخلاف .

• • •

قال : وفى حديث أبى هريرة : « من يقم ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه » وذكر حديثه : « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » وقوله : « إذا أمن الإمام فأمنوا . فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » وحديث سلمان : « من اغتسل يوم الجمعة

---

(١) نص التوراة هذا فى الاصحاح الثالث من سفر التكوين . وهو : « وأوصى الرب الإله آدم قائلا : من جميع شجر الجنة تأكل أكلا . وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها . لأنك يوم تأكل منها موتا تموت » — « فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهية للنظر . فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر . وسمعا صوت الرب الإله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار . فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة . فنادى الرب الإله آدم وقال له : أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت . فقال : من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا تأكل منها ؟ فقال آدم : المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت ...) الخ .

وتطهر بما استطاع من طهر » الحديث إلى قوله : « غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » وقوله : « حق على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام يوما يغسل فيه رأسه وجسده » وحديث أبى عيسى : « سمعت النبى يقول : من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار » .

وقوله : « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » وحديث أبى ذر قال : قال النبى ﷺ : « أخبرنى جبريل بالحرة ، قال : بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنه . قلت وإن زنا وإن سرق ؟ قال «نعم» كررها ثلاثا ، حتى قال فى الثالثة : وإن شرب الخمر » .

وذكر النصرانى : فى لفظ آخر للحديث « قال لى جبريل : من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً سيدخل الجنة ولن يدخل النار » وقوله : « لكل نبى دعوة يدعو بها ، وأريد أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى فى الآخرة » وقوله : « لله تسعة وتسعون اسما ، مائة إلا واحدا ، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة » وقوله : « من صلى البردين دخل الجنة » وقوله : « من سبح لله فى دبر كل صلاة ثلاث وثلاثين » الحديث إلى قوله : « كفرت عنه خطاياه ، وإن كانت مثل زبد البحر » وقوله : « قد حرم على النار من قال : لا إله إلا الله . يبتغى بذلك وجه الله » .

ثم قال النصرانى : « فقد ظهر أنه لم يوجد فيه شىء من الشروط الأربعة التى ينبغى - ولا بد - أن توجد فى النبى » .

قلت : سرد الخصم هذه الأحاديث ، ولم يبين وجه سؤاله[1] منها ، والذى

---

(١) وجه سؤال النصرانى : أن دين الاسلام أقوال لا أفعال مثل دين =

فهمته من ذلك أنه أوردها إشكالا على وعد النبى أمته على الطاعات المذكورة مغفرة الذنب ، ودخول الجنة ، والتحريم على النار . إما استبعادا من هذا الخصم لذلك بناء على اعتقاده فى المسلمين أنهم عنده كفارا ، وعلى ما صح فى السنة من دخول عصاة الأمة النار وإخراجهم بالرحمة والشفاعة ، فيكون ذلك تناقضا فى الأخبار .

والجواب : إن هذه الأحاديث صحيحة وأحكامها ثابتة عندنا ، ولا مطعن فيها لطاعن . أما استبعاده لما وعدت به هذه الأمة بناء على سوء اعتقاده فيهم ، فلا وجه له إذ لا اعتبار به . إنما الاعتبار بالحجة . ثم هو معارض باستبعاد المسلمين ما يزعم النصارى : أن المسيح وعدهم به فى قوله : « من عرفنى وآمن بى كان معى عند أبى الذى فى السموات » ونحوه .

= النصرانى . إن مذهب النصرانى : أن من آمن بالمسيح ربا مصلوبا دخل الجنة ولو لم يعمل عملا صالحاً ودليلهم كلام بولس فى رسالته إلى أهل غلاطية . والحق أن دين الاسلام أقوال وأفعال وهما معاً يدخلان الجنة . فإن الله نص فى القرآن الكريم على الايمان والعمل فقال تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » ، وقد نص الخوارج على أن المسلم إذا عصى الله ولم يتب يعتبر كافراً ولا يغسل إذا مات ولا يصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين وفى الآخرة لن يخرج من النار . والمعتزلة يقولون إنه فاســـق كافر فى الدنيا ويعامل مع فسقه معاملة المسلمين ، وفى الآخرة يأخذ جزاءه بحسب ميزان أعماله لقوله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا » وإذا استحق المسلم النار بميزان عمله ان يخرج منها إلى الجنة ومذهبهما يجبران الناس على الخوف من الله ، ورأس الحكمة مخافة الله .

فإن من آمن بالمسيح كإيمان النصارى به فى أنه : الله ، أو ابن الله ، فهو كافر عند المسلمين ، خالد فى النار ، قد حرم الله عليه الجنة ، فلم كان اعتبار أحد الاعتقادين أولى من الآخر ؟

وأما دعواه التناقض فمردودة بأن هذه ظواهر وعمومات كانت فى أول الإســلام وآخره قبل أن يكمل الإسلام وتتم أركانه وشروطه ومتقوماته ، ثم لما كمل الإسلام صار غفران الذنوب ودخول الجنة والتحريم على النار متوقفاً على كماله وتمامه ، فمن أخل بجميع حقيقته كان كافراً ، ومن أخل بشيء منه جوزى بحسبه ، كما قال الزهرى فى قوله : « من قال لا إله إلا الله حرمه الله على النار » : « كان ذلك فى أول الإسلام قبل نزول الفرائض والأمر والنهى »

قلت : وقد قال بعض أهل العلم: إن المراد تحريم الخلود لا تحريم الدخول جمعاً بين الأحاديث . فأما اللفظ الذى ذكره وهو قوله : « من مات لا يشرك بالله شيئاً سيدخل الجنــة وإن يدخل النار » فهذه الزيادة لا نعرفها فى شيء من دواوين السنة ، بل الذى صح فى السنة : إثبات دخول الجنة لا ينفى دخول النار ، ولا تنافى بينهما لجواز أن يدخل النار بمعصيته ، ثم يخرج منها فيدخل الجنة بطاعته ، كما تواترت به أحاديث الشفاعة تحقيقاً لقوله تعالى :(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (١)

على أن هــذا اللفظ إن صح وجب تأويله على أنه ان يدخل النار دخول خلود بخلاف المشركين فإنهم يدخلونها دخول خلود ، وحينئذ رد الله كيد هذا الخصم ، وتبين أن شروط النبوة الأربعة موجودة فى محمد ﷺ .

• • •

---

(١) آخر الزلزلة .

قال : « وينضم إلى ذلك فى حقه ما روى مسلم من حديث أبى هريرة قال : « زار النبى قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال : استأذنت ربى فى أن أستغفر لها فلم يأذن لى » وقال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : أين أبى ؟ قال : « إن أبى وأباك فى النار »

قلت : ولا محذور فى هذا ، فإن إبراهيم الخليل — صلوات الله عليه — كان أبوه كافراً ، ولأن من قاعدة الإسلام وغيره من الأوثان أن الكفار فى النار ، وأبوا النبى كانا كافرين فحكم لهما بحكم الله فيهما .

وهذا من أكبر الأدلة على صدقه لوجهين :

أحدهما : أنه ظهر من قوم كفار يدعو إلى الناموس الأعظم ، فلو لم يكن صادقاً لاتبع دين آبائه كغيره .

الثانى : أنه حكم لأبويه بالنار ولجده وعمه وكل قريب له ، فلو لم يكن فى غاية الصدق والأمانة والعدل حتى أنه يخبر بالحق على نفسه ولما تعصب لقومه وقال : هم فى الجنة ببركتى لاختصاصى عند ربى ، وكان يصدق فى ذلك كما صدق فى غيره .

• • •

وقال أيضاً : « ليت شعرى ما فعل أبواى ؟ » فأنزل عليه : (ولا تسئل عن أصحاب الجحيم (١))

---

(١) البقرة ١١٩ ولهذه الآية سبب نزول غير الذى ذكره النصرانى وهو أن النبى ﷺ قال : « لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا » فأنزل الله تعالى : (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) برفع تسأل ، وهى قراءة الجمهور ويكون فى موضع الحال بعطفه على « بشيراً ونذيراً » والمعنى إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً غير —

قلت : هذا إن صح لجوابه ما سبق قبله ، لكنه لا يصح لسياق الكلام .
وهو قوله تعالى فى سياق ذم اليهود والنصارى والكفار : (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً . ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) بضم التاء المثناة من سأل على ما لم يسم فاعله ، فهو معنى قوله (ولا تسألون عما كانوا يعملون [١]) وقوله : (قل لا تسألون عما أجرمنا ، ولا نسأل عما تعملون [٢]) وقوله : (فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم [٣]) وقوله : (إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد [٤]) وقوله : (ولا تزر وازرة وزر أخرى [٥]) ومعنى ذلك كله : إن عليك إنذارهم وليس عليك شىء من عقابهم ، كما قال : (ما عليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء [٦]) وهذا عام فى جميع الكفار .

نعم . قد قرىء « لا تسأل » على النهى له عن السؤال ، وهو محتمل لما ذكره هذا الخصم . والجواب عنه ما سبق .

• • •

وذكر النصوص التى تضمنت أنه لا يعلم الغيب لقوله : (وما أدرى

= مسئول . وأما عن قراءة « ولا تسأل » جزماً على النهى وهى قراءة نافع وحده ، ولا أستسيغ تعدد القراءات ولا الكثرة من أسباب النزول ، ففيها وجهان : أنه نهى عن السؤال عمن عصى وكفر من الأحياء لأنه قد يتغير حاله ، فينتقل عن الكفر إلى الإيمان وعن المعصية إلى الطاعة ، والثانى — وهو الأظهر — أنه نهى عن السؤال عمن مات على كفره ومعصيته تعظيما لحاله وتغليظا لشأنه ، وهذا كما يقال : لا تسأل عن فلان ، أى قد بلغ فوق ما تحسب . هذا وقد ذكر القرطبى فى كتاب « التذكرة » أن الله تعالى أحيا له أباه وأمه وآمنا به ، والحق أن هذه روايات لا تصل إلى درجة اليقين والله يقول : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

(١) البقرة ١٤١ (٢) سبأ ٢٥ (٣) النور ٥٤
(٤) الرعد ٧ (٥) فاطر ١٨ (٦) الأنعام ٥٢

مايفعل بى ولا بكم[١]) وقوله :(ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير[٢])
قال : « فأخبر أنه لو كان يعلم الغيب لاجتلب الخير ، واجتنب الشر ، واستعد لكل أمر بمايليق له . ولقوله : (لا أملك لنفسى نفعاًولا ضرا[٣]) وقوله : (ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب[٤]) وقوله : (قل : إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشدا[٥]) وقول عائشة : « من زعم أن محمداً يخبر بما يكون فقد أعظم الفرية على الله . والله يقول : (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله[٦])

قلت : هذا غير وارد بحمد الله تعالى ـ فإن محمداً لم يدع أنه يعلم الغيب كله ، ولا أنه يعلم ما علم منه بنفسه ، بل بإخبار الله له بذلك ، كما قال الله ـ سبحانه ـ (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا[٧])

وأما قول عائشة : « من زعم أن محمداً يخبر بما يكون » فلا أعرف هذا اللفظ ، إنما المشهور من رواية الترمذى وغيره أنها قالت : « ومن زعم أن محمداً يعلم ما فى غد » والمعنى متقارب ، وكلاهما محمول على ما ذكرناه من التقييد ، أى لا يعلم مافى غد ولا يخبر بما يكون من عند نفسه بل بإخبار الله له وهل كان النبى ﷺ إلا عبداً مأمورا ؟

ولم يكن إلهاً معبوداً كما اعتقدتم فى المسيح ، ثم خفى عنكم ما تضمنه اعتقادكم الفاسد ، من جهلكم المتزايد ، فإن المسيح ان كان يعلم الغيب فكيف لم يعلم أنه يؤخذ فيقتل ، فيختفى عنهم ، لئلا يقع فى الصلب والقتل ؟
فإن قلتم : كان يعلم ذلك لكن هو سلم نفسه ليفتدى الخلق من العذاب بنفسه.

---

(١) الأحقاف ٩ (٢) الأعراف ١٨٨ (٣) الأعراف ١٨٨
(٤) هود ٣١ (٥) الجن ٢١ (٦) النمل ٦٥ (٧) الجن ٢٦ - ٢٧

قلنا : نتابعكم على جهلكم فى هذا ، ونسلمه لكم ، لكنه لما بات ليلة فى الجبل ساهراً يصلى ويدعو أباه ليقيله من الموت ، ويعبر عنه كأسه[1] .

يرد عليكم أن من يجود بنفسه هذا الجود ، كيف يجزع هذا الجزع ، ويدفع بنفسه هذا الشح ، ويستنجد بالتلاميذ أن يساهروه ، ويسألوا معه تعبير كأس الموت عنه ؟

سامحناكم فى هذه ، لكنه لو كان يعلم الغيب — كما زعمتم — فلا يخلو فى سؤاله تعبير كأس الموت عنه ، إما أن يكون علم أنه يجاب فى سؤاله أولا يجاب ، والأول باطل لوقوع الأمر بخلافه ، فما علم الغيب فى هذه القضية . والثانى يوجب أن سؤاله كان عبثاً لا يليق برعاع الناس فضلا عن الأنبياء ، على رأينا فيه فضلا عن ابن الله أو الله ، خالق السموات والأرض — على رأيكم الفاسد فيه .

ثم نقول لكم : من من الأنبياء علم الغيب لذاته ؟ آدم لما أخرج من الجنة ؟ أو إبراهيم لما امتحن بذبح ولده ؟ أو إسحق لما أوهمه إبنه يعقوب أنه إبنه العيص ، فأخذ بكوريته وجعل يتحير فى أمره ، ويقول « الصوت صوت يعقوب واللمس لمس العيص[2] » ؟ أو يعقوب لما جرى ليوسف ما جرى وهو يظنه ميتاً ؟ أو موسى لما أرسل فرعون الدباحين خلفه ليقتلوه ؟ فلو لم يبادر رجل مؤمن فأنذره حتى هرب لفات فيه الفائت .

ما أقل عقول هؤلاء القوم الضلال . بل ما أقل عقل من يتعجب من قلة

---

(١) متى (٢) التكوين .

عقولهم بعد ما يعلم منهم ما هم عليه . إنما الأنبياء عند الله يعلمهم مالا يعلمون ، وما لا يعلمهموه ، لا يعلموه .

* * *

قال : « وينضم إلى ذلك وعده للمسلمين يوم أحد بالنصر على عدوهم ، فكان بخلاف ما أخبرهم . فقتلوا وهزموا وجرح هو وانكسرت رباعيته ، ودخل حلق المغفر فى وجهه ثم لما تبين كذبه اعتذر إليهم بقوله : « وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثيرون . فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا[1] » الآية .

قال : « واعتذاره أقبح من خلف وعده ، لأنه باطل . فإن الأنبياء المتقدمين على نوعين :

أحدهما : جاءوا باللين والملاطفة والخشوع مثل حزقيال وإرمياء وأشعياء ونحوهم لم يحاربوا أحداً ، ولا خاصموه ، بل أعداؤهم الكفار استضعفوهم فعذبوهم وقتلوهم ولم يقتل أحد منهم فى حرب ، ولا قتل معه حبر

الثانى : جاءوا بالتأييد من عند الله ، والظهور على الأعداء والقهر لهم فقمعوا المشركين ، ولم يقتل أحد منهم فى حرب ولا هزم يوماً واحداً ، ولا قتل معه ربى ولا حبر مثل موسى وداود وسليمان » .

---

(١) آل عمران ١٤٦ و « قتل معه » قراءة نافع ، وقرأ ابن عامر « قاتل » وهى قراءة ابن مسعود واختارها أبو عبيد ، وقال « إن الله إذا حمد من قاتل كان من قتل داخلا فيه ، وإذا حمد من قتل لم يدخل فيه غيرهم ، فقاتل أعم وأمدح »

قال : « وأنت إذا تأملت أحوال محمد ، علمت أنه ليس من أحد هذين النوعين ، لأنه لم يأت بخشوع ولا خضوع فيكون من النوع الأول ولا أيد بمعجزة يقهر بها أعداءه فيكون من النوع الثاني .

نعم . هو من النوع الذى حذر عنه سيدنا المسيح حيث قال فى إنجيله الطاهر : « تحذروا من الأنبياء الكذابين ، الذين يأتونكم فى لباس الضأن ، وهم فى الباطن ذئاب خاطفة ، ومن ثمراتهم تعرفونهم[1] » .

قلت : أما خروج النبى ﷺ إلى « أحد » فلم يكن منشرحا له ، ولا اختاره بادىء الرأى . وإنما كان رأيه : أن يتحصن فى المدينة فإن دخل العدو عليه قاتله بالسلاح والحجارة وإن بقى خارج المدينة بقى بشر ، ولم يلق كيداً .

لكن رجالا من المسلمين ممن لم يشهدوا « بدراً » تأسفوا على فوات حضورها ، فأشاروا بالخروج إلى « أحد » وألحوا على ذلك لما أراد الله لهم من الإكرام بالشهادة وتصديقاً لرؤيا النبى ﷺ حيث رأى فى منامه كأنه فى درع حصينة ، وكأن فى سيفه فلولا ، وكأن بقراً يذبح فأول الدرع الحصينة بالمدينة ، والفلول فى سيفه بأنه يصاب بعض أصحابه ، والبقر بمن قتل من الكفار يومئذ .

وأما وعده إياهم بالنصر فصحيح . وقد نصروا فى أول المحارب وهزم الله الكفار ، لكن لما خالف الرماة ما أمرهم به ، وتركوا مراكزهم التى وكلوا بحفظها وطلبوا الغنيمة من أموال المشركين ، عاقبهم الله بالمخالفة . فخرج عليهم الكمين فنال منهم ما نال .

---

(١) متى .

وقد شرح الله هذه القصة فى القرآن حيث يقول : « ولقد صدقكم الله وعده ، إذ تحسونهم — أى تقتلونهم — بإذنه ، حتى إذا فشلتم ، وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ، ولا تلوون على أحد . والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم[1] » الآيات .

فقد صدقهم فى الوعد لكنهم خالفوا فعوقبوا بذنبهم . ثم يقال « إنما وعدهم بالنصر الكلى ذلك اليوم بشرط أن يسمعوا له ويطيعوا ، لكنهم خالفوا ، فانتفى المشروط لانتفاء شرطه .

وأما ما أصابه من ذلك فى نفسه : فهو كالذى أصاب الأنبياء قبله من القتل والضرب ، بل من النشر بالمناشير ، كما جرى لجرجيس[2] النبى عليه السلام .

وأما قوله : « وكأين من نبى قتل معه ربيون كثير » فهو إخبار صحيح لكن قوله « قتل معه ربيون » فيه تقديران مناسبان لسياق القصة .

أحدهما : أن الكلام تم على قوله : « قتل » وفيه ضمير النبى ، أى كائن . أى كم من نبى قتل ، وهو صحيح ، فإن الخصم قد اعترف بأن كثيراً من الأنبياء قتلوا كيحيى وزكريا والمسيح — على زعمه — وغيرهم كثير . وقوله « معه ربيون كثير » جملة حالية ، أى قتل حال كونه ذا أصحاب كثيرين ، فلا أوجب قتله لهم أن تزلزلوا فى دينه ، بل ثبتوا عليه بعده .

---

(١) آل عمران ١٥٢ وما بعدها .

(٢) جورجيوس من أتباع المسيح .

ووجه مناسبة هذا التقدير : أن الشيطان صاح يوم أحد : « قتل محمد » فاضطربت قلوب أصحابه . وقالوا : نحن عدنا نقاتل ؟ ولمن نتبع ؟ فعاتبهم الله على هذا بقوله : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين » إلى قوله : « وكأين من نبي قتل » أي ما ضعف أحد بعد نبيه ورجع عن دينه ، كما هممتم أنتم أن تفعلوا .

التقدير الثاني : أن « قتل » سند إلى « ربيون » وهم جمع [1] « ربى » والربى منسوب إلى الربة وهي الجماعة كأنه قال : قتل معه قوم رؤساء جماعات ، كالقواد والأمراء . وقيل الربيون : الأتقياء العلماء ، وهذا مناسب لقوله قبل ذلك : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » .

لكونهم وجدوا لما أصابهم يوم أحد من قبل الإخوان والأقارب ، فكأنه يسليهم بذلك ويأسيهم بمن سبق منهم .

ولا شك أن من الأنبياء المتقدمين من كان ذا حروب ومغازى كداود وسليمان وموسى ويوشع بن نون ، ولم يزل بنو إسرائيل بعد موسى يكون لهم ملك الحرب ، ونبي يعرفه بأمر الله بالوحي .

والجهاد فيهم هائم ، وكانوا يقدمون التابوت بين أيديهم ، وكان من حمله لا يرجع به حتى يفتح عليه أو يقتل . وقد غزا يوشع بن نون مدينة الجبارين

---

(١) الربيون : هم العلماء الكبار في بنى إسرائيل الذين يكونون من نسل هرون عليه السلام والأحبار : هم العلماء الذين يكونون من نسل لاوى بن يعقوب من غير نسل هرون .

ليلة السبت ، ثم سأل الله أن يحبس عليه الشمس حتى يفرغ منهم قبل أن يدخل السبت ففعل .

وكان غزاة بنى إسرائيل أكثرهم أو كثير منهم علماء أتقياء بررة أخيار لأنهم أوتوا الكتاب والحكم والنبوة وفضلوا على العالمين ، كما نص عليه القرآن . ومن المحال عادة أن يكون فيهم هذا الجهاد ولا يقتل منهم أحد ، ومتى ثبت أنه قتل منهم ثلاثة فصاعدا ثبت صحة ما أخبر به محمد — عليه السلام — كيف ؟ وقد ثبت أنه قتل منهم فى الحروب والمغازى ما لا يحصى كثرة على مادلت عليه الكتب والتواريخ والسير ، وحينئذ إنكار هذا الخصم أن يكون قتل مع الأنبياء المحاربين منهم أحد لا يسمع(١) .

---

(١) كان الملك فى بنى إسرائيل فى نسل بنيامين وبدأ بطالوت ، ثم انتقل إلى نسل يهوذا وبدأ بداود . وكان نسل لاوى مختصا بالعلم ، وكانت ذرية هرون من نسل لاوى الرئاسة الدينية ويلقب الواحد منهم بالربى ، وكان اللاويون يعيشون بين الأسباط ، ويشتركون فى الحرب . ومثال ذلك : أن الكهنة الهارونيين واللاويين عبروا بتابوت العهد نهر الأردن أمام الجيش المحارب مع يشوع بن نون كما هو مبين فى سفره وهم قاتلوا مع يشوع من أجل دعوة موسى .

وفى أيام موسى — وهو نبى عظيم — قاتلوا معه ، وقتل منهم كثيرون كما هو مبين فى حروب موسى المذكورة فى سفر العدد ، وكانت ملوك بنى إسرائيل تستشير الربيين فى الحرب ويقولون لهم نصعد أو لا نصعد ؟ كما هو مبين فى سفر الملوك الثانى . وانتهت الدولة اليهودية الأولى التى كان يحكمها الملوك بسبي بابل ، وبدأت الدولة الثانية بعد الرجوع من بابل بحكم الربيين بقيادة عزرا ، وكانوا يقاتلون فى أيام المكابيين ببسالة وشجاعة نادرة وفى أيام يوسيفوس المؤرخ وهو من الربيين أيضا كان الربيون وهو معهم يقاتلون تيطوس الرومانى ، ثم نصحهم بالتخلى عن الحرب .

وقد بينا أن الربيين لا يختصون بالأحبار والعلماء على القول المذكور أولا بل هو عام فى غيرهم من المقاتلة . فنقول :

إنك ذكرت للأنبياء نوعين، ونحن ذكرنا للآية تقديرين. فتقديرنا الأول يصح فى نوع الأنبياء الأول ، وتقديرنا الثانى يصح فى نوعهم الثانى ، وأيضا صح فى التوراة : أن إبراهيم قاتل الذين أغاروا على أموال لوط فاستاقوها فتبعهم إبراهيم بعبيده وغلمانه حتى قتلهم واسترد ما أخذوه[1] ، على أن الآية قرئت على وجهين : « قتل معه » و « قاتل معه » لكن يقال : إما أن القرآن نزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف فيلزمكم الجواب عن القراءتين . فنقول: قد دلت القراءتان على أن جمعا من الأنبياء قتلوا ، وعلى أن جمعاً كثيراً منهم قاتل معه أصحابه ، وقتل معه أصحابه ، وقد بينا صحة ذلك إذ العادة فى الغزوات والحروب : أن الناس يقاتلون ويقتلون .

قوله : « ليس من أحد النوعين . إنما هو رجل هزم وهزم ، وأصيب وأصاب » .

قلنا : قد بينا بما ذكرنا من معجزاته قبل هذا ، أنه من الأنبياء ، وأنه علم من حسن سيرته وآدابه ولينه وتواضعه وخشوعه وتحديه وشجاعته وفصاحته وغير ذلك من أخلاقه الكاملة ، وصفاته الجليلة متخلق بأخلاق النوعين من الأنبياء ، وأنه اجتمع فيه مالم يجتمع فى واحد منهم .

وأنت لو نظرت حق النظر فى سيرته لعلمت ذلك لكنك عدو أخذت الشبه التى زعمت أن لك فيها متعلق ، وتركت ما عليك فيه المتعلق على عادة الأعداء

---

(١) التكوين .

فى إظهار القبيح ، وإخفاء المليح . على أنه لا قبيح فى سيرة النبى ﷺ .

وأما قوله « تهزم وتُهزم ، وأصاب وأصيب » .

والنوع الثانى من الأنبياء الذين ذكرتهم . هكذا كانوا . وقد هزمت بنى إسرائيل وأخذ منهم التابوت إلى أرض أعدائهم ، حتى رد عليهم فى زمن طالوت الملك .

وأما النوع الأول منهم ، فكانوا تارة يثبتون ، وتارة يهربون ، كما كان المسيح يفر من اليهود من مكان إلى مكان لخوفه منهم ، حتى كان منه ومنهم ما كان .

وقد أخبر الله ـ تعالى ـ بذلك فى القرآن حيث يقول : « وتلك الأيام نداولها بين الناس »[1] والله أعلم .

ثم يقال له : هل رأيت ملكا يهزم ويهزم ويصيب ويصاب يبقى ناموسه بعده قريب ألف سنة ، وهو كما هو كلما جاء فى رسوخ وثبوت؟ هذا عقل فاسد.

وأما ما حكاه عن سيده المسيح فى إنجيله الطاهر. فقد بينا فى أول الكتاب: أنه لا حجة فيه ، ولعمرى أن فى الإنجيل الذى يعتمد عليه من التناقض والمحال ما يمنعه أن يتصف بصفة الطهارة .

• • •

وذكر حديث عائشة : أن النبى ﷺ سحر ، حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء ولا يفعله .

---

(١) آل عمران ١٤٠

قلت : هذا صحيح[1] ، وقد بينا عند قوله تعالى : « إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » أن السحر ونحوه جائز على الأنبياء وأنهم معصومون فيما يوحى إليهم ، بمعنى أنهم لا يقرون فيه على خطأ .

• • •

وذكر حديث عائشة « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » قالت : « فلولا ذلك لأبرز قبره ، غير أنه خشى أن يتخذ قبره مسجداً » .

قلت : وهذا صحيح مشهور عنهم . فإنهم لغلوهم فى أنبيائهم ، كما غلوتم فى المسيح فجعلتموه إلها ، كانوا يتعبدون عند قبور أنبيائهم ، وذلك منهى عنه فى دين الإسلام لئلا يصير النبى بالصلاة عنده يشبه المعبود ، وإن كانت النية غير العبادة له ؟

لكن لمجرد الشبه تكره[2] ، وأيضاً فإن الأنبياء معظمون ، فإذا عبد الله لم يؤمن أن يجىء من بعد ذلك العصر فيظن العبادة لهم لتعظيمهم فى النفوس ، كما يقال : إن إدريس لما رفع إلى السماء جاء إبليس إلى أخ له فقال له : أصنع لك تمثال على صورة إدريس تتسلى به ؟ قال : نعم . فصنع له تمثالا كان يدخل

---

(١) هذا صحيح فى نظر المؤلف .

(٢) ولذلك يجب على المسلمين هدم القباب والأضرحة التى فى المساجد ، وإخراج جثث الموتى منها وجعل المسجد لله خالصا من أى شبهة كانت ، ومن سكت عن ذلك وهو قادر على الهدم والإزالة فهو آثم . ويجب على المسلمين أن لا يعتقدوا فى الأحياء ولا فى الأموات أنهم واسطة إلى الله وأنهم قادرون على جلب الخير ودفع الشر . إن ذلك ليس من الإسلام فى شىء .

عليه كل يوم يبكى عنده ، ويتذكر إدريس به فيحصل له بعض السلوان ،وكان التمثال فى خرابة لايدخلها غيره ، فلما مات أخو إدريس ـ أو أنه كان صاحبه وخليله ـ جاء من بعده فوجدوا التمثال فى الخرابة ، فجاءهم إبليس ، فقال : أتعرفون هذا التمثال ؟ هذا إله إدريس وأخيه فاعبدوه . فعبدوه ، فكان ذلك أصل الجاهلية الأولى .

وأما الجاهلية الثانية : فإن البيت الحرام كان عظيما عند أهل مكة ، فكانوا إذا سافروا حملوا من حجارة الحرم معهم فى أسفارهم يحترمون ويتبركون بها ، ثم تدرجوا إلى أن عادوا يضعونها ويطوفون بها ، حيث حلوا من الأرض ، كما يطوفون بالبيت ، ثم تدرجوا من عصر إلى عصر ، حتى عبدوها ، ونشأت عبادة الأصنام بهذا السبب ، فكان ذلك أصل الجاهلية الأخرى التى أزالها الله بمحمد ﷺ .

• • •

وذكر قوله عليه السلام فى مرضه : « ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر . فهذا أوان قطع أبهرى » .

قلت : قد بينا أن الأنبياء بشر ، يجوز عليهم الآفات والموت وأسبابه ، وليسوا كما يعتقدون فى المسيح أنه إله ، ثم هو مع ذلك قتل وصلب ودفن ولم تنفعه الإلهية .

والأبهر : عرق ينزل من الدماغ ، فهو فى العنق الوريد ، وفى الصلب الأبهر ، وفى القلب الوتين . ومن أى مواضعه انقطع هلك صاحبه ،والوريد والوتين مذكوران فى القرآن .

• • •

وذكر حديث البخاري عن ابن عباس قال : لما حضر رسول الله ﷺ الموت . وفي البيت رجال . قال : « هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده » فقال بعضهم : رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن . حسبنا كتاب الله . فاختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول : يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده . ومنهم من يقول غير ذلك . فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله : « قوموا » فكان ابن عباس يقول : إن الرزية كل الرزية ما حيل بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لنا ذلك الكتاب .

قلت : لم يوجه سؤاله من هذا الكتاب [1] . وأنا يخطر لي توجيهه من وجهين :

أحدهما : القدح في جميع المسلمين . وتقريره : أنه علق عدم ضلالهم على كتب الكتاب . ومن المعلوم أن المشروط ينتفي لانتفاء شرطه ، والكتاب لم يكتب فبقي الضلال لم يحصل ، فيكون الضلال بعده ثابتاً ، إذ لا واسطة بين النفي والإثبات .

الثاني : قول القائل : « قد غلبه الوجع » يعني : فهو لا يدري ما يقول وكان هذا القائل عمر بن الخطاب . وفي لفظ الصحيح : « إنه يقال إن الرجل تهجر » يعني تخلط في كلامه . لأن الهجر : الكلام الذي لا معنى له ، ولا فائدة .

والجواب عن الأول من وجهين :

أحدهما : أن المراد بالضلال الذي علق نفيه على كتابة الكتاب هو

---

(١) يقصد ـ والله أعلم ـ أن الأحاديث النبوية التي يتمسك بها بعض المسلمين غير حجة في الدين .

الاختلاف فى الإمامة لمن هو بعده . بدليل قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا)(١) وبدليل قوله عليه السلام قبل موته « لقد تركتكم على بيضاء نقية ، ليلها كنهارها ، وقوله : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من عاندهم إلى يوم القيامة » فى نصوص كثيرة ، فنفى ضلال الأمة بعده ، فتعين حمل الضلال فى هذا الحديث على النزاع فى الخلافة (٢) .

ولا شك أنهم تنازعوها بعده « على » و « سعد بن عبادة » و « أبو بكر » فكانت له بمقتضى وعد النبى ﷺ حيث قال: « يأبى الله والمسلمون إلا أبابكر » وقوله : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم تصير ملكا » وكانت أيام أبى بكر من جملة الثلاثين .

الوجه الثانى : أن محمداً ﷺ فى أيام حياته . إما أن تدعوا أنه كان على هدى أو ضلال ؟

فإن قلتم : على هدى ، فأمته بعده على ملته وسنته ومنهاجه . وإذا اختلفوا فى أمر لجأوا إلى ما أنزل عليه ، وإلى ماقاله من السنة ، فهم أيضاً مهتدون مثله . وإن قلتم على ضلال فأمته — على زعمكم — قد ضلوا عما كان عليه ، والضلال عن الضلال هدى ، إذ نقيض الضلال الرشاد ، فهم إذن مهتدون .

فعلى التقديرين القدح فى أمته لا يتجه من هذا الحديث ، والقدح فيه قد سبق جوابه .

---

(١) المائدة ٣

(٢) ولم لا يكون الحديث من الأحاديث الموضوعة من قبل علماء الفرق والملل والنحل .

والجواب عن الثانى : أن عمر رضى الله عنه ليس معصوماً ، فهو وهم فى هذا ، إذ وطن الأمر على خلاف ما هو عليه حيث نسب النبى ﷺ إلى التخليط فى الكلام كما وهم فى قوله . «إن محمداً لم يمت ، وإنما ذهب إلى مناجاة ربه بروحه ، كما ذهب موسى للمناجاة ببدنه» .

وأحسب أن عمر عوقب على هذه الكلمة عقوبة دائمة من جهة أن الرافضة تعلقت عليه بها ونسبته إلى أنه علم أن النبى ﷺ إن كتب لهم كتاباً نص فيه على على بن أبى طالب ، وعلم أنها إن صارت إلى على ، تداولتها بنو هاشم فلا تخرج عنهم ، فلا تحصل له ، وهو كان يرجوها بعد أبى بكر ، كما وقع ، فصدهم عن كتابة الكتاب ، حتى مات النبى ﷺ ، ثم بادر بالبيعة لأبى بكر مخالسة كما قال : «كانت بيعة أبى بكر فلتة وقى الله شرها» ، ثم مات أبو بكر سريعا فتناولها بعده ، فهم يشنعون عليه بذلك ، ويتهمونه به ، ويسبونه ويشتمونه لأجله .

• • •

وذكر حديث أن النبى ﷺ كان يسأل فى مرضه الذى مات فيه : «أين أنا غداً ؟ أين أنا غداً ؟» ، يريد يوم عائشة ، فأذن له أزواجه يكون حيث شاء فكان فى بيتى حتى مات فى اليوم الذى كان يدور على فيه ، فقبضه الله ، وإن رأسه لبين سحرى ونحرى ، وخالط ريقى ريقه فى آخر أيامه من الدنيا ، ولقد اشتد عليه الموت حتى لا كره شدة الموت لأحد بعده .

قلت : ووجه السؤال فيه من وجهين :

أحدهما : أنه لم يغفل عن لذة النكاح التى هى عار عند الخصم — حتى فى مرض الموت .

الثاني : أن شدة الموت عليه عقوبة ، فدل أنه كان يستحقها .

وفى الحديث النبوى الصحيح : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » وفى المثل العامى : « المؤمن طقى ، والفاجر وقى » ثم لو كان لحوق المشقة فى الدنيا عقوبة لوجب أن يكون إلقاء إبراهيم فى النار ، وعمى إسحق ويعقوب ، وما جرى ليوسف ، وحزن أبيه عليه ، وبلاء أيوب ، وما قاساه موسى وهرون من بنى إسرائيل وقوم فرعون وقتل يحيى وزكريا وغيرهم من الأنبياء ، وإهانة اليهود للمسيح ، ثم قتله وصلبه ، وما جرى لتلاميذه بعده ، وقتل « جرجيس » أربع مرات ، ثم بعثه ، وحبس يونس فى جوف الحوت ونحو عقوبات فى حقهم وواحد لا يقول بذلك .

وأما قول عائشة « خالط ريقى ريقه » فليس ذلك بمباشرة استمتاعية ، بل لأن النبى ﷺ كان مستنداً إلى صدرها ، فدخل عبد الرحمن بن أبى بكر أخو عائشة ومعه سواك يستاك به ، فأتبعه النبى — ﷺ — بصره ، فقالت له عائشة : آخذه لك يا رسول الله ، فأومأ برأسه ، أى نعم — وكان يحب السواك لأنه كما قال — عليه السلام — : « مطهرة للفم ، مرضاة للرب » — فأخذته من أخيها فمضغته بفمها حتى لان ، ثم أعطته النبى ﷺ ، فاستاك به . وذلك هو المراد باجتماع ريقهما .

• • •

وهذا آخر ما وجدناه من هذا الكتاب ، على مصنفه من الله ما يستحقه .

الخاتمة

واعلم أن كل متناظرين لاتثبت دعوى أحدهما إلا بمقدمات مشتركة بينهما يتفقون عليها تكون بينهما كالحكم . فمن وافقت تلك المقدمات تثبت دعواه .

وإذا عرفت هذا فنحن ليس بيننا وبين النصارى واليهود مقدمات مشتركة إلا العقليات وما تركب منها ومن غيرها . لأن كل واحد من أهل الكتاب والمسلمين يقدح فى كتاب الآخر الذى بيده فلا تقوم عليه الحجة به .

فلنختم هذا الكتاب بذكر حجج واضحة على صحة دين الإسلام وصدق محمد ـ عليه السلام ـ

الحجة الأولى

وهى التى يعتمدها غالب المتكلمين فى كتبهم وهى : أن محمداً ادعى النبوة وظهر المعجز على يده وكل من كان كذلك فهو رسول الله حقاً ، فمحمد رسول الله حقا . أما أنه ادعى النبوة فبالتواتر ، وأيضاً لولم يدع النبوة لما كان لنزاع الخصم فائدة ، وأما أن المعجز ظاهر على يده ، فلما قررناه قبل وهو أن المعجز هو الأمر الممكن الخارق للعادة المقرون بالتحدى الخالى عن المعارض والقرآن الذى أتى به كذلك ، وإلا لظهرت معارضته مع توفر الدواعى عليه والإشكالات التى عليه للفلاسفة والبراهمة وغيرهم من منكرى النبوات مشتركة لا نختص نحن بها ، والتى عليه لليهود أو النصارى قد أجبنا عنها قبل .

وأما أن من ظهر المعجز على وفق دعواه يكون رسول الله . فللقطع بأن رجلا لو قال لقوم : أنا رسول فلان الملك إليكم ، ودليل صدق أنه يخرق عادته الفلانية لأجلى . مثل أن يقوم عن سريره ، أو ينزل عن مركب فيمشى لأجلى ، أو ينزع تاجه فيجعله على رأسى . فوجد ذلك من الملك ، دل على صدق مدعى الرسالة .

وهذا إنما يحتج به على منكرى النبوات . أما اليهود والنصارى فيسلمون أن ظهور المعجز يدل على صدق المدعى ، وإنما ينازعونا فى وجود المعجز . وقد أثبتناه .

الحجة الثانية

إن محمداً عليه السلام إما ملك ماحق ، أو نبى صادق ، لكنه ليس ملكا ماحقاً ، فهو نبى صادق . وإنما قلنا : إنه إما ملك أو نبى ، لأنه لا قائل يقول بثالث ، إذ الخصم يدعى أنه كان ملكا أقام ناموسه بسيفه ، ونحن نقول : كان نبيا صادقا مؤيداً من الله تعالى ، فقام ناموسه بالتأييد الإلهى ، وإنما قلنا : إنه ليس ملكا كما زعمتم ، بل نبى صادق[1] . لأننا علمنا بالإستقراء التام ، والتواتر القاطع : أن ملكا من ملوك الدنيا لم يبق ناموسه بعده ، بل يتغير بموته . وإنما تبق نواميس الأنبياء بعدهم ، ثم رأينا ناموس محمد باقيا بعده قريب ألف سنه . فعلمنا أنه من الأنبياء لا من الملوك .

---

(١) نبى صادق تمت له الرئاسة على قومه ، وما يخالفه مسلم فى أمر ونهى .

الحجة الثالثة

إن نبوة محمد — عليه السلام — لازمة لنبوة من قبله من الأنبياء جميعهم ثم قد وجد الملزوم الذى هو نبوة الأنبياء قبله ، فيجب أن يوجد اللازم ، وهو نبوته .

وإنما قلنا : إن نبوته لازمة لنبوة من قبله ، لأنا أجمعنا على أن المقتضى لنبوتهم إرادة الله ، والدليل عليها : ظهور المعجز . لكن إرادة الله خفية عن البشر . لا سبيل إلى معرفتها ، فبقى الطريق إلى ثبوت النبوة منحصر فى ظهور المعجز ، والمعجز مشترك بينه وبينهم بما حققناه غير مرة .

وإنما قلنا : إن وجود الملزوم يوجب وجود اللازم للقطع بأن ملزوما لا لازم له محال الوجود .

الحجة الرابعة

أن محمداً ﷺ أقر اليهود والنصارى فى شريعته بالجزية ، مع علمه بأنهم يكذبونه ويقدحون فى صدقه ، وما كان ذلك منه إلا مراعاة لحرمة كتابهم وأنبيائهم لأنه علم أنهم وإن تصرفوا فيها بالتبديل والتحريف المفهم لم يحرفوا الجميع ، إنما حرفوا ما كان تحريفه مهما عندهم ، فهم على بقايا من شرائعهم ، فراعاهم لذلك ، وجعل عقوبة كفرهم به : دفع الجزية والصغار عليهم .

ومن المعلوم أنه لو كان ملكا محضا لا نبوة له لأخلى الأرض منهم على تكذيبهم له ، وعدم طاعته لأن هذا شأن الملوك . لا يستبقون من خشوا عاقبته خصوصا ، ولم يكن يخفى عليه أن جيش الملتين يبقى بعده ، ويتطرق

منهما تشكيك أمته بالشبهات والترهات ، وذلك مما يضعف الناموس . فلما تركهم بالجزية دل على أنه مأمور فيهم من الله بما لا تصبر عليه نفوس البشر ﷺ، ولا يتجه على هذه الحجة إلا أن يقال : لعله تركهم ليستنبط له من تركهم هذه الشبهة ، ويوهم الناس العدل وأخلاق النبوة . لكن الجواب عنها : أنه لو كان قصده ذلك لكان ذلك يحصل له بأن يعف عنهم في حياته فقط ، ولا كان يوصى بهم كما أوصى بأمته ، حتى قال : « أنا بريء ممن وافاني يوم القيامة ولذى عليه مظلمة ، وقال لهم : « لهم مالكم وعليه ماعليكم » .

وهذا « أبو حنيفة » رحمه الله أول أئمة الإسلام وشيخ السلف . يقتل المسلم بالذمى لهذا الحديث ، وروى في مسنده بإسناد متصل : أن النبي ﷺ أقاد مسلما بكافر ، فلولا أنه مأمور فيهم من الله تعالى بالاستبقاء ، ولو كان ملكا محضا يحب الرياسة وإقامة الناموس ، لكان استبقاهم حال حياته ، وسكت عن الوصية فيهم بعد موته ، حتى كان المسلمون قد أخلوا منهم الأرض ، ولم يبق منهم من يورد هذه الشبه على دينه .

الحجة الخامسة

إنه عليه السلام قال : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا ، وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » .

وإنما قال ذلك لأنه علم أنهم حرفوا بعض كتبهم لا كلها فمنع من تصديقهم خشية أن يكون ما قالوه مما حرفوه ، ومن تكذيبهم خشية أن يكون مما لم يحرفوه . فالأول في غاية الحزم ، والثاني في غاية العدل . ولو لم يكن نبيا مأمورا

فيهم بذلك ، كما فى القرآن : « وماينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى »[1] لأغرى الناس بتكذيب كل ما عندهم . وكان ذلك أتم لناموسه ، وأغض من رءوس أعدائه . لأنا علمنا بالاستقراء من ملوك الدنيا أجمعين . أن أحدا منهم لم يترك من آثار من قبله من الملوك ولا الأنبياء ما يحذر منه على ملكه إلا عجزاً .

الحجة السادسة

تختص بالنصارى .

وتقريرها : أنكم زعمتم : أن المسيح هو الله ، أو ابن الله[2] ، وأنه ظهر إلى العالم ليفدى أهل الإثم من إثمهم وخطاياهم ، وفداهم بنفسه ثم بعد ذلك صعد إلى أبيه . فهو جالس عن يمينه . فإن كان هذا حقاً . فقد كان يجب عليه وينبغى له أن يقول لابنه حين ظهر محمد بدعوته : أهلك هذا ولا تدعه يفتن الناس ويضلهم . ثم احتاج أن أنزلهم فاستنقذهم من فتنته ، واقتل واصلب من تابعه .

لأن عندكم أن المسيح كامل العلم والقدرة ، ولا يخفى عنه شىء فى ملكه أو ملك أبيه . فبالضرورة أنه علم بظهور محمد — عليه السلام — فسكوته عن الإنكار والتغيير بحضرة أبيه يوجب إما التقصير والرضا بالضلال — والراضى بالضلال ضال — أو أن محمداً على طريق الرشد والكمال . وقد خيرناكم بين الأمرين ولا واسطة بين القسمين .

---

(١) النجم ٣ - ٤

(٢) إقرأ كتاب : أقانيم النصارى .

الحجة السابعة

جرت عادة الله في خلقه أنه يتداركهم على كل فترة برسول يرشدهم إلى الهدى ، ويصدهم عن الردى ، ولا خلاف أن العرب في جاهليتها لا سيما في أواخرها عند أوان ظهور محمد - عليه السلام - كانت أحوج الخلق إلى ذلك لما كانت عليه من الظلم والبغي والغارات ، والقتل بغير حق ، وسبي الحريم وظلم الغريم . والعناية الإلهية يستحيل منها عادة إهمالهم على ذلك من غير معلم يرشدهم ويسددهم ، كما تقرر أول هذا الكتاب في ضرورة الخلق إلى النبوات .

وما رأينا أحداً ظهر بناموس . قمع تلك الجاهلية ، وما كانت عليه من المنكرات . إلا أن محمداً - عليه السلام - فدل على أنه هو النبي المبعوث فيها وإذا ثبتت نبوته بهذا الطريق إلى العرب . فالنبي لا يكذب . وقد صح عنه بالتواتر أنه قال : « بعثت إلى الناس كافة ، وبعثت إلى الأحمر والأسود » ، وبهذا يظهر تحقيل من سلم من اليهود أنه أرسل إلى العرب خاصة لا إلى غيرهم .

الحجة الثامنة

لا خلاف عند كل عاقل : أن محمداً ﷺ كان من أعلى الناس همة ، وأوفرهم حكمة ، ولولا ذلك لما انتظم له أمر هذا الناموس . هكذا بعده مدة طويلة مع أنه دعوى عند الخصم . لا حجة معه .

ولا خلاف أن من كان بهذه المثابة من علو الهمة ووفور الحكمة . وهمته تعلو إلى تقرير منصب دائم ، ورياسة باقية . أنه يحتاط لأمره ، ويعمل نتائج فكره حتى لا يتوجه عليه مايفسد حاله ، ويبخس مآله .

ومن المعلوم عند كل حكيم فطن لبيب : أن الكذب ينكشف ويستحيل دوامه وينكشف ، خصوصاً والمسيح إله النصارى يقول : « ما من مكتوم إلا سيعلن ، ولا خفى إلا سيظهر (١) » .

فلو لم يكن « محمد » على يقين من صدق نفسه لما أقدم على دعواه خشية أن ينكشف أمره فى تضاعيف الأزمان فيعود عليه سوء الذكر ، مدى الدهر .

وكلامنا فى عالى الهمة وافر الحكمة ، يخشى معرة المآل ، كما يخشى معرة الحال فلا يرد علينا من يؤسس رياسة فى حياته بما أمكنه من كذبه وبرهانه ، ثم لا يبالى ما كان بعد مماته . فإن ذلك فى غاية الخساسة ، ويحصل مقصوده برئاسة الملك ، دون دعوى هذه الرئاسة .

« الحجة التاسعة »

لو لم يكن محمد صادقاً لكان المسيح كاذباً ، لكن المسيح ليس بكاذب ، فمحمد صادق .

بيان الملازمة أن المسيح ﷺ قال فى الإنجيل : « ما من خفى إلا سيظهر ، ولا مكتوم إلا سيعلن » وهذه نكرة فى سياق النفى فتقتضى العموم ، وإن كان خفى لا بد أن سيظهر ، فعدم صدق محمد فى دعواه ، إما إن كان ظاهراً أو خفياً فإن كان ظاهراً كان يجب أن لا يتابعه أحد ، وإن تابعه لرهبته أو رغبته فبالظاهر دون الباطن ، حتى إذا زالت رهبته أو رغبته بزواله رجع عنه ، لأن عاقلا لا يختار الباطل على الحق ، ولا الكذب على الصدق . فكيف بهذا الجمع

---

(١) متى

الكبير والجم الغفير في أقطار الأرض يختارون ذلك . هذا محال ، وإن كان خفياً وجب أن يظهر لا سيما مع دهاء العرب وذكائهم وفطنتهم وصحة طبعهم وفطرتهم ، فقد كان فيهم الكهنة والمنجمون والزجار والمتطيرون ، وأكثرهم يصيبون ولا يخطئون .

منهم من الأذكياء أبو بكر وعمر وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وكثيرون لا يحصرهم عدد ، وقد كانوا يستخرجون بأذهانهم ما هو أخفى . ويكفيهم أن «ابن المقفع» فيلسوف العجم شهد لهم بالفضيلة على الروم والفرس وسائر الأمم فيما ذكره «أبو حيان التوحيدي» في كتاب له . فمن المحال عادة أن يخفى عليهم أمر محمد — ﷺ — لو كان باطلا ، فدل على أنهم ما انهرعوا إليه مع كونه أول الإسلام في نفر قليل مستضعف إلا وقد علموا صدقه ، فصح قولنا : لو لم يكن محمد صادقاً لكان المسيح كاذباً في قوله : «ما من خفي إلا سيظهر» وأما أن المسيح ليس بكاذب فبالاتفاق منا ومنكم ، ولو نازعتمونا في صدقه أنتم أو غيركم ، لما وافقناكم على ذلك ، لأنا نحن أحق به منكم .

الحجة العاشرة

إن من نظر في دين الإسلام فوجده معظم الرسل عيسى وموسى وغيرهما بحيث أن من سب أحداً منهم أو تنقصه قتل . ورأى اليهود ينتقصون محمداً — عليه السلام — علم أن المسلمين أهل حق لا يشوبه تحامل ، وأن اليهود والنصارى أهل عناد وتحامل .

فإن قالت اليهود : إنما غضضنا من المسيح ومحمداً ، لأنهما كاذبان .

قلنا : فالذي ثبت صدق موسى ، قد أتى المسيح بما هو أعظم منه ، فقتضي

التصديق مشترك . فإما أن تصدقوا الإثنين أو تكذبوهما . أما الفرق فهوى وتحامل . وإن قالت النصارى : إنما تنقصنا محمداً لأنه ليس بصادق .

قلنا : تلو كم مقالة اليهود فى أنهم إنما تنقصوا المسيح لأنه ليس بصادق.

فإن قالوا : اليهود كفار ، عاندوا الله .

قلنا : كذلك نقول عنكم بالنسبة إلى تنقص محمد ـ عليه السلام ـ

فإن قيل : اليهود عاندوا بعد قيام الحجة بإظهار المعجز ، ونحن لم يأتنا محمد بمعجز :

قلنا : بل جاءكم بمعجزات قد سبق تقريرها ولكن عاندتم أو جهلتم ، ولهذا سمى الله — تعالى — اليهود مغضوباً عليهم ، والنصارى ضالين ، لأن تكذيب اليهود عناد ، وتكذيبكم يغلب عليه الجهل .

ولو أعطيتم النظر حقه لوفقتم ورشدتم .

* * *

هذا آخر ما تيسر إيراده فى هذا الكتاب .

سأل الله الكريم الوهاب أن يجعله لى إلى رحمته وشفاعة نبيه أنجح الوسائل وأقوى الأسباب ، ويوفقنى وسائر المسلمين لما يحبه ويرضاه ، ويوقفنا عما يبغضه ويقلاه ، فإنه لا إله إلاه ، ولا فاعل فى الوجود سواه .

وكان الفراغ من تعليق هذه المسودة صبيحة الإثنين سابع ذى قعدة الحرام سنة سبع وسبعمائة . والابتداء فيها يوم الإثنين ثانى عشر شوال من السنة

المذكورة بالمدرسة الصالحية ، من مدينة القاهرة ـ حماها الله وسائر بلاد الإسلام ـ على يد العبد الفقير إلى رحمة ربه القدير : سليمان بن عبد القوى البغدادى الطوفى الحنبلى ـ عفا الله عنهما وعن جميع المسلمين .

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين آمين . آمين يا رب العالمين .

ثم أنهاه نظراً وتصحيحاً ، لما وجد فيه من خلل طغيان القلم وملحقاته ما خطر له من الفوائد اللائق إلحاقها ، عشية الأحد عاشر شوال سنة ثمان وسبعمائة هجرية . والحمد لله رب العالمين .

• • •

نجزت هذه المبيضة كتابة من خط مصنفها ـ أمتع الله ببقائه ، ونفع المسلمين ببركته ـ فى السادس من شهر المحرم المبارك من سنة إحدى عشر وسبعمائة ـ أحسن الله فتحها بخير وعافيه .

كتبه الفقير الحقير، المعترف بالتقصير ، الراجى عفو الله الكريم ، الناسخ: على الزعيم .

تمت المخطوطة

وكان الفراغ من تحقيق المخطوطة والتعليق عليها وإعدادها للطبع والنشر في مدينة « الكويت » يوم الثلاثاء الثامن من ذى الحجة سنة ألف وأربعمائة وواحد من الهجرة النبوية ، الموافق السادس من أكتوبر سنة ألف وتسعمائة وواحد وثمانين من الميلاد ، والحمد لله رب العالمين :

دكتور / أحمد حجازى أحمد على السقا

الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٧	١٢	من و	ومن
٦٢	١٢	عامل	عاقل
٨٠	١٦	له لو	له
١٠٩	١٨	الحى	الحس
١٢٣	١٤	احذف ٤ أسطر	
١٥٨	٢	ضع سطر مجوم	
١٦٨		أول الصفحه : سطر نجوم	
١٧٥		آخر الصفحه : احذف : ثم ربطوا تلك	
١٩٠	١٣	هانت	كانت
١٩٢	٣	القيامه	تقوم الساعه
٢٠٥	٥	سطر نجوم	
٢٥١	١٦	وهو	هو
٣٢٨	آخر الصفحه	متى	متى ٢٦ : ٤٢
٣٢٨	»	» التكوين	التكوين ٢٧ : ٢٢
٣٣٠	»	» متى	متى ٧ : ١٥
٣٣٤	»	» التكوين	التكوين ١٤
٣٤٨	»	» متى	متى ١٠ : ٢٦

ملاحظة : وتوجد أخطاء لا تخفى على فطنة القارىء

فهـــرست

كتاب : الانتصارات الإسلامية فى كشف شبهات النصرانيه
تأليف : الطوفى الحنبلى

الموضوع	رقم الصفحه

* * *

مقدمات الرد على النصرانى

* * *

شروط النبوة الصادقه

الموضوع	الصفحه

* * *

القسم الثانى من شرط الصدق

ثانياً : تكذيب النصرانى لأحاديث نبوية

* * *

الشرط الثانى

الطهـــارة

* * *

الشرط الثالث

الاعجاز

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٤٢٧/١٩٨٣
ترقيم دولى ٩ — ٠٠٩ — ٤٣٣ — ٩٧٧

مطبعة دار البيان بمصر
ت ٩٢٨٦١٩

هذا الكتاب

العلماء المستنيرون هم الذين يبحثون عن الحق للحق ، لا لأغراض دنيوية ، ولا لمقاصد مذهبية . ولا يحملهم المذهب الذى نشأوا عليه على التعصب له ، من غير نظر فى المذاهب الأخرى ، أو نظر فى أدلة المذهب الذى نشأوا عليه . وإن من يجادل فى الحق بعد ما يتبين له الحق ، يكون مثله كمثل كاره الصلاة وليس له من مكان ينام فيه إلا المسجد ، إذا سمع المؤذن ينصرف عن المسجد ، ويقول لمن يسخر منه : إن المؤذن لا يؤذن للوقت بل كلما رآنى منصرفا يؤذن. وذلك ليسخر الناس منى. وهو يبرر انصرافه بهذا التبرير ليمنع سخرية الناس عنه . وفى الحقيقة يعلم علم اليقين : أنه كاذب .

إن العالم المستنير هو الباحث عن الحق من أجل الحق ، وهو الصادق مع نفسه . ومن كان هذا شأنه يكون حسن الصلة بالله ، وحسن الصلة بالناس .

محقق الكتاب

مطبعة دار البيان بمصر
ت ٩٣٨٦١٩